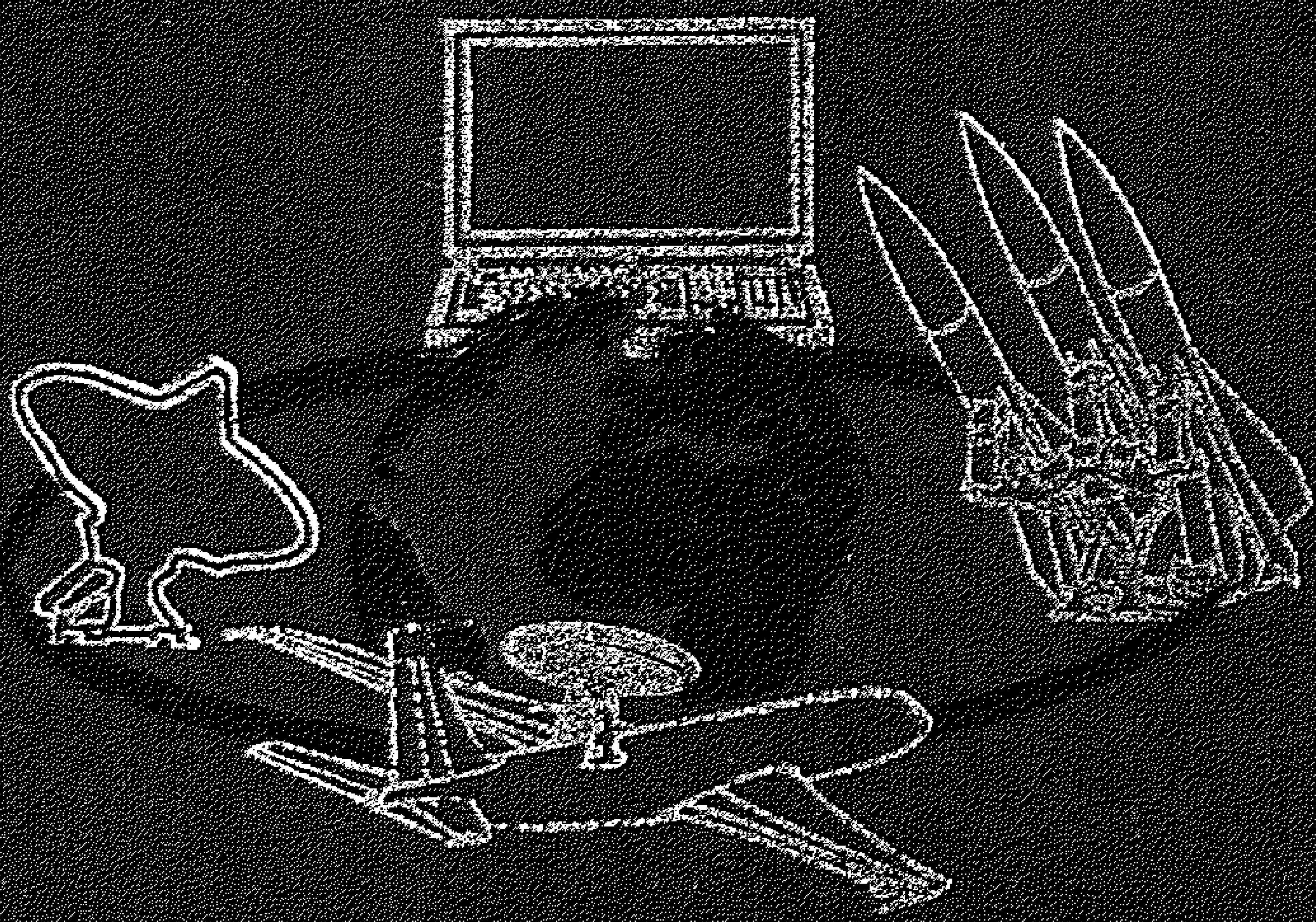
موسوعة

عالم المخابرات

كل شيء عن الجاسوسية والاستخبارات في العالم



NOBILIS

موسوعة عالم المخابرات

كل شيء عن الجاسوسية والاستخبارات في العالم

الجاسوسية والمرأة

أسعَد مفرِّج

ولجَنة من البَاحثين

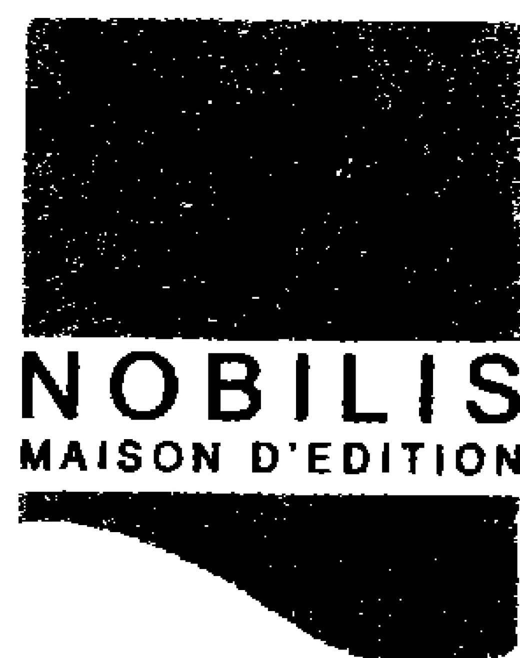
موسُوعَة

عَالَـــم المُخابَرات

كلُّ شيء عن الجاسوسيَة والاستخبَارات في العَالَم

الجزء الثَّاني والعشرون

الجَاسُوسيَّة والمَرأَة



إسم المَجموعَة	:	عَالَـــــم المُخابَرات كُلُّ شيء عن الجاسوسيَّة والاستخبَارَات في العَالَم
إسم الكِتَاب	:	الجَاسُوسيَّة والمَرأة
الجِزء	:	الثَّاني والعشرون
المؤلَّف	:	أسعَد مفرِّج ولجنَة من البَاحثين
قياس الكتَاب	:	٢٠ × ٢٨
مَكَان النَّشر	:	بيروت
دَار النَّشر والتَّوزيع	:	NOBILIS
تلفاكس	:	٩٦١ ـ ١ ـ ٥٨١١٢١
	:	٩٦١ ـ ٣ ـ ٥٨١١٢١

المُخَابرَاتُ والجَاسوسيَّةُ والنِّساء

يقول أحد الباحثين في شؤون التجسّس: "منذ بدأ التجسّس في التاريخ قامت الصلة بينه وبين الشرك الجنسيّ. ففي الكتاب الرابع من موسى تنقذ العاهرة راحاب حياة جاسوسَين من جواسيس يشوع من قبضة جهاز مكافحة الاستخبارات في مملكة أريحا. وكان هذا أوّل لقاء مؤرّخ بين أقدم مهنتَين في العالم. إحدى خليفات راحاب في تجارة الحبّ والتجسّس هي ماتا هاري، وهي غانية هولنديّة عملت لحساب الألمان في الحرب العالميّة الأولى وأعدمها الفرنسيّون. ومنذ البداية، عرف جهاز التجسّس الإسرائيلي "الموساد" قيمة الشرك الجنسي، ويقول أحد الرؤساء السابقين لهذا الجهاز واسمه مائير عاميت، في موضوع استغلال المرأة في عمليّات التجسّس: إنّه أحد الأسلحة. فالمرأة تتمتّع بمهارات تميّزها عن الرجل. إنّها تعرف كيف تصغي. وحديث الوسادة ليس مشكلة عندها. إنّ تاريخ الاستخبارات الحديثة مليء بقصص النساء اللواتي يستخدمن أجسادهنّ من أجل خير بلادهنّ. ومن الحماقة القول إنّ إسرائيل لم تفعل ذلك. لكنّ نساءنا متطوّعات نبيلات المشاعر، وهنّ يعرفن ما ينتظرهنّ من مخاطر. إنّ مثل هذه المهامّ تتطلّب شجاعة من نوع خاص. وليس المهمّ مضاجعة شخص ما، بل جعله يعتقد إنّك ستفعل ذلك في مقابل ما سيطلعك عليه. وتأتي بعد هذا المهارات العظيمة التي يجري استغلالها لهذا الغرض[1]".

---

١ ـ طوماس غوردون، إنحطاط الموساد، إغتيالات وأكاذيب وارتزاق، ترجمة د. محمّد معتوق، دار بيسان (بيروت،٢٠٠٠) ص٢٠٦.

وقد تعدّدت الآراء حول إقحام المرأة في أعمال الاستخبارات والجاسوسّية. فمنها من اعترض بوضوح على اشتغالها بأجهزة المخابرات، اعتمادًا على أن المرأة بطبيعتها انفعاليّة وتفتقر إلى الأعصاب الباردة، وربّما إلى الحكم الصائب في بعض الأحيان، وعلى أنّها ميّالة إلى الثرثرة والحديث عن مشاغلها السريّة، وفي أحيان كثيرة تعجز عن الاحتفاظ بالأسرار، فتقوم بتسريبها تحت التأثيرات العاطفيّة حيث تمتزج مشاعر الحبّ والغيرة وما يترتّب عليهما من تأثير سلبيّ على عملها السرّي بدوافع انتقاميّة ضارّة. ويرى هؤلاء أنّه من الخطر استخدام النساء في مجالات الأعمال الأمنيّة.

بينما يدعم آخرون اشتغال المرأة بالأعمال الاستخباراتيّة لما تتمتّع به من مزايا طبيعيّة متفوّقة فيها على الرجل، إذ باستطاعتها ان تنتزع الأسرار والاعترافات من العشّاق لها بسهولة، لأن الرجال يهوون دائمًا الثرثرة مع عشيقاتهم. فإنّ اللقاءات الغراميّة تعتبر من الميادين الخصبة للحصول على المعلومات السريّة للغاية... ذلك بالإضافة إلى أنّ فنّ الإغراء الذي تجيده المرأة هو الفخّ الذي يقع فيه الرجال دائمًا، ويستدلّون على ذلك بحكاية شمشون الجبّار الذي كان يتمتّع بقوّة هائلة مجهولة، فقد تمّ اكتشاف سرّ قوّته حين أغرم بـ"دليلة" التي عمدت إلى الحصول على سرّ قوّته، وسرعان ما جرّدته منها، وهذا ما عجز عن الوصول إليه كلّ الرجال الأذكياء والأقوياء في ذلك الزمان.

ويستند أصحاب الرأي القائل بدعم النساء للعمل في المجالات الأمنيّة إلى الكثير من الأمثلة التاريخيّة المنتشرة في معظم بلدان العالم، والتي أثبتت فيها بعض النساء، وبدافع من المثاليّة والوطنيّة، قدرتهنّ على معايشة المخاطر والمهدّدات، ومنهنّ من بذلن حياتهنّ في سبيل ذلك.

كان للحرب العالميّة الأولى دور كبير في محو تلك الخرافة التي كانت تقضي بعدم استخدام النساء في أعمال الجاسوسيّة. فلقد أثبتت التجارب خلال تلك الحرب تفوّق العبقريّة النسائيّة في التجسّس، واستمرّت هذه التجربة بنجاح خلال الحرب العالميّة الثانية على الرغم من ازدياد حذر الرجال واحتياطاتهم الدائمة.

والواقع أنّ الاستخبارات اليابانيّة قد اعتمدت كثيرًا على السيّدات البيض، حتّى وفي نيو يورك نفسها. وكان من بينهنّ "فليغلي ديكينسون" الملقّبة بـ"سيّدة الدمى". والآنسة "روث كوهين" محظية الدكتور "غوبلز" وزير الدعاية النازيّة، وقد قُدّر لهاتين الجاسوسَتين، مع اختلاف موقعيهما، أن يخلقا ما سُمّي بـ"مأساة بيرل هاربر".

ونجحت نساء كثيرات في إدارة العمل الاستخباراتيّ. فقد كانت الفرنسية "ماري مادلين فوركاد" في عمر الثلاثين عامًا قائدة لشبكة الاستخبارات العسكريّة، فأحاطت نفسها بحوالي ثلاثة ألف عميل ومائة مركز لبثّ المعلومات.

واستطاعت البلجيكيّة "أندريه دو غونغ" من تأسيس منظمة "النيزك" التي أتاحت للحلفاء استعادة مئات الطيّارين الذين تمّ أسرهم على أيدي الألمان.

وفي عام ١٩٨٨ تمّ تعيين الدنماركيّة "فان بيش هاتسون" على رأس دائرة الاستخبارات السريّة.

كما تمّ تعيين "ستيلاّ ريمينغتون" لرئاسة جهاز MI 5 البريطانيّ في سنة ١٩٩٢.

وأصبحت الأميركية "كريستين ويلي" عام ١٩٩٥ المديرة المساعدة في وكالة المخابرات المركزية الأميركيّة CIA لشؤون الموارد البشريّة.

وكانت الروسيّة "سميرنافو" التي وصلت إلى رتبة لواء، قد عُيّنت رئيسة لوكالة الاستعلام والارتباط الفيدراليّة.

وفي الصين، تمّ تعيين "لي شوزينغ" الاختصاصيّة في العمل السرّي رئيسة إدارة الارتباطات الدوليّة.

كما أصبحت الأميركيّة "كوندوليسّا رايس" مستشارة الرئيس الأميركي جورج بوش الابن لشؤون الأمن القوميّ.

وأصبحت دائرة المخابرات البريطانية MI 5 تضمّ أكبر نسبة من النساء، حيث يمثّل العنصر النسائي ربع عناصر العاملين في الجهاز.

والجدير بالذكر أن الولايات المتّحدة منعت النساء من العمل في مكتب التحقيقات الفيدرالي حتى عام ,١٩٧٢ أما السوفيات، فكان استخدام النساء عندهم في الـ KGB يتمّ على نطاق واسع، ويجري تدريبهنّ على الطرق الخاصّة في انتزاع الأسرار والمعلومات من الرجال، حيث أن الإغراء كان أحد الموادّ التي تدرّس في معسكرات التدريب إلى جانب قراءة الخرائط وأعمال التخريب والتدريب على استعمال الأسلحة المختلفة وتوفير اللياقة البدنيّة المرتفعة وأساليب استعمال القوّة للدفاع عن النفس، كما كان التدريب يهدف إلى تخليص النساء العاملات في جهاز المخابرات من أهمّ العيوب ومنها: إقامة علاقات غير صحيحة ومبالغ فيها؛ والافتقار إلى المقاومة الجسمانيّة التي يتمتّع بها الرجل؛ والوقوع في غرام عاطفيّ مع الرجال الذين يكلّفن بمراقبتهنّ...

بالرغم من أنّ العديد من الجاسوسات الساحرات استخدمن مفاتنهنّ وقدراتهنّ كأفضل سلاح لهنّ لانتزاع الأخبار والمعلومات والأسرار الغاية في السريّة، إلاّ أنّ هناك العديد من النساء اللواتي استخدمن العقل والعلم والثقافة والذكاء والحيل الماكرة للحصول على أدقّ المعارف والأسرار والمعلومات. وهنالك أيضًا الكثيرات من اللواتي شاركن في الأعمال القذرة التي تقوم بها أجهزة الاستخبارات المختلفة من أعمال الخطف والتدمير والاغتيالات، وقد كان مصير عملاء أجهزة المخابرات من

النساء عند اكتشافهنّ كمصير الرجال، سواء كانت العقوبة الشنق أو الرمي بالرصاص أو السجن لمدّة طويلة أو الحياة في الظلّ، وفي المقابل، تمكّن بعضهنّ من الحصول على أوسمة رفيعة من الدولة التي خدمن.

ويذكر باحثون أنّ المخابرات المعادية للعرب قد أدركت بأنّ اشتغال المرأة في أعمال الاستخبارات الموجّه ضدّ الأنظمة العربيّة ومواقع اتخاذ القرار السياسيّ والاقتصاديّ والعام، سيكتب لها النجاح إذا أتيح للنساء الجميلات الدخول في هذا المضمار، خصوصًا وأنّ أعداء العرب يعرفون معنى الكبت الجنسيّ لدى الشباب العربيّ، ومفهوم الأعراف، وخصوصًا لدى المراهقين حيث تظلّ عقدة الجنس سيفًا مسلّطًا علىالرؤوس، ولا يستطيع الفرد مقاومة الإغراء طويلاً. فكثيرًا ما سقطت رؤوس وانحنت سواها أمام الإغراء من قبل نساء الجاسوسيّة الحسناوات العاملات لصالح المخابرات الصهيونية والأميركية والغربيّة وغيرها... وقد تبيّن ذلك حين ازدادت الفضائح وانكشفت الأسرار التي كان ضحاياها من ضعاف النفوس.

ويلاحَظ أن عمليّات الاختراق الاستخباراتي والتجسّس في البلاد العربيّة كانت في الغالب نتاجًا لعدم القدرة على مقاومة الإغراء الجنسيّ واتباع الشهوات والعواطف والضعف أمام المرأة المنفّذة لعمليّات الاختراق، والمدرّبة على أساليب التجسّس، والمكلّفة بالحصول على أدقّ المعلومات السريّة. ويقول هؤلاء الباحثون إنه "إذا لم يتمّ التحرّر من عقدة الجنس... فسيكون خطر النساء الجاسوسات بدون مقاومة، وسيكون المجال أمام أجهزة المخابرات المعادية مفتوحًا للحصول على ما تريده من معلومات سهلاً وميسّرًا عن طريق الرجال الضعفاء[1]"...

---

[1] راجع: صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، مكتبة مدبولي (القاهرة،٢٠٠٣) ص٢٤٧ ـ ٢٤٩؛ الجزائري سعيد، المخابرات والعالم، دار الجيل (بيروت،١٩٨٨) ٢: ص٧.

المرأة والأمنُ السّياسيّ

على صعيد "الأمن السياسيّ"، لمّا كانت المرأة تلعب دورًا سياسيًّا مثل الرجل، ولها تنظيمات واتّحادات وروابط، بالإضافة إلى وجودها داخل أحزاب الحكومة والمعارضة، فإنّ ذلك يجعلها موجودة دائمًا وسط ساحة العمل السياسيّ المؤيّد والمعارض، علمًا بأنّ مشاركتها السياسيّة متنوّعة، وترتبط بالقضايا الوطنيّة والقوميّة والإنسانيّة، وترمز إلى حسن إدراكها ووعيها، وهي التي غالبًا ما تقوم بأعمال المقاومة والاعتراض السلميّ على بعض قرارات الحكومة ومواقفها.

وإنّ العديد من الأحزاب والتنظيمات المعارضة، يدفع بعناصره النسائيّة للمواجهة والجهر بالمقولات والشعارات والآراء المعارضة، مدركة بأنّ قوّات الأمن والمخابرات بحكم ارتباطها بالأعراف والتقاليد الإيجابية في كثير من المجتمعات، تترفّع عن منازلة وضرب النساء والإساءة إليهنّ، بالرغم من المعرفة بأنهنّ مدفوعات للقيام بدور الرجال الذين لم يستطيعوا القيام به. فمن الضروريّ وضع لوائح وقوانين تحكم عمليّات اعتقال النساء والتحقيق معهنّ بحيث يراعى الشرع في هذه القوانين، وألا تحرم النساء من القيام بواجبهنّ الوطنيّ ودورهن السياسيّ البارز، خصوصًا حيث يختفي الرجال من على مسرح العمل السياسيّ المعارض، ويدفعون بالنساء والأطفال لما لم يستطيعوا أن يعبّروا عنه، وإنّ تعامل الأجهزة الأمنيّة بوعي في مواجهة مثل هذه الأحوال، من شأنه أن يحقّق كثيرًا من الاستقرار، وأن يوسّع مساحات الحوار الوطني حول الثوابت الوطنيّة[1].

---

١ ـ صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، ص٣٧٣.

لويز دي كوريالي

كانت "لويز دي كوريالي" عميلة الملك لويس الرابع عشر ملك فرنسا، وعشيقة شارل الثاني ملك إنكلترا، وقد لعبت هذه العميلة دورًا أساسيًّا في حمل شارل الثاني إلى أن يتحول للكثلكة. وقد عقد مع فرنسا معاهدة "دوفر" بعد أن استغلّت كوريالي أنوثتها ونفوذها الطاغي بعد أن ذهبت مع هنرييت زوجة لويس الرابع عشر وشقيقة شارل الثاني لعرض المال على ملك إنكلترا بعد إفلاسه مقابل تحوّله إلى الكثلكة. وقبل أن تعود هنرييت إلى فرنسا، كانت الوصيفة الحسناء كوريالي قد عرفت الطريق إلى الفراش الملكيّ. وبعد شهور قليلة عادت "لويز دي كوريالي" إلى لندن ثانية، وكانت هذه المرّة المبعوثة الرئيسيّة. وقد نجحت كوريالي في مهمّتها نجاحًا كبيرًا عندما حقّقت انسحاب شارل الثاني من الحلف الثلاثيّ ضدّ فرنسا وانضمامه إلى لويس الرابع عشر في حملة البلاد الواطئة.

وقد كره الإنكليز كوريالي كرهًا مقيتًا بسبب كثلكتها ونفوذها الطاغي على الملك، كما أنّهم كانوا على يقين بأنّها السبب في عقد معاهدة دوفر. وبعد موت شارل الثاني عادت إلى فرنسا وماتت في باريس عام ١٩٣٤ في الخامسة والثمانين من عمرها[1].

---

١ ـ زهر الدين د. صالح، موسوعة الأمن والاستخبارات في العالم، المركز الثقافي اللبناني (بيروت،٢٠٠٣) ١١: ٢٤٣ ـ ٢٧٤، عن: نصر صلاح، الحرب الخفيّة، ص١٧٢ ـ ١٧٤.

المُخَابَراتُ الإسرَائيليَّة والنسَاء

لمّا كان من أهداف المخابرات الحصول على المعلومات ذات الطبيعة السريّة، فإنّ المرأة الجميلة تكون مؤهّلة وقادرة على إغراء الرجال للحصول على ما تريده...

أيقنت الاستخبارات الإسرائيليّة أنّ عنصر النساء هو عنصر مهمّ وضروريّ في عمليّة التجسّس، لذلك لم توفّر فرصة سانحة إلاّ واستغلّتها في هذا المضمار، مستفيدة من تجارب غيرها من الأجهزة ومن تجربة اليهوديّات أيضًا، وذلك عملاً بقول أحد الحاخامين اليهود: "إنّ الذين يعملون ويناضلون من أجل الأرض، عليهم ألاّ يغاروا على بناتهم[٧]".

وقد لمع من اليهوديّات في هذا الميدان: "سارة أونسون"، "شولا كوهين"، "فيكتورين نينو" المعروفى باسم "مارسيل"، "سيلفا رافائيل"... وغيرهن... وقبلهنّ جميعًا كان هنالك جاسوسات صهيونيّات، منهنّ "روزا مردخَاي".

---

١ ـ جريدة "نداء الوطن" اللبنانيّة، عدد ٢١ تشرين الثاني ـ أكتوبر ١٩٩٨، ص١٠.

روزَا مردخاي

في بدايـة الحـرب العالميّـة الأولـى أوفـدت الاسـتخبارات البريطانيّـة بالتنسـيق مـع الاستخبارات الصهيونيّة الفتاة اليهوديّة "روزا مردخاي" إلى بيروت.

سكنت روزا ووالدتها في منزل "سعيد الشامي" في محلّة "الخنـدق الغميـق" القريبـة من الحيّ اليهودي في بيروت المعروف باسم "حيّ وادي أبو جميل". وفي مسكنها هـذا كـانت تعاشـر الضبّـاط الألمـان وتختلـس منهـم بعـض الأسـرار العسـكريّة وتنقلهـا إلـى رؤسائها، كما كانت تجمع بين جواسيس يهود وضبّاط أتراك. إلـى أن اكتشـف الألمـان أمرها في الوقت الذي كان على الأتراك القيام بهذه المهمّة.

أُوفد الضابط الماجور الكونت "ويلهلم فون برخولد" بمهمّة من القدس إلى اسطنبول لمخابرة أنور باشا بضرورة جلاء الجيش عـن القـدس والانسـحاب إلـى خـطّ يمتـدّ مـن الناصرة إلى الساحل المقابل لإيجاد خطّ دفاع مناسب، ولم تكن القـدس قـد سـقطت فـي ذلك الوقت من تمّوز ـ يوليو ١٩١٧ بين أيدي الإنكليز الذين احتلّوها في كانون الأوّل ـ ديسمبر من العام نفسه. اختار هذا الضابط طريق عكّا ـ بيروت للسفر إلـى اسـطنبول، حيث وصل بيروت في اليوم الثالث. وفي اليـوم التـالي لوصـول الكونـت ويلهلـم فـون برخولد ذهب مع نفر من أصحابه إلى دار روزا مردخاي في الخندق الغميق، وتناولوا ما طاب لهم من الخمرة، وأمضوا سهرة راقصة انصرفوا في نهايتها إلى رقادهم. ولمّا أفاق الكونت صباحًا تفقّد حوائجه فلم يجد المحفظة ولا الرسـالة التـي كـان يحملهـا مـن المشير "فون فالكنهاين" إلى أنور باشا، فطار صوابه.

كانت روزا قد أخذت المحفظة وصوّرت ما فيها من وثائق بما فيها الرسالة. ثمّ وضعت فيها خمس ليرات تركيّة ورمتها في الشارع، فوجدها رجل بائس من أهالي بيروت يدعى "أحمد الصاوي"، فأخذ المال واحتفظ بها. وعندما عاد الضابط الألماني إلى روزا ليسألها عن المحفظة والرسالة، أنكرت معرفتها بالأمر، وطلبت منه أن يُعلم الشرطة، وهكذا كان. وبعد أن أحضر أحمد الصاوي أنكر إيّ علم له بالمحفظة، إلاّ أنّه عاد واعترف بأنّه أخذ الليرلت الخمسة التي كانت فيها لإطعام أولاده الجياع.

تعجّب الضابط الألماني لأنّ محفظته لم يكن فيها ليرات تركيّة، فشكّ في الأمر خاصّة بعد أن لاحظ أنّ الكتاب السرّي قد فُتح، فأحال أحمد الصاوي إلى رئيس البوليس العدلي المفوّض "عارف الياسرجي"، وقد ضُرب الصاوي بقسوة للإقرار بالحقيقة، ولكن دون جدوى. وبعد محاكمة قصيرة حُكم عليه بالإعدام من قبل المجلس العرفي في عاليه ونُفّذ به الحكم فورًا. لكنّ مدير الاستعلامات الألمانيّة في ساحة البرج ببيروت "كارل هوبل" شكّ في أمر روزا وبدأ يراقبها إلى أن عرف مخبروه بأنّها على علاقة مع شابّ يهوديّ يدعى "كوهين أوينبرغ". وبعد ثلاثة أشهر تمكّن من اعتقال كوهين وصادر منه بعض الأوراق السريّة المتعلّقة بمسلك ضبّاط ألمان في بيروت ومخابراتهم مع القيادة، فاقتاده إلى الماجور "فون برت" زعيم الاستخبارات الألمانيّة في حيفا. ثمّ اعتقل روزا مردخاي بعد يومَين وسلّمها مع والدتها إلى فون برت بعد أن قدّمت للاستخبارات البريطانيّة والحركة الصهيونيّة خدمات كبيرة من جرّاء حصولها على كثير من الأسرار العسكريّة الخاصّة بالقوّات الألمانيّة والتركيّة كانت سببًا في انتصارات القوّات الإنكليزيّة وسيطرتها على كثير من مدن فلسطين وقراها[1].

١ ـ ملكي علي، الجاسوسيّة الصهيونيّة في البلاد العربيّة، منشورات صوت الشوف (لا.ت.) ص٣٣ ـ ٣٧.

الجَاسُوسَة البَريطانيَّة الحسنَاء: فلور

يعمل جميع أجهزة المخابرات في العالم على اصطياد بعض العملاء لتسخيرهم في العمل لصالحه، بالإغراء تارة، وبالتهديد بمختلف الوسائل حتّى اللاأخلاقيّة منها في بعض الدول... كما نجد في قصّة الجاسوسة البريطانيّة "فلور" الحسناء الجميلة التي كانت جذّابة وجريئة، بالإضافة إلى إتقانها عدّة لغات، حيث كانت تكلّف بالمهام الصعبة.

كانت فلور تُدعى إلى أغلب الحفلات الاجتماعيّة بترتيب من المخابرات البريطانيّة. وكانت تصاحب عليّة القوم لتحصل على أدقّ الأخبار. ومعلوم أنّ أحد كبار المسؤولين الفرنسيّين وقع في حبّها، وعرض عليها الزواج، تاركًا أولاده وبيته... ولكنّها صدّته بأدب قائلة إنّها لا تريد منه هذه التضحية، وستبقى له صديقة مخلصة... بالطبع للحصول على المزيد من الأسرار التي كان يحدّثها بها في ساعات صفائهما... وإنّ أحد رؤساء الوزارات الإيطاليّة أيضًا وقع في حبائلها، وأصبح لا يفارقها. وفي عام ١٩١٥، علمت المخابرات البريطانيّة أنّ أحد كبار الجواسيس الألمان يقيم في سويسرا، تحت إسم الأستاذ "أهردات"، فأرسلوها إليه لتكتشف حقيقته وتساعد على اعتقاله.

كان أهردات يقطن في غرفة خاصّة استأجرها في فندق، وكان لا يسمح لأحد بدخول غرفته بحجّة خوفه من أن يعبث أحد في مجموعة الآثار التي جمعها... وإذا

أراد الخادم تنظيف الغرفة، فليكن بحضوره... والحقيقة أنّه لم يكن في الغرفة آثار قديمة ولا تحف، بل كان هناك أدوات تجسّس، من جهاز لاسلكي، ولوائح بأسماء عملاء ألمانيا في سويسرا الذين يتّصل بهم ويتعاون معهم... وهذا بالذات ما رغبت المخابرات البريطانيّة به.

توجّهت فلور بأمر المخابرات البريطانيّة إلى مدينة زوريخ في سويسرا، ونزلت في نفس فندق "هيرشن" الذي ينزل فيه أهردات، وبدأت تحاول لفت نظره حتّى وقع في حبّها كما كان مرتّبًا. وبعد أيّام دعاها إلى غرفته لتناول كأس من الويسكي... وفعلاً، لبّت فلور دعوته بسرور زائد، وأخذا يتبادلان الشراب حتّى تأكّد لها أنّه أصبح تحت سيطرتها، فطلبت منه أن يذهب إلى غرفتها في الطابق الأوّل، ويحضر لها ألبوم الصور من خزانتها لتطلعه عليها.

ما أنّ توجّه أهردات إلى غرفة فلور، حتّى قفزت إلى أوراقه وحاولت وضعها في حقيبتها. وفي هذه اللحظة دخل سكرتيره الذي كان يشكّ في تصرّفات فلور مع سيّده، ويراقبها من ثقب الباب لدى خروج الأستاذ... فقيّدها، حتّى حضر أهردات ليفاجأ بما رأى، فصحا من سكرته وأقسم على تسليمها للسلطات... ولكنّها كانت من الذكاء والتدريب بحيث تمكّنت من الإفلات سابقًا من العديد من مثل هذا المأزق... فوعدته بإعطائه أسماء الجواسيس البريطانيّين في ألمانيا... وأماكن وجودهم... مقابل أن يطلق سراحها. ورضي بذلك، وأخذ يكتب ما تمليه عليه من أسماء... إلاّ أنّ أهردات قد تلقّى بعد مدّة كتابًا من برلين التي لامته فيه لومًا شديدًا على تقريره الخاطئ الذي ليس فيه سوى أسماء وهميّة لا قيمة لها...

وإذا فشلت فلور في مهمّة، فإنّها نجحت في العديد من المهمّات. وكانت تتنقل من برلين، إلى ميونيخ، إلى هامبورغ... وهي تحمل جواز سفر هولنديّ... وطلبت منها

المخابرات البريطانيّة الحصول على الشيفرة الألمانيّة البحريّة، فسعت جاهدة حتّى أوقعت أحد ضبّاط البحريّة الألمان في غرامها، وحصلت منه على الشيفرة التي تتخابر بها المدمّرات الألمانيّة في البحر. وقد ساعدت الشيفرة على معرفة استعداد الألمان في معركة "غوتلند" البحريّة المشهورة[1].

---

١ ـ الجزائري سعيد، المخابرات والعالم، دار الجيل (بيروت،لا.ت.) ١: ١٢١ ـ ١٢٣.

السّيدة جوتردبل: جاسُوسة بَريطانيَّة

كانت السيّدة "جوتردبل"، سيّدة مجتمع بريطانيّة من الدرجة الأولى، امتازت بجرأتها وثقافتها الواسعة... أُرسلت عام ١٩١٥ بمهمّة خاصّة من قبل المخابرات البريطانيّة إلى القاهرة، ونزلت فندق "شبرد". وبعد مدّة أصبحت تُدعى إلى مختلف الحفلات الاجتماعيّة. وكانت أثناء ذلك تقوم بجمع المعلومات عن "الحركة القوميّة المصريّة"... تنقّلت في مهمّتها ما بين القاهرة والإسكندريّة، وظهرت في الأهرامات تركب الجمال، وتستقي الأخبار من هنا وهناك... ونظرًا لما كانت تغدقه عليها المخابرات البريطانيّة من أموال، كانت تظهر في أرقى الفساتين التي كانت تحضر بعضها من إيطاليا، وتشتري بعضها الآخر من محلاّت "شيكوريل" المعروفة بالقاهرة.

أخذت السيّدة جوتردبل تُظهر بعض العطف على "حركة التحرّر" من الاستعمار البريطانيّ، كما دُرّبت... وكانت في الوقت نفسه قد أسّست شبكة للتجسّس ممّن اصطادتهم كأصحاب الحانات وبعض الأدلاّء، الذين يجيدون غالبًا اللغة الإنكليزيّة والترجمة، ومثلهم بعض موظّفي السفارات الأجنبيّة في القاهرة ممّن تعرّفت إليهم بحكم تردّدها على هذه السفارات لحضورها حفلاتها المختلفة.

عملت جوتردبل بإخلاص، وكانت تزوّد المخابرات البريطانيّة بجميع ما تطلب معرفته عن "أحرار" مصر، حتّى أنّها انتقلت إلى الصحراء، وأقامت مع البدو، وتعلّمت بعض لغتهم، وعقدت صداقات مع رؤساء العشائر، وأكلت من طعامهم باليد على

طريقتهم... وتحمّلت المشاقّ والمصاعب دون أن تخلد إلى الراحة، حتّى مُنحت أثناء ذلك، ونظير خدماتها هذه، وسام "الأمبراطوريّة". هذا الوسام الذي لا يمنح إلاّ لكبار القادة العسكريّين أو لمن يقومون بأعمال خارقة لرفع شأن الأمبراطوريّة العظمى.

صدرت الأوامر إلى السيّدة جوتردبل بالسفر إلى السودان، لمتابعة عملها التجسّسيّ هناك، وأقامت مدّة في فندق النيل بمدينة الخرطوم، تنفّذ ما طُلب منها تنفيذه. ثمّ نُقلت إلى الهند، حيث بقيت مدّة في نيودلهي أعيدت بعدها إلى شرق الأردن والحجاز حيث قابلت "جورج فيلبي" أو "الحاج عبدالله" كما كان يُسمّى بعد إسلامه... وأخيرًا أرسلت إلى العراق فظهرت في مجتمعات بغداد، ولا يزال يذكرها بعض كبار الرعيل الأوّل من الأوساط البغداديّة الراقية... ثمّ انتقلت إلى الموصل، وعندما أخذ بعض قطّاع الطرق يتعرّضون للقوافل في حينه، طلبت من السلطات البريطانيّة إرسال الجنود لتأديبهم... كما حرّضت البريطانيّين على مهاجنة قبيلتَي "شمر" و"المطير".

كانت جوتردبل دائمة التجوّل في الصحراء العراقيّة، وصادفت أثناء تجوالها قافلة متوجّهة إلى أفغانستان بقيادة شابّ تذكّرته... ولمّا حاولت السلام عليه قال لها بعض معاونيه إنّه "حمّال إيرانيّ"، فابتعدت عنه إذ إنّه كان زميلها "لورانس العرب"، وكان في طريقه لتنفيذ مهمّة مثلها...

بقيت جوتردبل تمارس نشاطها في البلاد العربيّة حتّى سنة ١٩٢٦، حيث أُعيدت إلى الهند. وهناك توفّيت بعد أن أدّت أعظم الخدمات لـ"الأنتلّجانس سرفيس"[١].

---

١ ـ الجزائري سعيد، المخابرات والعالم، دار الجيل (بيروت،لا.ت.) ١: ١٩٤ ـ ١٩٥.

إليزبيث شراغموللر: الدكتورة الحسناء

أظهر ذلك الرجل الذي كان في قبضة اثنين من رجال البوليس العسكريين الأقوياء شعورًا عاطفيًا بائسًا ومحزنًا معًا حينما عرف أنه في طريقه إلى إطلاق النار عليه لكونه جاسوسًا. وبمواجهته مسؤولاً بريطانيًا متجهم الوجه جالسًا وراء مكتب في وقت أخذت فيه الأمطار الشديدة في ذلك الصيف الرطب من ١٩١٥ في الهطول على الخيمة من غير انقطاع، حاول الرجل تجنب النظر إلى مجموعة الأوراق التي تحمل في طياتها دلائل أفعاله التجسسية: رسالة بريئة المظهر تضمنت كتابة غير مقروءة مكتوبة بين السطور، وبطاقة هوية بلجيكية تبين أنها بطاقة مزيفة، وقصاصات صغيرة من أوراق مكتوبة بكلمات رمزية جرى العثور عليها في باطن حذائه.

وقدّم المسؤول البريطاني عرضًا: إذا قال الجاسوس كل ما يعرف، فسيعامل كأسير حرب، ويوضع في أحد مخيمات السجون، وإذا لم يقل، فسيطلق عليه الرصاص في غضون ٢٠ دقيقة. ولم يتردد هذا الجاسوس، المولود في بلجيكا والمجنّد لحساب الألمان لحظة واحدة، وبدأ في الكشف عن حكايته. وفي نظر مسؤول الاستخبارات في الجيش البريطاني، فإن حكايته كان لها رنين مألوف، والسبب في ذلك هو أنه إستمع إلى عشرات الحكايات المماثلة من قبل. وكانت الحكايات كلها واحدة: عرض بالتجسس لحساب الألمان، واستدعاءات غامضة في سكون الليل، وجولة في سيارة تحت ظلال الأشجار، ووصول إلى بناية في أنتويرب البلجيكية الواقعة تحت الاحتلال الألماني، وترحيب من إمرأة أعلنت أنها ستكون المدربة في مدرسة التجسس...

كانت إمرأة طويلة، شقراء بعيون زرقاء ثلجية لم يُر مثلها من قبل. ومثلها كمثل الرقيب المعني بالتدريب العسكري، أعلنت بصوت عال عن الأوامر التي سوف تحكم تصرفاته خلال الشهور الثلاثة القادمة: سوف يُعرف فقط باسم رمزيّ، ولن يتحدث مع آخر في المدرسة، وسوف يتدرب لمدة ١٢ ساعة في اليوم على فنون التجسس، وسوف يمضي بقية ساعات اليوم محبوسًا في غرفة، وإذا ما تبين أنه خريج ناجح في هذا النظام، فسوف يرسل خلف الخطوط البريطانية للعمل كجاسوس، وأي انتهاكات لهذه القيود سوف ينشأ عنها تنفيذ حكم الإعدام ضده فورًا.

ومثله كمثل معظم الجواسيس الذين تلقوا تدريبات في مدرسة التجسس، فهو شعر بالرعب من هذه المرأة الشقراء التي تصرخ وتزعق على المجندين. ولم يكن يعرف إسمها، غير أنّه كانت هناك إشاعة بأنها اكاديمية وحاملة شهادة الدكتوراه في العلوم الاقتصادية. وكما هي العادة عند الألمان، التي تقضي بوجوب مخاطبة الذكور الحاملين لشهادة الدكتوراه بلقب الهر الدكتور إحترامًا لهم، فإن هذه المرأة معلمة الجواسيس، غير المتزوجة كما يعرف عنها، كانت معروفة عند المتدرّبين بلقب "الدكتوره الحسناء".

كانت دكتورة حسناء بالفعل، حتى أنها أصبحت خالدة الذكر في عالم التجسس. ولم يحدث حتى بعد إنتهاء الحرب أن اكتشف البريطانيون أن اسمها الحقيقي الذي كان إليزابيث شراغموللر، وعلى الرغم من سمعتها كمعلمة صارمة (علاوة على التلميح بخلفية عسكرية محتملة)، فإن تاريخها الحقيقي كان عاديًا إلى حد بعيد.

في العام ١٩١٤، كانت شراغموللر، البالغة من العمر ٢٠ عامًا وقتئذٍ، انتهت لتوها من دراستها العليا في العلوم الاقتصادية في جامعة فريبيرغ (أطروحتها كانت حول نقابات التجار والصناع في القرون الوسطى)، وحينما إندلعت الحرب، قدّمت

خدماتها متطوعة. ومن واقع كونها وطنية ألمانية متحمسة، فإن شراغموللر كانت أقترحت في الواقع على مجنديها العسكريين وجوب تلقيها تدريبات في صفوف قوات المشاة وإرسالها للقتال كجندي عادي في خطوط الجبهة. وكان هذا أمرًا ممكنًا، ولكن بسبب قدرتها على التحدث بأربع لغات بطلاقة، تقرر إرسالها إلى مكتب رقابة المطبوعات التابع للجيش في بروكسيل الخاضعة للاحتلال الألماني، وهو عبارة عن موضع خلفي منعزل حيث تقوم مجموعات من الرجال والنساء بمراقبة الرسائل البريدية.

تمكنت شراغموللر الممتلئة حيوية من تحويل مهمتها المملة إلى عملية استخبارات ناشطة. وكان مما أثار دهشة رؤوسائها أنها أوضحت كيفية استخدام الرسائل البريدية من جانب جواسيس أذكياء حاولوا إرسال قدر هائل من المعلومات الاستخباراتية من خلال رسائل لا ثير شكوكًا من حولها. وقالت شراغموللر إن رجلاً كتب إلى ابن اخته رسالة عن مزرعة العائلة، وهذا الرجل ربما كان جاسوسًا، ذلك أنه ذكر حكايات تفصيلية عن عدد الخنازير والدجاج والأبقار في المزرعة. ومن الواضح أن هذه الحكايات كانت تشير إلى أنواع وأعداد الوحدات العسكرية الألمانية التي شاهدها.

وهناك رسالة أخرى من إمرأة ذكرت فيها عدد القوارب البحرية التي شاهدتها حين قيامها بجولة إلى شاطئ البحر. ومن الواضح أنها كانت في الحقيقة تتحدث عن عدد السفن الحربية الألمانية التي شاهدتها في المنطقة.

وبرهنت شراغموللر، من خلال طريقة خاصة بها في عرض المعلومات الاستخباراتية أذهلت بها الحاضرين، على كيفية نجاحها في تطوير نظام تحليل النصوص المكتوبة وتغيير معانيها من كونها معلومات عن تشكيلات عسكرية ألمانية إلى كونها معلومات إشاعات عائلية عديمة الجدوى.

سرعان ما وصلت كلمة عن هذه الأعمال الفذة إلى المستويات العليا في الاستخبارات العسكرية الألمانية، التي استنتجت أنه من الأفضل إستغلال مواهب شراغموللر في مهمة ذات مسؤوليات أعظم. وكان لدى شراغموللر مهمة في عقلها: أرادت أن تشتغل في مدرسة التدريب على الاستخبارات العسكرية في أنتويرب. وأعربت شراغموللر عن تذمرها من أن المدرسة ليست جيدة في التدريب: ضباط الجيش لديهم حد أدنى من الخبرة في الشؤون الاستخباراتية يقومون بتدريب مجندين بطريقة غير مدروسة جيدًا على أساليب التجسس، ثم يتركونهم وشأنهم، كل وفق طريقته الخاصة به، وفي الأعم الأغلب، لا يسمع أحد عنهم شيئًا.

وفي ظل تأثّرهم بتصميمها وجرأتها، قرر المسؤولون في الاستخبارات العسكرية الألمانية تقديم المهمة لها. وفي غضون شهر، أصبحت البناية الضخمة في ١٠ شارع بيبينه (وهو عنوان تعلم البلجيكيون الخوف منه بسبب إمكانية إلقاء القبض عليهم لو أظهروا إهتمامًا بالمكان) تعج بالنشاط. وأدخلت شراغموللر منهجًا جديدًا للدراسة، تراوح بين أعمال التجسّس عند العدو وبين دروس حول كيفية كتابة رموز الشيفرة. ولم يكن هناك أحد من بين المئات من المجندين الذين تلقوا المنهج الجديد في الدراسة كان يمكن أن ينسى تلك المرأة التي أطلقوا عليها لقب "عيون النمر"، المرأة الشقراء في لباس الجيش الألماني، التي تحمل مسدسًا وسوطًا صغيرًا، ولا تتردد في إستخدامهما ضد الطلاب الأغبياء. وفوق هذا كله، فهم عرفوا أن شراغموللر ليست المرأة التي يمكن أن يمزح معها أحد، ذلك أنها يمكن أن تلقي نظرة حاقدة إلى طالب شارد الذهن، وحينما يتعاظم غضبها على وجه الخصوص، تميل إلى التلويح بمسدسها مهددة.

وسرعان ما عرف المسؤولون في دائرة مكافحة الاستخبارات البريطانية في الجبهة الغربية أن هناك قوة جديدة دخلت عمليات الاستخبارات الألمانية. وبدأ هؤلاء

المسؤولون يظهرون دلائل على أن الجواسيس الألمان تمكنوا من التغلغل إلى بعض القنوات، ومما جعل الأشياء أشد صعوبة هو أنه كانت هناك مجموعة كبيرة من المتدربين الممتازين. وشيئًا فشيئًا، سمع البريطانيون أيضًا عن "الدكتورة الحسناء"، وقاموا بتنفيذ سلسلة عمليات من أجل التغلغل إلى عملياتها والتعرف عليها. ولكن البريطانيين لم ينجحوا أبدًا، ذلك أن شراغموللر كانت خبيرة في تغيير هوياتها، وعاشت في عناوين مختلفة بما فيها شخصية المرأة الخادمة في البيوت.

وفي غضون ذلك، ظلت شراغموللر تحرك بعنف الجواسيس الألمان المدربين جيدًا، ويرجع الفضل في ذلك إلى منهجها في الدراسة الذي جعلها معروفة جيدًا في تاريخ الاستخبارات الحديثة، وفي واقع الأمر فإن كل وكالات التجسس الحديثة إستعانت بأفكارها ونظامها في التدريب. وهي معروفة أيضًا بفكرتها الساخرة الخاصة بها التي أسهمت بها في هذا المجال: "المنبوذ"، وهو عميل تجري التضحية به على نحو مقصود كجزء من جهود لإخفاء عميل آخر، وهو عميل أكثر أهمية منه بالطبع. وكان أحد هؤلاء "المنبوذين" أكثر شهرة من معلمته.

في العام ١٩١٥، تقرر إرسال شراغموللر لتدريب مجندة جديدة علىعمليات التجسس النهائية على أعلى المستويات في المجتمع الفرنسي، وهي إمرأة هولندية ممتلئة الجسم إكتسبت شهرة كراقصة غريبة تدعى ماتا هاري. ولم تخلف ماتا هاري (مارجريتا زيل) تأثيرًا في نفس شراغموللر، وبدت كأنها تواجه صعوبة في فهم حتى أسهل الأفكار. وقالت شراغموللر عنها إنها "صدفة عديمة القيمة"، حتى أنها فقدت الأمل في إمكانية أن تصبح شيئًا ما في المستقبل. (وتبين لاحقًا أنها على صواب، ذلك أن شراغموللر هي التي زرعت تلميذتها الغبية في دائرة مكافحة التجسس الفرنسية).

وفي العام ١٩١٨، في أعقاب تحرير بلجيكا، عادت شراغموللر إلى ألمانيا، وهناك اختفت في غموض مطلق. وفي تلك الأثناء، وفي ظل محاولات العملاء في الاستخبارات البريطانية إفشاء الكثير من أسرار الحرب، أصبحت "الدكتورة الحسناء"، وماتا هاري أيضًا، واحدة من ألمع الجواسيس في التاريخ. ورفضت شراغموللر كافة العروض في ألمانيا لكتابة مذكراتها، مفضلة الحياة الهادئة وتوفير الرعاية إلى أمها العجوز (شراغموللر لم تتزوج أبدًا)، والعمل كمحاضرة في العلوم الاقتصادية في جامعة ميونيخ. وظهرت لفترة قصيرة إلى الأضواء في ١٩٣٢ حينما زعمت إمرأة في مصحة سويسرية للمدمنين على المخدرات أنها "الدكتورة الحسناء" الأسطورة. وكانت هناك جهود مفاجئة ناشطة في الصحافة، حيث احتلت الحكايات عن شراغموللر صدر صفحاتها. وكان بعض الصحف نشر صورة، زاعمًا أنها لـ"الدكتورة الحسناء"، وهي صورة شقراء مثيرة تضع طاقية الجيش على رأسها وتلوح بالسيجار في فمها.

وكانت هناك حكايات تجاوزت حدود المألوف، وفي غاية الأمر اضطرت شراغموللر إلى الخروج عن صمتها، ونفت حكاية إدمانها على المخدرات، وهي واحدة فقط من بين الحكايات الفاضحة التي نشرت في ذلك الوقت. وعادت شراغموللر مرة أخرى إلى حياة الغموض، وماتت في ١٩٣٩. وربما من الممكن أن يتصور المرء ماهية رد الفعل عند شراغموللر، قبل ٢٩ عامًا، لو كانت شاهدت الفيلم المثير للإعجاب "الدكتورة الحسناء"، الذي صور شخصيتها كمدمنة مخدرات سحاقية[1].

---

١ ـ فولكمان إرنست، الجواسيس عملاء سريّون غيّروا مجرى التاريخ (مكتبة مدبولي،١٩٩٩) ص١٩٩ ـ ٢٠٤.

ماتا هاري: عين الفجر

قال قاضي المجلس العسكري، بحركة شبه مسرحية القصد منها إحداث تأثير في حكم المجلس العسكري، وملوحًا بأوراق تضمنت تحويلات مالية كثيرة من بنوك ألمانيّة إلى حسابات سويسرية خاصة بالمتهمة: ـ وكيف يمكن لهذه المتهمة أن تفسر موضوع إستلامها ٣٠،٠٠٠ مارك ألماني من مسؤول في الاستخبارات الألمانية؟

قالت "مارغريتا زيل"، بحركة هز الكتفين تعبيرًا عن الاستهجان واللامبالاة: ـ "كان هذا حبيبي، وكان ذلك ثمن خدمات".

وقال قاضي المجلس العسكري: ـ "هذا المبلغ يبدو أكثر بكثير من قيمة أيّ هدية"... وكان قال كلمة "هدية" بعد فترة انتظار قصيرة.

وردت زيل بحدة: ـ "ليس بالنسبة لي"...

وفي تلك اللحظة صدر حكم ضدها، ولم يكن كبار الضباط في العالم الذين يشكلون المجلس العسكري الفرنسي على إستعداد لتصديق أنفسهم بأن "ماتا هاري"، أو "زيل" حين إستخدام اسم الشهرة، تتقاضى مثل ذلك المبلغ الضخم مقابل ليلة رومانسية مثيرة واحدة. وقام هؤلاء الضباط بالتصويت بالإجماع بأن زيل جاسوسة تتقاضى الأموال من الألمان.

وبعد بضعة شهور، في ١٥ تشرين الأوّل ـ أكتوبر ١٩١٧، تقرر أخذها للوقوف في مرمى البندقية... وبعد رفضها وضع عصابة للعينين، وقفت أمام فرقة الإعدام عند الفجر، وجرى تنفيذ حكم الإعدام رميًا بالرصاص ضدها. وعلى الفور، أصبحت

أسطورة. وخلال فترة إمتدت إلى أكثر من ٧٥ عامًا منذ ذلك الفجر، ظلت ماتا هاري محاطة بأوهام كونها أعظم وأجمل وأشهر جاسوسة في كل العصور. وكانت موضوعًا لكتب ومقالات وأفلام سينمائية أكثر من أيّ جاسوسة أخرى. وهي تبقى الاسم المعترف به تلقائيًا في عقول العامة حينما يتصل الأمر بالجاسوسية.

مع ذلك، فإن الحقيقة المثيرة للسخرية بدرجة كافية هي أن ماتا هاري لم تكن لغزًا مثيرًا، ولم تكن جاسوسة عظيمة، وحين قول الحق، فلم تكن جميلة جدًا، وجرى تكوين أسطورتها لأسباب تتصل بفنون إدارة شؤون الدولة، ذلك أنها حققت أهدافًا سياسية معينة، ولم تتصل كثيرًا بفنون التجسس.

خلال فترة طويلة، تركزت أسطورتها حول جذورها، التي يعرف عنها أنها تعود إلى جزيرة جاوا الأندونيسية، حيث أدى ارتباط بين رجل هولندي مغامر وإمرأة جاوية راقصة إلى ولادة إبنة جميلة. وكفتاة صغيرة، هكذا جاءت الرواية، تعلمت الرقص الحسي، واختارت اسم الشهرة ماتا هاري ("عين الفجر" في اللغة الجاوية) لنقل هذه الرقصات إلى العالم.

وفي حقيقة الأمر، فإن جذورها كانت عادية جدًا. وكانت مارغريتا زيل ولدت في سنة ١٨٧٦ لأسرة هولندية من الطبقة المتوسطة. ودخلت مدرسة للراهبات، وفي الثامنة عشرة تزوجت من قبطان بحري اسكتلندي يدعى ماكلويد. وذهبت معه إلى جزر الهند الشرقية، حيث اتضح أن ماكلويد كان سكيرًا مزعجًا ورجلاً عنيفًا. وفي العام ١٩٠١، حين إنهيار الزواج، عاد الإثنان إلى هولندا، حيث جرى الاتفاق على الطلاق.

بعد ذلك، أصبحت مارغريتا زيل الراقصة ماتا هاري. وفي كل أنحاء أوروبا، قدمت دلائل على أن "الرقص الجاوي السري المثير للشهوة الجنسية" يقوم في الحقيقة

على المحاكاة أكثر من كونه فنًا من فنون جزر الهند الشرقية. ومهما يكن من أمر، فهي أثارت ضجة، وفي وقت كان فيه العري العلني أمرًا نادرًا، فإن زيل قدمت رقصات عرّت فيها نفسها من سبع قطع من الملابس، وكشفت عن جسم عريان، فيما اعتبر عدد من الارستقراطيين والزعماء السياسيين وكبار الضباط العسكريين ذلك أمرًا مغريًا. وخلال فترة زمنية قصيرة، لم تصبح راقصة إستعراضية فحسب، وإنما كانت أيضًا عاهرة مرتفعة الأجر في الأوساط الحاكمة في أوروبا.

وهذه الحرية في الوصول إلى الأوساط الحاكمة جعلتها مجندة طبيعية للاستخبارات، وقام الألمان، الذين لديهم جيوب عميقة، بتجنيدها بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى. وبرهنت على كونها بارعة، ولذلك جرى إرسالها إلى مدرسة التجسس الألمانية الشهيرة في أنتويرب، التي كانت تديرها "الدكتورة الحسناء" إليزبيث شراغموللر، وبعد ذلك تقرر إرسالها إلى فرنسا لإغواء المسؤولين الفرنسيين وجمع المعلومات الاستخبارتية.

ولكن المسؤولين في الاستخبارات الفرنسية كانوا يعرفون من قبل حقيقة ارتباطاتها مع الألمان. وحاول الفرنسيون إبعادها عن البلاد، غير أن زيل فأجاتهم من خلال الاعتراف بأنها على علاقة وثيقة مع بعض المسؤولين الألمان، مع أنها نفت أن تكون تجسست لحساب الألمان. وعرضت بعد ذلك أن تصبح عميلة مزدوجة للفرنسيين. ولم يكن الفرنسيون يثقون بها، ولكن كمحاولة لاختبارها، قاموا بإرسالها إلى بلجيكا مع قائمة بأسماء ستة عملاء ممن ينبغي الاتصال بهم. وفي غضون أسبوعين، قام الألمان بإلقاء القبض على أحد هؤلاء الستة واعدامه تبعًا لذلك.

وفي هذه الفترة، فمع أنها كشفت عن اسم جاسوس نافع فرنسي، فإن الألمان لم يكونوا يثقون بها أيضًا. وأصبحت شراغموللر مقتنعة بأن محاولة زيل الكشف عن

العميل الفرنسي لا تعدو أن تكون عملية كشف عن منبوذ لإخفاء عميل آخر أكثر أهمية، وذلك من أجل مكانتها، وهي جزء من عملية فرنسية أعظم للتغلغل في صفوف الاستخبارات الألمانية. وبناء على ذلك، قام المسؤولون في الاستخبارات الألمانية بإعادتها إلى فرنسا، وأعلنوا عن هذه الخطوة عن طريق رسالة منقولة بالراديو إلى جواسيس نافعين آخرين في فرنسا، وهي رسالة عرف الألمان أن الفرنسيين قاموا بحل رموزها. وحينما عادت زيل إلى فرنسا، جرى إلقاء القبض عليها بتهمة التجسس، ذلك أن الرسالة التي أمكن حل رموزها ألمحت إلى وصول H-21 الوشيك (وهو اسم زيل الرمزي عند الاستخبارات الألمانية)، كما كانت هناك تفاصيل كافية أخرى جعلت أي مسؤول في مكافحة الاستخبارات الفرنسية يستدل على أن الاسم الرمزي كان يشير إلى زيل.

ولم يكن هناك وقت أسوأ من ذلك بالنسبة لها لإلقاء القبض عليها. وكان الفرنسيون، الغارقون في ذلك الوقت في حركة تمرد في الجيش، في حاجة إلى كبش فداء مناسب لتبرير كوارثهم العسكرية في الجبهة. وكانت ماتا هاري كبش الفداء المناسب، ذلك أنها وصفت في ذلك الوقت من جانب الفرنسيين على أنها الجاسوسة الأعظم في كل العصور، المرأة التي تمكنت من الحصول على كل أسرار القيادة العليا الفرنسية من ضباط أغوتهم بجمالها. وفي الرواية الفرنسية، كان يمكن بالفعل رد كل النكسات العسكرية في الجبهة الغربية إلى أفعال تلك المرأة الجاسوسة. وحاول الرأي العام الفرنسي، الذي كان قابلاً للتأثر بفكرة المصيدة الرومانسية باعتبارها سببًا لمعظم الأحداث العالمية، أن يطوي هذه الصفحة. وفي غضون ذلك، وجد الجنرالات الفرنسيون الأغنياء الذين أرسلوا رجالهم إلى المذبحة عذرًا، وظهرت أسطورة ماتا هاري إلى حيز الوجود.

وهكذا، كان الحكم في قضية زيل مسألة مؤكدة، ولكن زيل لم تساعد نفسها حينما قدمت تفسيرها الأحمق للأسباب التي جعلت بعض المسؤولين الألمان يقدمون لها هذه النقود. ثم إنها لم تساعد حينما زعمت أنها خدمت الاستخبارات الفرنسية بكشفها عن أماكن تزود القوارب الألمانية بالوقود في المغرب. وحينما سبق السيف العذل، عرفت أنها أوقعت نفسها في المصيدة، ذلك أن قاضي المجلس العسكري طرح عليها السؤال الطبيعي: حين الأخذ في الاعتبار حقيقة أنها لم تذهب إلى المغرب أبدًا في حياتها، فكيف أمكنها إذن أن تعرف مثل هذه المعلومات الحيوية إذا لم يكن الألمان قاموا بإبلاغها بها؟

ولم يكن لديها رد مقنع، باستثناء الاصرار على ترديد القول خلال المحاكمة: "عاهرة، نعم. ولكن خائنة، لا".

وهذا القول ربما كان أقرب إلى الحقيقة مما عرف أي واحد في فرنسا، غير أن أحدًا لم يكن في حالة مزاجية لاستخدام ذكائه. وكان هذا كافيًا في نظر الجميع للاعتقاد بخرافة الجاسوسية السوبر ماتا هاري.

واستدعى الأمر، أخيرًا، إنقضاء بعض السنوات لتصحيح أخطاء الماضي، ولكن عملية التصحيح، وقتئذ، لم تكن شيئًا ملحًا. ومارغريتا زيل، الفتاة الهولندية التي رقصت عريانة، ووقعت في غلطة الاشتغال في عالم التجسس الخطير، ذهبت بقدميها إلى عالم الفجور، وهي هناك باقية، ذلك أن أحدًا من قبل لم يفعل مثلها لإضفاء صفة الإفتتان على عالم التجسس[١].

---

١ ـ فولكمان إرنست، الجواسيس عملاء سريّون، ص٢٠٥ ـ ٢٠٩.

نادغيدَا فَاسيليفنَا: مغنّيَةُ الأوبّرا غيرِ البَريئَة

بدت كأنّها تشبه لقطة سينمائيّة عن نصّ مكتوب: فتاة جاسوسة جميلة، مشدودة إلى وتد، تقاوم بعناد وضع عصابة للعينين على وجهها، بينما تتحدّى بنظراتها فرقة الإعدام التي توشك على وضع حدّ لحياتها. وضابط شابّ في سلاح الفرسان، بدافع تأثّره بجمالها وشجاعتها، يمتطي فرسًا فجأة، ويأمر فرقة الإعدام بعدم إطلاق النار، ثمّ يقوم بفكّ وثائقها وإطلاق سراحها، ويقول إنّه سوف يتولّى الأمر بنفسه.

أيًّا كانت درجة الصعوبة في إمكانيّة حدوث ذلك، فإنّ تلك بالضبط هي الكيفيّة التي التقى من خلالها هذا الجنرال الشاب "نيكولاي سكوبلين" لأوّل مرّة مع الفتاة "ادغيدَا فَاسيليفنَا" في وقت مبكّر من صباح أحد أيّام فصل الربيع من عام ١٩٢٠ في جنوب روسيا. وفي تلك اللحظة أيضًا، وقع في الحبّ معها، مع ما نشأ عن ذلك من نتائج أوشكت في غاية الأمر على اقتراب الاتّحاد السوفياتيّ من حدّ الدمار وموت أكثر من ٣٠ ألف رجل، حتّى أنّ "سكوبلين" نفسه كان واحدًا من الضحايا.

كان سكوبلين وفَاسيليفنَا كأنّهما شخصيّتان من شخصيّات لأوبَرا "رومانوف" الكبرى، وكان سكوبلين المولود في عائلة أرستقراطيّة، ضابطًا في سلاح الفرسان القيصريّ خلال الحرب العالميّة الأولى، وبعد تولّي البولشفيك السلطة في روسيّا، حارب إلى جانب الجيش الأبيض في الحرب الأهليّة الروسيّة. ومع حلول عام ١٩٢٠، كان يحارب في معركة خاسرة ضدّ الجيش الأحمر في جنوب روسيا، وهو عام لقائه

المصيريّ مع نادغيدا فَاسيليفنَا. وكانت هي أيضًا مولودة في عائلة أرستقراطيّة، وأصبحت مغنّية أوبّرا، وقبل الحرب كانت معروفة بأنّها "العندليب كيرسك". ومن واقع حقيقة تعوّدها على حياة الحفلات الصاخبة، والبيوت الفاخرة، والملابس الجميلة، والمجوهرات، فإنّ عالمها الخاصّ بها كان ممزّقًا بسبب الثورة البلشفيّة، التي لم تكن تملك الوقت لمثل هذه الحياة العابثة... والأسوأ من ذلك، فهي تزوّجت مدرّس باليه فقيرًا يدعى "إدموند بليفتسكي"، ومع حلول نهاية عام ١٩١٨، كانت في حاجة شديدة إلى النقود في وقت لم يعد فيه المعجبون يمطرونها بوابل من النقود والمجوهرات تقديرًا لحفلاتها الموسيقيّة.

ومع هذا، فإنّ الكيفيّة التي جعلت وكالة الاستخبارات البولشفيّة "تشيكا" تتّخذ قرارًا بإمكانيّة استخدام تلك المغنّية الأولى في الأوبّرا، الفتاة الفاسدة والمتعطّشة إلى النقود، كجاسوسة نافعة ضدّ الجيش الأبيض، تبقى أمرًا مجهولاً. وفي أواخر ١٩١٨، وربّما إذعانًا لولعها بالنقود، قامت الوكالة البولشفيّة بتجنيدها للتغلغل في صفوف مؤسّسات الجيش الأبيض المختلفة التي تهدّد النظام الجديد.

وإلى حدّ ما، فإنّ فَاسيليفنَا كانت مناسبة جدًّا لدورها. وبذهابها إلى كلّ أنحاء المناطق الخاضعة للجيش الأبيض، قامت بالترفيه عن الجنود من خلال حفلات موسيقيّة مجّانيّة، وفي الوقت نفسه، فازت بالحظوة عند الزعماء المعادين للبولشفيك الذين أعربوا عن إعجابهم بغناء "العندليب كيرسك". وفي غضون ذلك، بدأت في تجميع معلومات إستخباراتيّة مثيرة عن طريق بعض ضبّاط الجيش الأبيض الطائشين، من بينهم هؤلاء الذين ضاجعتهم رغبة منها في الحصول على مزيد من المعلومات...

مع حلول العام ١٩٢٠، وبانتقال الحرب الأهليّة إلى مرحلة نهائيّة، بدأت الشكوك تجاه إمكانيّة أن تكون هناك علاقة بين زيارات فَاسيليفنَا وسلسلة الهزائم العسكريّة

الكارثيّة تزداد رسوخًا. وفي أوائل ١٩٢٠، وبعد اعتراض سبيل بعض رسائلها إلى وكالة الاستخبارات البولشفيّة، أصبح الجيش الأبيض يملك دليلاً نهائيًا. وتقرّر إلقاء القبض عليها، وصدرت الأوامر بإطلاق النار عليها.

وهنا يتدخّل نيكولاي سكوبلين... ومن واقع كونه متيّمًا بها، فهو كان على استعداد للصفح عن اعترافها المروّع بأنّها كانت تعمل لحساب وكالة الاستخبارات البولشفيّة، وهذا يعني الصفح عن كونها عميلة للبولشفيك المكروهين. وفي ظلّ الظروف العاديّة، فإنّ مثل هذا الاعتراف كان يمكن أن يضع حدًّا لمنفعة فَاسيليفنَا كعميلة، غير أنّ وكالة الاستخبارات البولشفيّة كانت تفكّر في شيء آخر: لماذا لا تقوم بتجنيد نيكولاي سكوبلين كجاسوس نافع؟

بدت هذه الفكرة كأنّها منافية للعقل، ولكن بقدر ما كانت وكالة الاستخبارات البولشفيّة تعرف مدى قابليّة فَاسيليفنَا للتعرّض للأخطار، فهي كانت تعرف أيضًا مدى قابليّة سكوبلين نفسه للتعرّض للأخطار. ولكنّ سكوبلين كانت تنتابه الهواجس تجاه فكرة "روسيا المقدّسة"، أرض الأحلام التي كانت موجودة قبل القياصرة... وبالنّظر إلى أنّه كان مصابًا بجنون العظمة، فإنّ سكوبلين اعتبر نفسه زعيمًا لحركة جديدة ربّما تتمكّن في يوم ما من الاستيلاء مجدّدًا على أرض روسيا وإعادة إيجاد تصوّراته عن بلد من قصّة خياليّة. وحرصت فَاسيليفنَا على إظهار فكرة قابليّة سكوبلين للتعرّض للأخطار، ومع مرور الوقت في أواخر ١٩٢٠، حينما تقهقرت مع البقيّة الباقية من قوّات الجيش الأبيض إلى تركيا والمنفى الدائم، تمكّنت من إقناعه...

وفي رأي سكوبلين، فهو أراد مجرّد استخدام وكالة الاستخبارات البولشفيّة من أجل تحقيق هدفه النهائيّ، ومن خلال التعاون مع وكالة الاستخبارات البولشفيّة، فربّما يتمكّن من القضاء على حركة المنفيّين الروس وتولّي السلطة، وحين تحقيق ذلك

الهدف، فربّما يتمكّن من قيادة حملة عسكريّة مقدّسة كبرى تقوم بالزحف على روسيا والقضاء على وكالة الاستخبارات البولشفيّة وكلّ ما يتّصل بالبولشفيك. وفي الوقت نفسه، كما أشارت فَاسيليفنَا، فإنّها وسكوبلين يمكن أن ينتهي بهما الأمر إلى عقاب سخيّ، وهو بيع الحبل للشانق...

في ذلك الوقت، غادر هذا الثنائيّ العجيب إلى باريس، حيث المقرّ الدوليّ لحركة المنفيّين الروس، التي، بدورها، شكّلت تهديدًا كبيرًا ضدّ النظام الشيوعيّ الضعيف. وفي ظلّ وجود أكثر من ٣٠٠ ألف رجل مسلّح من المنفيّين الملتزمين بالدفاع عن القضيّة القيصريّة والمموّلين جيّدًا عن طريق التبرّعات من أكثر من مليون شخص من الأتباع الموجودين في كلّ أنحاء العالم، فإنّ هذا بحدّ ذاته كان بمثابة مسألة مثيرة لشعور دائم بالقلق عند وكالة الاستخبارات البولشفيّة، التي عهد إليها لينين بمهمّة تحييد التهديد أو جعله في حدّه الأدنى على الأقلّ.

كان سكوبلين الأداة الرئيسيّة لتحقيق هذه المهمّة. وتزوّج فَاسيليفنَا... وكان زوجها "المتفهّم ظاهريًّا لموضوع الزواج"، بمثابة "الرجل الأفضل في حفل الزفاف"... وشرع في التغلغل في صفوف حركة المنفيّين الروس. وفي ظلّ خلفيّته وتجربته العسكريّة، وسجلّه الفعليّ من القتال الحقيقيّ ضد البولشفيك، فلم يكن هناك أحد يتشكّك في أمر سكوبلين. وفي أوائل ثلاثينات القرن العشرين، أصبح زعيمًا رئيسيًّا في منطقة "روفز"، حيث القوّة المقاتلة الرئيسيّة للمنفيّين الروس. ومن خلال تلك الفرصة المؤاتية، كان سكوبلين قادرًا على جعل موسكو عارفة بأسماء الأفراد التابعين لقوّات المقاتلين من المنفيّين الروس الذين يتسلّلون عبر الحدود إلى روسيا لتنظيم الوحدات المقاتلة ضدّ البولشفيك. وأصبح سكوبلين أيضًا عارفًا بعمليّات التزييف المكثّفة التي يقوم بها المنفيّون الروس، هذه العمليّات التي تضمّنت وثائق حقيقيّة من

ملفّات البوليس السرّي القيصريّ "أوخرانا" لإقامة الدليل على أنّ ستالين كان جاسوسًا في البوليس السرّيّ.

مع ذلك، فإنّ النجاح الفعليّ الذي حقّقته عمليّات سكوبلين تسبّبت في لجوء زعماء حركة المنفيّين إلى إجراء تقييمات دوريّة لأنشطة الحركة... وما انتهى إليه هؤلاء الزعماء لم يكن شيئًا مشجّعًا، ذلك أنّ نتائج التقييمات كانت قائمة على نحو متماثل. وجميع المقاتلين من المنفيّين الروس الذين جرى إرسالهم إلى الاتّحاد السوفياتيّ اختفوا عن الوجود، ولم يظهروا إلى العلن مرّة أخرى... وبدا جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB، خليفة وكالة الاستخبارات البولشفيّة "تشيكا"، وكأنّه كان يتوقّع كلّ خطوة تقوم بها حركة المنفيّين. وكان جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB يعرف يقينًا جميع أسماء المنفيّين المجنّدين كجواسيس نافعين في منظّمات الاستخبارات المختلفة، وتمكّن من القضاء عليهم على نحو روتينيّ، وبعد ١٥ عامًا على مغادرتهم روسيا، لم يتمكّن هؤلاء المنفيّون من إلحاق حدّ أدنى من الضرر في الاتّحاد السوفياتيّ.

بدأ زعماء حركة المنفيّين، على نحو حتميّ، في التطلّع نحو الداخل: هل يمكن أن يكون هناك أحد ما يتولّى منصبًا رفيعًا في الحركة يقوم بإفشاء أسرارها إلى موسكو؟

في مواجهة هذه المحاولة القائمة على تسليط الأضواء على حقائق الأمور، كان سكوبلين وزوجته يشعران بارتياح تام... ولم يكن هذان الزوجان يعرفان أسماء جميع الأشخاص المتنفّذين في حركة المنفيّين فحسب، بل كانا أيضًا يقضيان وقتًا طويلاً في محاولة معرفة الخطط المستقبليّة للحركة. ومن الصحيح القول إنّ سكوبلين كان لديه كلّ مبرّر قويّ في سعيه للحصول على مثل هذه المعلومات، ذلك أنّه كان على نحو رسميّ رئيسًا لعمليّات مكافحة التجسّس الخارجيّ في القوّة المقاتلة الرئيسيّة للمنفيّين الروس "روفز"، وهي مهمّة ظلّ يتولّى أمرها منذ ١٩٣٤. ومع هذا، فهناك كانت

غرابة واضحة في حياة الرغد التي كان سكوبلين يعيشها مع زوجته، ذلك أنّـه لـم يكـن يملك مصادر دخل أخرى يمكن أن تعينه على مثـل هذه الحيـاة مـع زوجتـه. وزعمت نادغيدا ذات يوم أنّ لديها دخلاً من الحفلات الموسـيقيّة، غـير أنّ السـوق الضيّقـة أمـام إحدى مغنّيات الأوبرا الروسيّة في فرنسا ما كان يمكن أن توفّر لها الشـيء الكثـير فـي ما يتّصل بالنقود.

في تلك الأثناء، كان سكوبلين موضعًا للتشكّك في أمره، وذلـك رغـم عدم وجـود دليل قويّ ضدّه. ولو كان سكوبلين يشعر بالانزعـاج بسـبب هـذه الشـكوك المتعاظمـة، فهـو لـم يظهرهـا، ذلـك أنّـه فـي سـنة ١٩٣٦ قـام بتنفيـذ أكـبر مهمّـة لحسـاب جهـاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB، وهي مهمّة كان يمكن أن تجعلـه شـخصيّة رئيسـيّة فـي تاريخ التجسّس.

بدأت هذه المهمّة حين قيام سكوبلين بمفاتحة الاستخبارات النازيّة الألمانيّة... التـي عرض عليها خدماته، زاعمًا أنّـه أراد مسـاعدة الاسـتخبارات النازيّـة فـي تمكينهـا مـن فرض سيطرتها على حركة المنفيّين في مجموعها، ثـمّ اسـتخدام سيطرة الاسـتخبارات النازيّة "كرأس حربة في حرب" ضدّ الاتّحاد السوفياتيّ. ولأنّ الاستخبارات النازيّـة لـم تكن تخسر الشيء الكثير من وراء هذا الترتيب، فهي شعرت بالفرحـة تجـاه مثـل هـذه الفرصة، وقامت بتجنيد سكوبلين كجاسوس نافع داخل حركة المنفيّين. وكـان يمكـن أن تكون هناك منفعة ثانويّة: سكوبلين زعم أنّه يملك مصـادر هامّة فـي الاتّحـاد السـوفياتيّ تقدّم إليه مـن حيـن إلـى آخـر معلومـات اسـتخباراتيّة رفيعـة المسـتوى، كمـا أنّـه أبـدى استعدادًا للمشاطرة بها الاستخبارات النازيّة.

في ظلّ مشاركة وكالة الاستخبارات النازيّة، تمكّن سكوبلين مـن التحـرّك للمرحلـة الثانية من العمليّة. وكانت بمثابة قنبلة موقوتة: سـكوبلين زعـم أنّـه يملـك دليـلاً وثائقيًـا

على أنّ القيادة العسكريّة العليا للاتّحاد السوفياتيّ تخطّط لانقلاب عسكريّ ضدّ ستالين. وكان سكوبلين حريصًا على القول إنّه أراد مليوني دولار مقابل هذه الوثائق، وهو تطوّر ذكيّ غير متوقّع، مثلما توقّع جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB، فلو أنّ رجلاً مثل سكوبلين قدّم هذه الوثائق مجّانًا، فإنّ وكالة الاستخبارات النازيّة كان يمكن أن تشكّك في الأمر كلّه... وهذا الثمن المرتفع لا يعني غير أنّ الوثائق إمّا أن تكون صحيحة، أو أنّها نتاج آلة ضرب النقود المعروفة الموجودة لدى حركة المنفيّين الروس التي تقوم بأفضل عمليّات التزييف.

والمشكلة في هذه اللعبة الصغيرة هي أنّ "رينهارد هيدريك"، رئيس وكالة الاستخبارات النازيّة، كان يمكن أن يبدي اهتمامًا ضئيلاً لو كانت الوثائق صحيحة. وبمحض المصادفة الاستثنائيّة الخالصة، فإنّ هيدريك وقتئذ كان يخطّط لعمليّة تزييف خاصّة به، عاقدًا الأمل على زرع وثائق مزيّفة من شأنها أن تورّط كبار الزعماء السوفيات في مؤامرة انقلابيّة. وكان يمكن أن تؤدّي ردود الأفعال الناشئة عند ستالين الذي يميل في الأصل إلى الشعور بجنون الارتياب إلى تمزيق الاتّحاد السوفياتيّ سياسيًّا.

أدّى عقد اجتماع بين سكوبلين وهيدريك إلى جعل المشكلة أكثر تعقيدًا، ذلك أنّ هيدريك عرف بسرعة أن سكوبلين كان يعمل لحساب جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB، وأنّه تلقّى تعليمات من ستالين بإيجاد "دليل" على "مؤامرة" يفتعلها ستالين نفسه... ومن جانبه، فإنّ سكوبلين عرف أنّ أهداف جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB جاءت متزامنة تمامًا مع أهداف وكالة الاستخبارات النازيّة.

هذا كلّه كان من شأنه التمهيد لإجراء مفاوضات هادئة جدًّا، حيث وافق هيدريك أخيرًا على شراء وثائق سكوبلين. وزعم هيدريك على نحو صريح أنّه يملك أيضًا

"وثائق" أشدّ حساسيّة كانت الاستخبارات الألمانيّة حصلت عليها من قبل، وأنّه ينوي تمريرها إلى ستالين عن طريق أحد الوسطاء القليلين الذين يثق بهم ستالين: "إدوارد بينز"، رئيس جمهوريّة تشيكوسلوفاكيا.

كانت النتيجة بمثابة إحدى حمّامات الدمّ الفعليّة في التاريخ. وبزعمه أنّ هناك محاولة انقلاب عسكريّة جارية، قام ستالين بتطهير قوّاته المسلّحة، معدمًا بذلك ٣٥ ألف ضابط. ومع انتهاء عمليّة التطهير، قتل حوالى ٩٠ بالمئة من جنرالات الاتّحاد السوفياتيّ، و٨٠ بالمئة من الكولونيلات، وأكثر من نصف عدد جميع الضبّاط العسكريّين الآخرين. ولم يُكتب للقوّة العسكريّة السوفياتيّة الشفاء من هذه المذبحة حتّى بعد سنوات حينما قام الألمان بغزوهم، ذلك أنّ قوّة عسكريّة بلا قيادة فعليّة محترفة عانت من خسائر فادحة في الأرواح بلغت ٧ ملايين رجل في غضون ٢٤ شهرًا.

مهما بلغت مشاعر الفرحة عندها تجاه هذه النتيجة، فإنّ حركة المنفيّين الروس لم تكن تعرف شيئًا عن دور سكوبلين فيها. وكان المنفيّون الروس في ذلك الوقت يتشكّكون به وبزوجته. ومع هذا، فربّما كان من الممكن أن يبقى سكوبلين جاسوسًا هامًّا يعمل في الظلام لصالح جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB، داخل الحركة لو أنّ موسكو لم تفشل في تحقيق غايتها لشدّة التلهّف عليها، الأمر الذي أدّى إلى الكشف عن حقيقة سكوبلين تبعًا لذلك.

ولأسباب لم يكشف النقاب عنها مطلقًا، اتّخذت موسكو قرارًا بأنّ الجنرال "أنطون ميللر"، رئيس الجناح العسكريّ لحركة المنفيّين الروس، رجل خطير ينبغي التخلّص منه. وتضمّن القرار القيام باختطافه من مقرّه في باريس، ثمّ إحضاره إلى الاتّحاد السوفياتيّ للتخلّص النهائيّ منه. ومع أنّ مثل هذا الحلّ الراديكالي لمشكلة اختطاف ميللر بدا دالاً على حماقة بالغة، فإنّ سكوبلين تلقّى أمرًا بتدبير عمليّة الاختطاف. وفي

أيلول ــ سبتمبر ١٩٣٧، قام سكوبلين بتوجيه دعوة إلى نيللر لتناول طعام الغداء ومناقشة المزيد من القضايا الاستراتيجيّة، ولسوء حظّ سكوبلين، فإنّ ميللر كان واحدًا من الزعماء المنفيّين الذين تعاظمت الشكوك عندهم تجاهه. ووافق ميللر على الاجتماع، غير أنّه ترك بحذر ملاحظة على مكتبه تضمّنت موعد الاجتماع...

هذه الملاحظة، كلّفت سكوبلين حياته.

وصل ميللر إلى مكان الاجتماع، ولكنّه فوجئ على الفور بمهاجمة مجموعة حمقاء من عملاء جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB. وبدأ الجنرال المجرّب في مشاجرة معهم، حتّى أنّ المشاجرة أثارت انتباه الشهود العيان. وتمكّن عملاء جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB أخيرًا من وضع ميللر في سيّارة والانطلاق بها بسرعة، غير أنّ صوت سفّارات الانذار اشتدّ ارتفاعًا... ولم يستطع رجال البوليس العثور على ميللر، الذي جرى اختطافه إلى الاتّحاد السوفياتيّ واختفى، ولكنّهم وجدوا الملاحظة التي تركها على مكتبه. ثمّ ذهبوا للبحث عن سكوبلين، الذي لجأ إلى الاختباء. وجرى إلقاء القبض على نادغيدا سكوبلين، ومن خلال محاكمة علنيّة مثيرة للعواطف، جرى اتّهامها بالتورّط مع زوجها في عمليّة اختطاف ميللر، وحكم عليها بالسجن لمدّة ٢٠ عامًا، وماتت في السجن سنة ١٩٤٠.

وفيما يتعلّق بزوجها، فإنّ جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB عرض عليه، على سبيل المساعدة، تسهيل هروبه إلى الاتّحاد السوفياتيّ من أجل ما افترض أنّها حياة مريحة تقوم على دعم ماليّ من حكومة سوفياتيّة شاكرة... وكانت السذاجة نفسها التي أدّت إلى تمكين الاستخبارات السوفياتيّة من إغوائه قبل ١٩ عامًا هي التي أدّت أيضًا إلى قيامه بمرافقة فرقة الانقاذ في جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB في طريقها إلى الاتّحاد السوفياتيّ، غير عارف، على ما يبدو، حقيقة واضحة: ستالين لم تكن أمامه أيّ

وسيلة أخرى لجعل رجل مثل سكوبلين على قيد الحياة، والسبب في ذلك، ببساطة، هو أنّه يعرف الشيء الكثير...

كانت المرّة الأخيرة التي شوهد فيها سكوبلين حيًّا في مدينة برشلونة، في إسبانيا، حيث كان على ظهر السفينة السوفياتيّة "كوبان". وبعد تقديم شيء للشرب إليه، تناول رشفة، وسقط ميتًا من السمّ المذاب في تلك الكأس... وبعد الوصول إلى الاتّحاد السوفياتيّ، جرى إعطاء جثّته إلى أحد مختبرات كليّة الطب[1]...

١ ـ فولكمن إرنست، الجواسيس: عملاء سرّيون غيّروا مجرى التاريخ، ص٦٥ ـ ٧٣.

آمي ثُورب بَاك: الجَاسُوسَة السَّاحرَة

لم يستمتع الكثيرون من الذين عاشوا بالقرب من السفارة البريطانيّة في "سنتياغو" شيلي بفصل الربيع المعتدل في ١٩٣٩، والسبب في ذلك هو "آمي ثُورب بَاك"، زوجة أحد كبار الدبلوماسيّين البريطانيّين في السفارة. ولأسباب لم يستطع أحد أن يفهمها، أصرّت آمي ثورب على التدرّب، لمدّة ساعة يوميًّا، تحت إشراف الملحق البحري البريطاني، بعد أن حدّد لها مكان التصويب على الهدف داخل السفارة.

وأخيرًا، اضطرّت آمي ثورب إلى التوقّف عن التدرّب بسبب الشكاوى المتزايدة من جيران السفارة.

وبعد تردّد، تركت آمي ثورب مسدّسها الجديد، وحاولت التكيّف مع عالم البروتوكولات الدبلوماسيّة والمضايقات في السفارة. ولم تبذل آمي ثورب جهدًا كبيرًا لإخفاء شعورها بعدم الارتياح، وهو شعور يجد معظم أعضاء السفارة البريطانيّة تبريرًا له في أسلوب تنشئة هذه الفتاة الأميركيّة المتحرّرة التي ظهرت للمرّة الأولى إلى الحياة الاجتماعيّة المثيرة.

أمّا الأمر الذي لم يكن أحد يعرفه هو أنّ آمي ثُورب كانت جاسوسة نافعة تعمل لحساب جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-6 قبل عامين، وكانت منهمكة من قبل في عدد من المغامرات التجسّسيّة الحقيقيّة. وبعد تلك التجربة في عام ١٩٣٩، أصبحت حياتها مملّة في نظرها.

كانت آمي ثُورب، البالغة من العمر ٢٩ عامًا، إمرأة جميلة على نحو مذهل، وهي صفة مميّزة لها، جعلتها جاسوسة حقيقيّة. ولو شئت في قول أقرب إلى حقيقتها، فإنّ آمي ثُورب أسرت قلوب الرجال بجمالها، وتميّزت بذكاء حادّ جعلها على قاب قوسين أو أدنى من الرجال الذين حاولوا ملاحقتها. وعاشت آمي ثُورب، إبنة الضابط في البحريّة الأميركيّة الذي عمل محاميًا في واشنطن في وقت لاحق، حياة الجاه والنفوذ. وما أثار دهشة أصدقائها في العام ١٩٣٠، بعد عام واحد من ظهورها للمرّة الأولى إلى الحياة الاجتماعيّة الأميركيّة، هو أنّها تجاهلت إهتمام عدد من الرجال البارزين بها، وتزوّجت رجلاً دبلوماسيًّا بريطانيًّا مغمورًا يدعى "آرثر باك".

اكتشفت آمي ثورب أنّ زواجها من آرثر باك يفتقر إلى العاطفة، وبدأت تبحث عن الرجال، وذلك كوسيلة لإذكاء نار طاقتها المفعمة بالحيويّة والإثارة. ولأنّها كانت إمرأة رائعة الجمال، بمختلف المقاييس، فهي رغبت بشدّة في أن تفعل شيئًا نافعًا في حياتها، غير أنّ كلّ الأشياء التي حاولت أن تفعلها فشلت في إشباع رغبتها. وأخيرًا، في العام ١٩٣٦، اكتشفت آمي ثُورب مجال اهتمام ينطوي على التحدّي الذي تتطلع إليّه: التجسّس.

أثناء مرافقة زوجها في مهمّة له في إسبانيا، اقترب منها ذات ليلة خمسة من الجنود الوطنيّين اليائسين الذين وقعوا في مصيدة خلف حواجز الجنود الموالين للحكومة، وسألها أحدهم: "هل يمكنك تقديم المساعدة إلينا في عبور هذه الحواجز؟". فوافقت. ومن خلال فتنتها وجمالها، تمكّنت من تخبئة الجنود الخمسة في شاحنة ومن عبور مراكز التفتيش التابعة للجنود الموالين للحكومة. وكانت تلك الحادثة بسيطة، ولكن آمي ثورب اكتشفت من خلالها مدى تأثير أنوثتها في ظروف تتميّز بالأخطار والمفاجآت. وأخيرًا وجدت آمي ثُورب ضالّتها.

في العام التالي، وتحديدًا سنة ١٩٣٧، انتقل زوجها إلى سفارة بريطانيا في وارسو ببولندا، وهناك فاتحت آمي ثُورب رئيس محطّة الاستخبارات البريطانيّة، وأعلنت عن استعدادها للقيام بعمليّات إستخباريّة. وكان تأثير أنوثتها هو الذي جعل رئيس المحطّة يستبعد أيّ خيار آخر غير قبولها، كما أنّ أيّ تحفّظات كان يمكن أن يبديها تجاه ضمّ هذه المرأة الأميركيّة جرى استبعادها في الحال. وفي غضون بضعة أسابيع، برهنت آمي ثُورب بَاك على موهبة طبيعيّة في مجال لن تتلقَ فيه أيّ تدريبات. وقامت آمي ثُورب بَاك بإغواء مسؤول في وزارة الخارجيّة البولنديّة، وقام بدوره بتزويدها بمعلومات استخباراتيّة من الدرجة الأولى حول خطط بولندا في التعامل مع هتلر وستالين. وتابعت آمي ثُورب بَاك الأمر بانقلاب مذهل في عالم المعلومات الاستخباراتيّة: فمن خلال مسؤول حكوميّ آخر، عرفت آمي ثُورب بَاك أنّ هناك مجموعة من علماء الرياضيّات البولنديّين الذين أمكنهم حلّ الرموز الغامضة في الشيفرة الألمانيّة. هذه المعلومات الاستخباراتيّة تحقّقت الفائدة منها بالنسبة للاستخبارات البريطانيّة في وقت لاحق، بعد قيام الألمان باجتياح بولندا ومحاولة البولنديّين إعطاء أسرار الشيفرة الألمانيّة إلى عملاء الاستخبارات البريطانيّة. وكانت هذه المعلومات الاستخباراتيّة بمثابة الخطوة الأولى على طريق نجاح البريطانيين في حلّ رموز الشيفرة الألمانيّة.

بعد عام، في أعقاب انتقال زوجها في مهمّة إلى براغ في تشيكوسلوفاكيا، سعت آمي ثُورب بَاك إلى الحصول على معلومات عن الخطط الألمانيّة لغزو تشيكوسلوفاكيا. وكانت تلك آخر عمليّة تجسّس قامت بها آمي ثُورب بَاك في غضون عامين، وذلك بسبب عودة زوجها مرّة أخرى إلى سنتياغو. وعادت مع زوجها، وهناك أوشكت على الموت من الزهق. وربّما يفسّر ذلك بالقول أنّ زواج آمي ثورب مات في سانتياغو.

وفي سنة ١٩٤١، بعد انفصالها عن زوجها آرثر باك، ذهبت آمي ثُورب إلى نيو يورك للبدء في حياة جديدة. وما أن وضعت أقدامها في الأرض الأميركيّة حتّى أجرى "ويليم ستيفنسون"، رئيس محطّة الاستخبارات البريطانيّة، إتّصالاً هاتفيًّا معها، ذلك أنّه سمع من قبل الشيء الكثير عن هذه المرأة الأميركيّة الجميلة التي تملك أعصابًا فولاذيّة. وعقد ستيفنسون الأمل على أن تعمل آمي ثُورب معه لصالح الاستخبارات البريطانيّة.

في واقع الأمر، فإنّ ويليم ستيفنسون لم يشأ أن تعمل آمي ثُورب معه في نيو يورك، ذلك أنّه شعر بأنّ قدرتها المذهلة في التغلغل إلى السفارات الأجنبيّة يمكن الاستفادة منها بصورة أفضل في السلك الدبلوماسيّ في واشنطن، حيث مجالات الأهداف متعدّدة. وتلقّت آمي ثُورب مجموعة عامّة من الإرشادات في أصول التغلغل إلى السفارات التي تحظى باهتمام الاستخبارات البريطانيّة، وعلى الأخصّ السفارات الألمانيّة والإيطاليّة والفرنسيّة التابعة لحكومة فيشي. وعرف ستيفنسون أنّ قدرات آمي ثُورب الشخصيّة المذهلة لا تستدعي إثقالها بمجموعة من الإرشادات الكاملة. وفي ظلّ مواهبها الخاصّة بها، كان ينبغي فقط التلميح إليها حول الاتّجاه الصحيح، ثمّ تتولّى هي الأمر كلّه...

بعد مدّة قصيرة من وصولها إلى واشنطن، تحقّق ستيفنسون، الذي يملك موهبة فائقة في الحكم على قدرة الأشخاص، من صحّة ثقته بقدرات آمي ثُورب. وبعدما وضعت آمي ثُورب السفارة الإيطاليّة في واشنطن أمام عينيها. وفي غضون مدّة زمنيّة محدودة، تمكّنت من إغواء رئيس محطّة الاستخبارات الإيطاليّة في السفارة. وحينما سألها عن الأشياء التي تأمل أن تحقّقها في حياتها، قالت له بجرأة متناهية: "إنّها رموز الشيفرة البحريّة الإيطاليّة". ولأنّه كان مولعًا بها على نحو لا يصدّقه عقل، وافق

على تزويدها باسم كاتب رموز الشيفرة في السفارة، وقال لها إنّ هذا الكاتب في أشدّ الحاجة إلى النقود، وربّما يبدي استعدادًا لبيع رموز الشيفرة. ووافقت آمي ثُورب على عقد الصفقة، وحصل البريطانيّون على رموز الشيفرة الإيطاليّة.

في الوقت الذي كانت فيه البحريّة الإيطاليّة متفوّقة على نحو كبير على البحريّة الملكيّة البريطانيّة من حيث العدد في البحر الأبيض المتوسّط، كان البريطانيّون مسلّحين برموز الشيفرة الإيطاليّة، وتمكّنوا من قراءة الرسائل الإيطاليّة، الأمر الذي مكّنهم من معرفة كلّ تحرّكات قطع موسوليني البحريّة. والأهمّ من هذا كلّه، ففي آذار - مارس ١٩٤١، وبسبب قراءة الشيفرات الإيطاليّة، تمكّن البريطانيّون من تدمير جزء كبير من الأسطول البحري الإيطاليّ في معركة "كيب ماتابان"، وانتهى بذلك إلى الأبد التهديد البحري الإيطاليّ لخطوط الإمدادات البريطانيّة في البحر الأبيض المتوسّط.

هذا الإنجاز العظيم وحده كان يمكن أن يضع آمي ثُورب في سجلّ عمالقة التجسّس في العلم، ولكن يبدو أنّها كانت تفكّر في تغلغل مذهل آخر إلى إحدى السفارات، وهي عمليّة أصبحت واحدة من أعظم حكايات التجسّس في الحرب العالميّة الثانية.

جاءت هذه العمليّة في وقت مبكّر من عام ١٩٤٢، ذلك أنّ آمي ثُورب، بعد حصولها على موافقة ستيفنسون للعمل لصالح مكتب الخدمات الاستراتيجيّة الأميركيّة، وبخاصّة بعد هجوم اليابانيّين المفاجئ على "بيرل هاربر"، تلقّت تعليمات بالتغلغل إلى سفارة "فيشي" الفرنسيّة. وكان مكتب الخدمات الاستراتيجيّة منهمكًا على وجه الخصوص في كيفيّة الحصول على رموز شيفرات فيشي، قبل البدء في غزو أراضي فيشي في شمال أفريقيا، ذلك أنّ معرفة رموز مثل هذه الشيفرات، كانت على جانب كبير من الأهميّة. وكما هي عادتها دائمًا، فإنّ طريقة آمي ثُورب في العمل كانت

مباشرة: بعد اتّخاذها صفة الصحافيّة التي تدافع عن قضايا فيشي، بدأت آمي ثُورب تدريجًا في كسب ثقة وقلب "تشارليز بروس"، الملحق الصحافيّ في السفارة والشخصيّة السياسيّة الهامّة. وفي غضون شهر، تمكّنت آمي ثُورب من اختياره جاسوسًا نافعًا يعمل لحساب مكتب الخدمات الاستراتيجيّة، وبعدئذ بدأت المعلومات الاستخباراتيّة في التدفّق من السفارة.

كانت الخطوة التالية هي الأشدّ صعوبة: الإطّلاع على رموز الشيفرات، ولكن دون علم من السفارة بذلك. وكان "كتاب رموز الشيفرات" موجودًا داخل خزانة حديديّة كبيرة، ولذلك جرى إعداد خطّة متكاملة بحيث تقوم آمي ثُورب بدور رئيسيّ فيها. وتضمّنت الخطّة قيام آمي ثُورب وتشارلز بروس بدخول مبنى السفارة ذات ليلة في موعد لقاء محدّد بينهما. وبعد دخولهما، يقوم أحدهما بفتح أحد الشبابيك، ثمّ يدخل أحد خبراء فتح الخزائن الحديديّة لمكاتب الخدمات الاستراتيجيّة الأميركيّة، ويفتح الخزانة، ويأخذ كتاب رموز الشيفرة. وكان من المقرّر أن يكون هناك فريق عمل من مكتب الخدمات الاستراتيجيّة خارج مبنى السفارة من أجل أخذ الكتاب، ونقله إلى شقّة مجهّزة، مثل ستوديو تصوير، تمهيدًا لتصوير كلّ كتاب رموز الشيفرة، ثمّ إعادته إلى مكانه. وكان ينبغي الانتهاء من العمليّة قبل طلوع الفجر، وهو موعد مجيء رجال الأمن في السفارة للبدء في عمليّة التفتيش المبكّرة.

وفي مساء أحد أيّام شهر حزيران ــ يونيو ١٩٤٢، دخلت آمي ثُورب وتشارلز بروس إلى مبنى السفارة، وغمز بروس بعينه إلى الحارس، وألمح إلى أنّه يجب أن يكون في السفارة مع هذه المرأة الحسناء لبعض الوقت لمناقشة "قضايا السياسات الدوليّة"... ومن خلال غمزة جوابيّة، أعرب الحارس عن تمنّياته لهما بقضاء ليلة سعيدة... وبعد برهة قصيرة، وبينما كان خبير فتح الخزائن الحديديّة على وشك

الدخول من الشبّاك، وقعت كارثة مفاجئة: الحارس المتشكّك أراد الاطمئنان على العاشقين... وحينما اقترب من باب الغرفة، وقبل أن يلمح الشبّاك مفتوحًا، وخبير فتح الخزائن الحديديّة واقفًا على الدرجة العليا من السلّم، سارعت آمي ثُورب إلى تولّي الأمر بنفسها... ولمّا اقترب الحارس من باب الغرفة، خلعت آمي ثُورب ملابسها، ورآها الحارس عارية، وهمس بكلمات فرنسيّة معتذرًا، ولكنّه ما لبث أن شعر بالبهجة، وليس من الصعب أن يتصوّر أحد ما حدث بين الجنسين.

بعد خروج الحارس من الغرفة، بدأت فصول العمليّة، واستغرقت ستّ ساعات، وبعد إعادة كتاب رموز الشيفرة إلى مكانه في الخزانة الحديديّة قبل طلوع الفجر، لم يكن هناك أيّ أثر بأنّ أحدًا لمس الخزانة الحديديّة. وحتّى تتأكّد آمي ثُورب من ذلك، قامت بمسح كلّ بوصة من الخزانة الحديديّة قبل خروجها من الغرفة. وفي طريقها إلى الباب الخارجيّ بصحبة تشارلز بروس، نظرت آمي ثُورب إلى الحارس بعيون الخجل، وردّ عليها بابتسامة.

ربّما من الصعب المبالغة في أهميّة عمليّة سفارة فيشي... ولكن صور كتاب رموز الشيفرة الغامضة طارت إلى لندن في غضون ٢٤ ساعة، وفي أقلّ من بضعة أيّام، تمكّن خبراء تحليل رموز الشيفرة الغامضة من مقرّ قيادة الاتّصالات الحكوميّة في بريطانيا من قراءة كلّ الرسائل الخارجة من قواعد فيشي العسكريّة في شمال أفريقيا. وحينما قام الحلفاء بغزوها بعد شهور قليلة، كان من السهل تحييد أيّ مقاومة عسكريّة.

قال ستيفنسون في وقت لاحق إنّ جهود آمي ثُورب أدّت إلى إنقاذ حياة حوالى ١٠٠ ألف رجل من الحلفاء. وهو غير واثق من الرقم الصحيح، ولكنّه على يقين من أنّ جهودها غير العاديّة ساعدت الحلفاء في حربهم ضدّ قوّات المحور. وكانت

إنجازاتها الرائعة في عمليّة سفارة فيشي بمثابة آخر مهمّة لها في عالم التجسّس. وما يثير الشعور بالدهشة هو أنّ آمي ثُورب وقعت في حبّ حقيقيّ من تشارلز بروس، الرجل الذي أغوته بالتجسّس. وبعد طلاقها الرسميّ من آرثر باك، تزوّجت هذا الفرنسيّ... وفي سنة ١٩٤٤، ذهب الاثنان إلى فرنسا للإقامة في أحد القصور الفخمة.

في سنواتها الأخيرة، لم تكن الجاسوسة المعروفة باسم "سينثيا" تناقش مهمّتها التجسّسيّة. ومن واقع استقرارها في ظلّ حياة الرغد مع الرجل الذي أحبّته في حياتها، فضّلت تكريس اهتمامها في تفاصيل إدارة شؤون القصر الفرنسيّ. ومن حين إلى آخر، كان الأصدقاء القدامى في جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-6، ومكتب الخدمات الاستراتيجيّة الأميركيّة OSS، يأتون إليها لزيارتها، وفي بعض الأحيان يدعونها إلى كتابة مذكّراتها. وبدأت في نهاية الأمر في الكتابة، ومع أنّها انتهت منها قبل موتها بالسرطان في عام ١٩٦٣، فهي لم تنشرها أبدًا، ذلك أنّها لم تكن تتصوّر أنّ أحدًا يمكن أن يبدي اهتمامًا في تلك الأشياء التي أصرّت على وصفها بـ"المغامرات المتواضعة المعدودة" في حياتها[1].

١ ـ فولكمن إرنست، الجواسيس: عملاء سرّيون غيّروا مجرى التاريخ، ص١٦٠ ـ ١٦٦.

فليغلي ديكينسُون وروث كوهين ومأسَاة بيرل هَاربر

في السابع من كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٤١، الساعة الواحدة والدقيقة الثامنة والعشرون، التقطت محطّة التنصّت الأميركيّة في "برندرج أيلند" رسالة موجّهة من قبل وزارة الخارجيّة اليابانيّة إلى سفيرها في واشنطن.

كانت الرسالة مقتضبة، ولم يستغرق بثّها أكثر من دقائق. لذلك استطاعت الطابعة في قسم فكّ الرموز أن تترجمها في وقت قصير... وسرعان ما تبيّن محتواها...

كانت الرسالة تتضمّن التالي:

> يُرجى من السفير أن يودع جوابنا حكومة الولايات المتّحدة (وزير خارجيتها إذا أمكن) بتاريخ السابع من الشهر الساعة الثالثة عشر بالتوقيت المحلّي، الجواب" إنّ الحكومة اليابانيّة تأسف أن تُعلم حكومة الولايات المتّحدة أنّها، بالنظر إلى موقف الأميركيّين، لا يسعها إلاّ أن تلاحظ استحالة الوصول إلى اتّفاق من خلال مفاوضات جديدة.

الموظّف الأميركيّ الذي التقط الرسالة وترجمها، وضع ملفّ الرسالة في البريد العاجل الموجّه إلى كلّ من الرئيس الأميركيّ ووزير الخارجيّة ووزيري الحرب والبحريّة وعدد من كبار العسكريّين.

كان المقدّم "كرامر" من الاستخبارات الأميركيّة، مكلّفًا بإيصال الرسالة إلى مراجعها. وبسبب فارق التوقيت البالغ ستّ ساعات بين موقع التقاط الرسالة ومكان

إيداعها، وصلت الرسالة إلى السلطات في واشنطن قبل ساعة فقط من إقلاع الطائرة اليابانيّة من على حاملة الطائرات الخاصّة بها... وقد دعت أهميّة محتوى الرسالة كرامر إلى الهرولة في شوارع واشنطن المقفرة في الصباح الباكر والمؤدّية إلى البيت الأبيض.

كانت الصورة التوسعيّة لليابان تتوضّح يومًا بعد يوم. وكان من الواضح أنّ هذا المخطّط لا بدّ وأن يصطدم بالمصالح الأميركيّة...

لقد وضع اليابانيّون الخطوط الكبرى لهجومهم على "بيرل هاربر". وواضع الخطّة هو الأميرال "إيزوروكو ياماموتو"، القائد الأعلى للبحريّة.

عام ١٩٤١، أعطى الأمر الأوّل لدراسة العمليّة، مؤكّدًا على أنّ الانتصار على الولايات المتّحدة لا يمكن أن يتمّ إلاّ بتحطيم أسطولها في مياه جزر هاواي... وفي أيّار - مايو، تبيّن من الدراسات أنّ هجومًا جويًّا مباغتًا على الأسطول الأميركيّ هناك، ممكن جدًّا.

تلازم ازدياد نشاط أجهزة الاستخبارات الأميركيّة مع التوتّر المتزايد في المنطقة... وفي حزيران – يونيو ١٩٤١، تسلّم النقيب "جوزيف روكفورت" قيادة وحدة الراديو في القطاع البحري رقم ١٤ في هاواي، وكان روكفورت الملمّ الوحيد، من بين ضبّاط البحريّة، بفكّ الشيفرة واستخدام الراديو وباللغة اليابانيّة...

في تشرين الأوّل - أكتوبر ١٩٤١، استقالت حكومة الأمير "كونوي" اليابانيّة، وتولّى العسكريّون السلطة بقيادة "توغو"، فتلاشى كلّ أمل بالسلام. وفي الرابع والعشرين من تشرين الثاني - نوفمبر، أبلغ رئيس الوزراء الجديد ممثّليه في واشنطن

"إقتراحاته التهديديّة"... وفي اليوم التالي تلقّى هؤلاء الممثّلون رسالة أخرى تأمرهم باتّخاذ كلّ الإجراءات للحصول على توقيع الاتّفاق مع السلطات الأميركيّة قبل الخامس والعشرين من ذلك الشهر كحدّ أقصى...

وفي اليوم نفسه، أعطى الأميرال ياماموتو الأمر اليوميّ السرّيّ رقم ١: "خطّة الهجوم على بيرل هاربر".

وفي السابع من الشهر المذكور، عُيّن الأميرال المساعد "كويشي ناغومو" قائدًا للأسطول الأوّل... وقد سارع ناغومو إلى توزيع سفنه الإثنتين والثلاثين على المراكز الحسّاسة طبقًا للخطّة المرسومة.

وفي العشرين من تشرين الثاني ـ نوفمير، أودع السفير اليابانيّ "تومورل" ومساعده "سابورو" وزير الخارجيّة الأميركيّة تلك الرسالة التي أشبه ما تكون بالإنذار...

كانت طوكيو تطلب من واشنطن تغيير سياستها الخارجيّة وقبولها بغزوات يابانيّة جديدة، وتزويدها بالبترول اللازم، ومغادرة الصين، أي بكلمة واحدة: القبول بمنطق القوّة...

وفي الخامس والعشرين من تشرين الثاني - نوفمير، أعطى ياماموتو الأمر إلى الأسطول بالتحرّك في اليوم التالي.

وفي السادس والعشرين من تشرين الثاني ـ نوفمير ١٩٤١، الساعة السادسة، رفعت السفن الإثنتان والثلاثون... بالإضافة إلى ستّ حاملات طائرات ومدمّرتين، مراسيها، وغادرت مياه خليج "تونكين" الهائجة، لتتوقّف شرقًا...

لقد تلقّت الأوامر بالعودة فورًا من حيث أتت إن هي شوهدت.

كان القائد "كازويوشي" على ظهر المدمّرة "هابي"... ولم يستطع أحد مشاهدة الأسطول اليابانيّ وهو يتوغّل شرقًا في الضباب...

في هذا الوقت، كان التوتّر يتزايد.

في ٢٩ تشرين الثاني - نوفمير، نقل البارون "أوشيما"، سفير اليابان في برلين، عن وزير خارجيّة ألمانيا قوله "إنّ بلاده ستدخل حربًا ضدّ الولايات المتّحدة إذا اشتبكت اليابان معها". وفي اليوم التالي صرّحت طوكيو بأنّ "الحرب بين اليابان وأميركا أقرب ممّا يتصوّره البعض". وفي رسالة من الخارجيّة اليابانيّة إلى سفارتها في واشنطن، تبيّن أنّ الأوامر أعطيت للسفارة بإتلاف شيفرتها مع الآلات الخاصّة بها إتلافًا تامًّا وفوريًّا... وقد قال "سمر ويلز" وزير الخرجيّة الأميركيّة، عندما علم بمضمون هذه الرسالة: "هبطت نسبة إمكانيّة تجنّب الحرب من واحد بالألف إلى واحد بالمليون"... وقال "بيردال"، مساعد الرئيس روزفلت للشؤون الميدانيّة عندما قرأ الرسالة: "سيّدي الرئيس، الأمر واضح للغاية". وعندما سأله الرئيس عن تقديره لتاريخ بدء المعركة، أجابه بأنّ ذلك ممكن في أيّ لحظة.

كانت الساعة الثالثة عشرة في طوكيو، يوم السادس من كانون الأوّل ـ ديسمبر عندما أودعت رسالة اليابان الجوابيّة بشأن وقف المباحثات بين البلدين، مركز الإرسال التابع لوزارة الخارجيّة، تمهيدًا لإرسالها إلى السفارة اليابانيّة في واشنطن. وفور ورودها إلى المركز، قسّمت أربعة عشر جزءًا متساويًا وبُدئ بتشفيرها. وقد أُرفق بالرسالة أمرٌ مشدّد إلى السفارة يقضي بإيداع الرسالة الخارجيّة الأميركيّة فور تلقّيها. ولم تحن الساعة الرابعة عشرة بالتوقيت المحلّي حتّى كانت الرسالة بترجمتها الكاملة قد وصلت إلى الكولونيل "براتون"، ومنه إلى جميع المراجع المختصّة في الجيش الأميركيّ.

مقابل ذلك، أرسل روزفلت إلى الميكادو رسالة كانت مهيّأة سابقًا في محاولة أخيرة في حال فشل المفاوضات، يدعوه فيها إلى إعطاء بعض الوقت للمفاوضات. ولكنّ كلّ شيء كان قد انتهى. وعلى متن سفن الأسطول اليابانيّ الراسي في عرض المحيط، قرأ الضابط أمام الجنود نداء ياماموتو المؤثّر التالي:

دقّت الساعة. الأمبراطوريّة في خطر. فلا يدّخرنّ أحد منكم جهدًا لإنقاذها.

ثمّ بدأت تتردّد أصداء موسيقى الـ"بانزاي" على سطح المياه الهائجة، ورُفع العلم الذي سبق للأسطول اليابانيّ أن رفعه أثناء انتصاره الكبير على الروس في معركة "تسوشيما" سنة ١٩٠٥.

في السادس من كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٤١، الساعة الثامنة عشرة، وصلت رسالة التُقطت فور خروجها من قنصليّة اليابان في "هونولولو"، إلى مكتب الاستخبارات الأميركيّة في الجزيرة، وكان موقّع الرسالة "يوشيكاوا". أمّا محتواها فتفاصيل عن تحرك بعض السفن الأميركيّة في مياه الجزيرة.

في البيت الأبيض، استغرق الرئيس روزفلت عشر دقائق في قراءة رسالة ياماموتو الموقفة للمفاوضات. ثمّ رفع رأسه بعد الانتهاء من القراءة وقال لـ"هاري هوبكنز": "هذا يعني الحرب". فردّ هوبكينز بالإيجاب. وطفق الرجلان يستعرضان الوضع من جميع جوانبه، لا سيّما لناحية الاستعدادات والإمكانيّات المتوافرة لمجابهة الموقف. وخلال الحديث، اقترح الرئيس روزفلت بعث رسالة إلى الأمبراطور اليابانيّ "هيروهيتو". لكنّ هوبكينز كان مخالفًا لهذا الرأي باعتبار أنّ الحرب أصبحت أمرًا واقعًا. وكان رأيه أن تبدأ أميركا بالضربة الأولى. فردّ الرئيس بأنّ ذلك مستحيل لأنّه مسؤوليّة دوليّة وتاريخيّة كبرى.

طوال طريقه إلى هدفه المرسوم في مخطّط المعركة، لم يلق الأسطول اليابانيّ أيّ نوع من العوائق. فالاستكشاف الجويّ الأميركيّ منعدم، والسفن الأميركيّة جاثمة تتثاءب في مرافئها... وضع يثير العجب ويدفع على الريبة من أن يكون وضعًا تمويهيًا للتضليل...

عندما وصلت عقارب الساعة إلى الخامسة والنصف بتوقيت هاواي، كانت القوّة البحريّة اليابانيّة الضاربة على بعد ٢٥٠ ميلاً من "بيرل هاربر"، كما كان أكثر من ألفي أميركيّ يَغُطّون في نوم عميق، والبعض منهم يتسامر، دون أن يكونوا على علم بأنّ ساعات ثلاث فقط تفصلهم عن الموت.

كان كلّ شيء هادئًا في وزارة الخارجيّة اليابانيّة، كما في مكتب الشيفرة بسفارة اليابان في واشنطن، كذلك في وزارتي الحرب والبحريّة.

هدير واحد كان قد سُمع فوق مياه الباسيفيك، هو هدير طائرتي استكشاف يابانيّتين انطلقتا للتأكّد من أنّ الأسطول الأميركيّ لا يزال غارقًا في سباته العميق.

كانت الاستخبارات بين مختلف الأجهزة العسكريّة تسعى للتعرّف على حقيقة الموقف. وهذا الأمر مع كلّ اختصاره وسرعة إنجازه، يتطلّب بعض الوقت. فالأمكنة بعيدة، والحذر مطلوب، والعوائق تبرز من هنا وهناك.

وبينما أمواج الأثير تتناقل الرسائل ذهابًا وإيابًا، وطولاً وعرضًا، كانت الطائرات اليابانيّة التي انطلقت من على حاملاتها تتوجّه بأعلى قدراتها الهجوميّة نحو أهدافها.

وفي الوقت الذي كانت فيه الطائرات تحلّق فوق بيرل هاربر، كان الوزير اليابانيّ "توغو" في حضرة الأمبراطور يسلّمه رسالة روزفلت، ويتلقّى منه الجواب الفوريّ عليها وهو أنّ "رسالة قطع المفاوضات تكفي".

٥١ قاذفة قنابل على ارتفاع قليل، ٤٩ قاذفة قنابل على ارتفاع كبير، ٤٠ طائرة مقاتلة و٤٣ طائرة معترضة وصلت فوق بيرل هاربر في تشكيلات محكمة وفقًا للخطّة.

أطلق القائد "فوشيدا" صاروخًا من نوع "التنّين الأسود" مؤذنًا ببداية المعركة. بعد دقائق قليلة، تأكّد من نجاح المباغتة وسارع إلى بثّ الرسالة التالية: "تورا... تورا... تورا..."، بمعنى "نجاح المباغتة". وعلى متن المدمّرة "آكاجي"، كان "تاغومو" يلتفت نحو الأميرال "كوزاكا" ويشدّ على يديه دون أيّ كلمة.

في واشنطن كان "أوكومورا"، موظّف الشيفرة في السفارة اليابانيّة، يضع اللمسات الأخيرة على الرسالة التي سبق لأجهزة الاستخبارات الأميركيّة أن التقطتها وترجمت محتواها وأوصلتها إلى المراجع المختصّة، وهي رسالة قطع المفاوضات. وبينما كان السفير ومعاونه يدخلان البيت الأبيض لتسليم الرسالة إلى الرئيس روزفلت، كان الرئيس يتّصل هاتفيًا بوزير خارجيّته الموجود في مكتبه ينتظر السفير اليابانيّ ليدخل معه مكتب الرئيس. وكان صوت الرئيس هادئًا ومتشنّجًا في آن... وقال: "تلقّيت لتوّي خبرًا يفيد بأنّ اليابانيّين هاجموا بيرل هاربر"... وعندما سأله الوزير ما إذا كان الخبر مؤكّدًا أجاب الرئيس بالنفي... وكانت الكارثة قد وقعت، وحصل ما حصل.

يبقى السؤال حول جاسوسيّة النساء في هذه الكارثة المأساة.

لقد لعبت "روث كوهين" وعائلتها دورًا مميّزًا على هذا الصعيد.

كانت روث من قبل محظية الدكتور "غوبلز"، وزير الدعاية النازيّ في حكومة أدولف هتلر. وعندما أراد غوبلز التخلّص من محظيته هذه، بعد أن أضحى عبؤها ثقيلاً عليه إثر شعوره بالحرج أمام الفوهرر، سمع بأنّ اليابانيّين طلبوا من الجنرال

"هوز هوفر"، صاحب نظريّة "الجيوبوليتيكس"، أي "الجغرافيا السياسيّة"، أن يرسل عددًا من الألمان ليعملوا كجواسيس لهم في الجزر الواقعة تحت سيطرة القوّات الأميركيّة في الباسيفيك. فعرض غوبلز عائلة كوهين على "هوز هوفر" الذي رحّب بالفكرة. وهكذا نزل آل كوهين جميعًا على ساحل هاواي، باستثناء الإبن الأكبر "ليوبولد" الذي كان سكرتيرًا خاصًّا لغوبلز.

ساعد مظهر روث كثيرًا في ذلك... وهي كانت تهوى السباحة ولعب كرة اليد، كما كانت تجيد الرقص. وسرعان ما أصبحت تتلقّي الدعوة إلى كلّ حفلة اجتماعيّة، وقد أدّى معظم هذه الحفلات إلى اتّصالها بضبّاط البحريّة الأميركيّة الذين كانوا يشعرون برغبة جامحة لمصاحبة النساء لغيابهم عن وطنهم. وكانت هذه الاتّصالات سببًا في حصول روث على معلومات بالغة الأهميّة، أفضى بها، من دون قصد، كلّ من كان يسعى للتقرّب منها.

في أوائل عام ١٩٣٩، وصل آل كوهين من هونولولو إلى بيرل هاربر حيث كان الجوّ أقرب إلى الهدوء، وحيث افتتحت روث صالونًا للتجميل، لزوجات ضبّاط البحريّة الأميركيّة، وكانت هذه المغامرة الجديدة بمثابة تحديد لاتّساع نطاق الجاسوسيّة اليابانيّة في جنوب الباسيفيك. وسرعان ما حقّق الصالون نجاحًا ملحوظًا سواء من ناحية العمل، أو كمصدر للمعلومات التي كانت روث تحصل عليها من ثرثرة زوجات ضبّاط البحريّة.

كانت مهمّة آل كوهين هي تزويد اليابانيّين بمعلومات دقيقة عن عدد القوّات البحريّة التابعة للولايات المتّحدة في الباسيفيك، وعن موقعها بالضبط، وكذلك عن مواعيد وصولها إلى أيّ مكان، أو رحيلها من أيّ مكان، خاصّة ما يتعلّق ببيرل هاربر. وأعدّ اليابانيّون لذلك شيفرة صغيرة ونظام إشارات ضوئيّة، يستطيعون

بواسطته نقل معلوماتهم من نافذة عليا في منزل صغير، استؤجر فوق ميناء بيرل هاربر في مواجهة أحد عملاء اليابان... وتمّت أول تجربة لهذا النظام في الثاني من كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٤١، حيث حقّق نجاحًا تامًّا. وجاء "أوكيدو"، قنصل اليابان في هونولولو إلى بيرل هاربر بنفسه، وقد تمكّن من أن ينقل إلى مخابرات البحريّة اليابانيّة بواسطة اللاسلكي تحديد جميع مواقع السفن الحربيّة الأميركيّة في ميناء جزر هاواي.

وحينما كانت قاذفات القنابل اليابانيّة تهاجم بيرل هاربر صباح السابع من كانون الأول ديسمبر، كان آل كوهين من نافذتهم العليا يراقبون السفن الأميركيّة الضخمة في مراسيها. وأثناء سير المعركة كانوا يرسلون إشارات ضوئيّة تدلّ على نجاح قاذفات القنابل أو إخفاقها.

وبينما كانوا يؤدّون مهمّتهم هذه، فاجأهم ضابط من المخابرات الأميركيّة. وقدّم آل كوهين إلى المحاكمة حيث حكم على ربّ العائلة بالإعدام، لكنّه أنقذ حياته حين أدلى بكلّ ما يعلم للأميركيّين، كما حُكم على زوجته وابنته روث بالسجن.

والواقع أنّ الاستخبارات اليابانيّة لم تعتمد على روث وعائلتها فقط في هذه المهمّة، بل كان إلى جانب روث أيضًا، وعلى بعد آلاف الكيلومترات جاسوسة أخرى هي "فليغالي ديكينسون"، الملقّبة بـ"سيّدة الدمى"، لأنّها كانت تحترف تجارة الدمى في مخزن لها يقع في شارع "ماديسون" قريبًا من الشارع رقم ٦٢ في نيو يورك نفسها...

كان اسمها وهي صغيرة "مالفينا بلوفر". ولدت في "ساكرامنتو"، ثمّ أتمّت دراستها العالية في جامعة "ستانفورد". وكان اسمها مدوّنًا في لائحة أعضاء منظّمة الصداقة الأميركيّة اليابانيّة، لكنّها انفصلت عن هذه المنظّمة منذ عام ١٩٣٧ عندما رحلت إلى نيو يورك للبدء في تكوين حياة جديدة. وكان لزوجها العديد من المكاتب في سان

فرانسيسكو في نفس المبنى الذي كانت تقيم فيه القنصليّة الألمانيّة والقنصليّة اليابانيّة. وعندما توفّي زوجها، وجدت نفسها أرملة وحيدة، فانتقلت إلى نيو يورك، وذلك قبل عيد الميلاد عام ١٩٣٧ بقليل. وعملت كبائعة في أحد الأجنحة المخصّصة لبيع الدمى في واحد من أكبر متاجر نيو يورك. وفي السنة التالية افتتحت متجرًا لحسابها الخاصّ في شارع "ماديسون" بتوجيه من الاستخبارات اليابانيّة وتمويلها. ولم تمض مدّة طويلة على ذلك، حتّى أصبح لها كثير من الزبائن. كما كانت على علاقة مع الكثيرين من هواة جمع الدمى الذين يعيشون في ٤٨ دولة منتشرة في العالم، وكثيرًا ما كانت تسافر في رحلات وتذهب إلى الغرب أحيانًا لتقابل بعضًا من زبائنها في هوليوود، كما تلتقي مع بعض رجال الاستخبارات اليابانيّة لتزوّدهم بالمعلومات الخاصّة بطبيعة مهمّتها. إلا أنّه في أكثر الأحيان، كانت ترسل معلوماتها في بطاقات صغيرة يتمّ إخفاؤها بين طيّات اللفافات التي تغلّف الدمى. وقد اكتشفها رجال المباحث بعد مراقبة دقيقة لمتجرها استمرّت أسابيع عديدة، حيث اعترف هؤلاء بأنّ تجارة الدمى النادرة كانت بحقّ من أكثر أساليب الجاسوسيّة خطورة، وقد خدمت اليابان خدمات كبرى في الحصول على أسرار الولايات المتّحدة الأميركيّة.

عندما اعتُقلت فليغالي ديكينسون، أودعت في السجن كجاسوسة يابانيّة. وبدأت محاكمتها في شهر حزيران - يونيو ١٩٤٤، وكانت المرّة الأولى التي يعرّض فيها أحد الأميركيّين نفسه لعقوبة الموت لقاء القيام بأعمال الجاسوسيّة...

وأخيرًا قام النائب العام بتلخيص عملها، فكشف النقاب عن حقيقة مخزن الدمى في شارع ماديسون، وكيف كان واجهة جيّدة للتمويه والتستّر على أعمال التجسّس. كما ذكر أنّ المتّهمة كانت على اتّصال مع ضبّاط البحريّة اليابانيّة، وكان الدليل على أقواله تلك الرسائل الأربع التي ضُبطت مرسلة إلى الخارج، والتي كانت نصوصها تتحدّث

ظاهريًّا عن الدمى، ولكنّها في الواقع لم تكن إلاّ رموزًا ومصطلحات اتُّفق عليها، إلى أن قال النائب العام: "إنّ الدمى تتكلّم، وها نحن أخيرًا قد توصّلنا إلى فهم تلك اللغة التي تتكلّمها".

وحكم على فليغلي ديكينسون بالسجن عشر سنوات بعد أن قدّمت لليابانيّين معلومات دقيقة عن الأسطول الأميركيّ في بيرل هاربر. وكانت تلك المعلومات، بالإضافة إلى تلك التي قدّمتها زميلتها "روث كوهين"، من أهمّ العوامل التي حطّمت الكبرياء الأميركيّ في أهمّ قاعدة كانت تعتبرها الولايات المتّحدة شريانًا حيويًّا لعنفوانها. هذا مع العلم بأنّ عمليّة بيرل هاربر كانت السبب المباشر في العمليّة الانتقاميّة الأميركيّة التي تمثّلت بضرب مدينتي "هيروشيما" و"ناكازاكي" بقنبلتَين نوويّتين أميركيّتين في آب ــ أغسطس ١٩٤٥، ما أدّى إلى استسلام اليابان وإعلان نهاية الحرب العالميّة الثانية[١].

---

١ ـ زهر الدين د. صالح، عمليّات وقرصنة إلكترونيّة، المركز الثقافي اللبناني (بيروت،٢٠٠٣) ص٧ ـ ١٦.

روث كوتشنسكي والراديو اللعبة

ربما كان رجال البوليس، الذين قرعوا باب بيت متواضع بالقرب من مدينة أوكسفورد الجامعية البريطانيّة في صباح أحد أيام الربيع في العام ١٩٤١ على يقين من أنهم كانوا يتعقبون طريدة ساذجة. وكان رجال البوليس تلقوا واحدة من تلك المكالمات التليفونية التي كانت عادية في تلك الأزمنة الشديدة العصبية، حينما كان الرجل العادي، الذي تلقى تحذيرات بالبقاء متيقظًا تجاه وجود جواسيس أعداء يميل إلى إجراء مكالمة تليفونية مع رجال البوليس عند كل شعور بحد أدنى من الشك.

قلما كان هذا البيت المتواضع يبدو كأنه بيت للتجسس. وكان هذا البيت مستأجرًا من جانب عريف في سلاح الجو الملكي البريطاني يدعى ليون بيرتون وزوجته روث، اللذين كانا يعيشان مع طفليهما الصغيرين. ومع أن أحد الجيران قام بإبلاغ رجال البوليس عن رؤية جهاز راديو متطور في ذلك البيت (ملكية جهاز راديو متطور كان ينبغي تسجيلها بموجب لوائح أوقات الحرب)، فلم يكن من المتصور، من أول وهلة، أن يكون عريفًا فقيرًا في سلاح الجو الملكي قادرًا على ملكية مثل هذه القطعة المتطورة من التكنولوجيا.

كانت المرأة التي فتحت باب البيت قصيرة القامة وممتلئة وبمريلة، بينما وقف طفل صغير على ساق واحدة ملقيًا نظرة محدقة إلى رجال ببذلاتهم العسكرية. وبدت

السيدة بيرتون مرتبكة حينما شرح أحد رجال البوليس الأسباب التي جعلتهم يأتون إلى هنا.

ومن خلال لهجة منطوقة، ولكنها لهجة أوروبية غامضة، دعت الرجال إلى الدخول، وقدمت لهم راديو لعبة الأطفال. هل هذا هو "الراديو ذو الموجة القصيرة" الذي رآه أحد الجيران؟

ربما... قال أحد رجال البوليس مبتسمًا. وأعرب رجال البوليس عن إعتذارهم بسبب إزعاج هذه المرأة الجميلة، وغادروا.

كانت تلك مجرد واحدة من مجالات الذعر التي يتسبب الجواسيس في حدوثها، وربما حاول رجال البوليس نسيانها في حينها. وفي وقت لاحق فقط عرف هؤلاء الرجال أنهم كانوا يقفون أمام واحدة من ألمع عملاء الاستخبارات السوفياتية في كل بريطانيا العظمى.

كما هو الأمر عادة، فإن روث كوتشنسكي بيرتون قامت بدورها على نحو بارع. ومن واقع حقيقة ذلك المظهر العام المحافظ لأم شاعرة بإنزعاج دائم من تربية طفل صغير، فربما كان من الطبيعي أن يغفر لرجال البوليس عدم محاولتهم إجراء المزيد من عمليات التفتيش.

لم تكن تلك المرة الأخيرة التي تنجح فيها هذه الممثلة البارعة في خداع أعدائها.

ساعد مظهر كوتشنسكي العام على إخفاء حقيقة امرأة شيوعية مخلصة مولودة لعائلة شيوعية جدًا: أبوها، رينيه، الاقتصادي البارز، كان واحدًا من أوائل الأعضاء في الحزب الشيوعي الألماني، وكذلك كان أخوها يورجين. والابنة روث، انضمت إلى حركة الشبيبة في الحزب في ١٩١٧ حينما كانت في التاسعة فقط. وفي ١٩٢٦،

انضمت إلى الحزب كفتاة راشدة. وفي ذلك العام، ذهبت إلى نيويورك لتسيير شؤون مكتبة، وقابلت رودلف هامبيرغر، الذي كان يدرس الهندسة في الولايات المتحدة. ووقع الاثنان في الحب، وتزوجا، وذهبت معه إلى شانغهاي عام ١٩٣٠، حيث اشتغل مهندسًا.

لم يكن هامبيرغر شيوعيًا، وبينما تسامح مع قناعات زوجته السياسية المتطرفة، لكنه أعرب عن اعتراضه حينما أفصحت عن نواياها تجاه "العمل لحساب الحزب" في منطقة الاستيطان الأجنبي في شانغهاي. ولم يكن واثقًا من معنى هذا كله، غير أن فكرة مشاركة زوجته في مظاهرات، ومراوغة رجال البوليس، وإقامة حواجز، لم تكن ذلك الشيء الذي كان يتصوره في زوجة ألمانية مطيعة. وتجاهلت روث اعتراضه، وسرعان ما أصبحت مشغولة داخل شركة الاستيطان الأجنبي التي تقوم بتنظيم الشغيلة في المدينة، وقامت بعدد من الأعمال الأخرى. وبعد ذلك بفترة قصيرة أصبحت شخصية لامعة في عالم الشيوعيين، متميزة بذكائها الحاد، وقدرتها اللغوية (كانت تتحدث أربع لغات بطلاقة)، وجرأتها الواضحة.

وجملة القول، فإنها كانت تلك الشخصية التي تميل إلى إثارة انتباه القائمين على تجنيد الأشخاص في وكالات الاستخبارات، حتى أن ريتشارد سورج، الموظف المقيم التابع لوكالة الاستخبارات السوفياتية GRU في الصين، في وقت ما في أواخر ١٩٣٣، قام بتجنيدها للعمل لحساب وكالة الاستخبارات السوفياتية GRU.

وقام سورج، الذي أوصى بها متحمسًا كعميلة عظيمة محتملة، بإرسالها إلى موسكو للتدرّب على كتابة رموز الشيفرة واستخدام جهاز الراديو. وبرهنت على كونها تلميذة رائعة، وحينما عادت إلى الصين بعد عام، عهد إليها سورج بمسؤوليات متزايدة تضمنت إدارة شبكات مختلفة.

في العام ١٩٣٥، تلقت كوتشنسكي أمرًا من وكالة الاستخبارات السوفياتية GRU بوجوب طلاقها من زوجها، رودلف هامبيرغر، بسبب عدم صلاحيته، وهو أمر التزمت بتنفيذه عن طيب خاطر. وبعد ذلك تزوجت من ألفريد شولتز، عميل وكالة الاستخبارات السوفياتية GRU، الذي كان يعمل أيضًا في الصين.

وبعد عامين، اختفى شولتز ضمن حملة ستالين للتطهير، وقالت زوجته بهدوء، بعد إبلاغها أن زوجها الثاني كان خائنًا، أن إعدامه له ما يبرره، وهكذا أصبحت أرملة لديها طفل واحد.

في ذلك القوت، كانت مكانة كوتشنسكي عالية في وكالة الاستخبارات السوفياتية GRU التي كانت لديها خطط عظيمة مخصصة لها. وبعدئذٍ، وفي غمرة تنظيم سلسلة من شبكات في أوروبا موجهة ضد ألمانيا النازية، وهي شبكات كانت عبارة عن أخطبوط عملاق أطلق عليه الألمان "الأوركسترا الحمراء"، قررت وكالة الاستخبارات السوفياتية GRU أن تقوم كوتشنسكي بدور رئيسي. وفي أعقاب مهمة قصيرة في دانزينغ لصقل مواهبها، جرى إرسالها سنة ١٩٣٨ إلى سويسرا حاملة أوامر بتجنيد جواسيس نافعين يعملون لحساب وكالة الاستخبارات السوفياتية GRU من بين المحاربين القدماء من الشيوعيين البريطانيين الذين شاركوا في الحرب الأهلية الإسبانية. وكان مجندها الجائزة هو ألكسندر فوت، الذي شارك في الحرب وبرهن على قدرته كمشغل جهاز راديو. (فوت في وقت لاحق عهدت إليه مهمة في شبكة كبيرة تابعة لوكالة الاستخبارات السوفياتية GRU في سويسرا أطلق الألمان عليها إسم "الثلاثة الحمر").

كانت مهمة كوتشنسكي التالية بمثابة تحديات حقيقية: كوتشنسكي تلقت أمرًا بالذهاب إلى إنكلترا لتكوين فرع بريطاني للأوركسترا الحمراء. وكان هذا أمرًا غير

قابل للتصديق، ذلك أنهـا، كمواطنـة ألمانيـة، لا تستطيع دخـول بريطانيـا بـدون جـواز سفر، وهو شيء لم تكن الحكومة النازية تمنحه إلى أي شيوعي معروف. وقامت بحـل هذه المشكلة بطريقة سهلة، وهي مفاتحة عـدد مـن الشيوعيين البريطـانيين الموجوديـن فـي سويسرا بطلب الزواج مـن أحدهـم حتـى تتمكـن مـن الحصـول علـى المواطنيــة البريطانية عن طريق الزواج. وخذلها فوت، ولكن ليون بيرتون، الشيوعي الشـاب والمحارب القديم في الحرب الأهلية الإسبانية، وافق على زواج المصلحـة. وفـي العـام ١٩٤٠، حين استدعاء زوجها للخدمة في سـلاح الجـو الملكـي البريطـاني، ذهبـت إلـى بريطانيا، واستقرت في كيدلينجون، وهي بلدة صغيرة فـي أكسفورد. ووجهـت وكالـة الاستخبارات السوفياتية GRU لها بالعمل كنائمة، في ذلك الوقت علىالأقل.

أما كيف تمكنت كوتشنسكي من القيام بهذا كلـه، فذلـك يشـكل تقديـرًا لإخلاصهـا لنداءات الواجب واحترامًا لهذا الواجب. وكانت كوتشنسكي وضعت طفلاً مـن زواجهـا من شولتز، وعلى نحو لم يكن متوقعًا، وضعت طفلاً آخـر مـن بيرتون. وهكـذا، كـان لديهـا فـي ذلـك الوقـت طفـلان للاعتنـاء بهمـا. وحينمـا وجهـت وكالـة الاسـتخبارات السوفياتية GRU في أيّار - مايو ١٩٤١، لها أمرًا بالبدء في العمـل، كـان يتعيـن عليهـا بطريقة ما أن تقوم بتنفيذ هذا الأمر، بالإضافة إلى أعبائها المنزلية.

نجحت كوتشنسكي على نحـو لافت للنظـر. وبـدأت فـي بنـاء شبكة ضمـن نطـاق عائلتها، التي هربت إلى بريطانيا بعد مجيء هتلر إلى السلطة. وبالنظر إلى أنهم كـانوا شيوعيين مخلصيـن، فـإنهم كـانوا مستعدين للاستجابة إلـى نـداء الواجب فـي خدمــة القضية. وأصبح والدها، أستاذ العلوم الاقتصادية في أكسفورد في ذلك الوقت، مرتبطًـا على نحو وثيق بالمؤسسـة البريطانيـة، وبـدأ فـي جمـع معلومـات استخباراتية سياسـية رفيعة المستوى. وأخوها يورجين، وهو اقتصادي أيضًا، كان يعمـل محلـلاً فـي وزارة

الطيران البريطانية، وقدم معلومات استخباراتية عسكرية رفيعة المستوى. (وفي وقت لاحق بعد دخول الولايات المتحدة الحرب، انضم إلى مكتب الخدمات الاستراتيجية الأميركية، OSS، وخدم ضمن مجموعة العاملين في مشروع دراسة القصف الاستراتيجي، الأمر الذي عمل على إعطائه حرية أعظم في الوصول إلى معلومات استخباراتية رفيعة المستوى). ومع أنها كانت قريبة من البيت، فإن زوجها جعلها على اتصال مع ضابط كبير في سلاح الجو الملكي البريطاني الذي كان شيوعيًا في السر، وقدم هذا الضابط عينات من أحدث تكنولوجيا سلاح الجو البريطاني، بالإضافة إلى تقارير فنية قامت روث بشحنها في الباخرة إلى موسكو.

وهكذا، عكفت روث علىالانتقال بين أعضاء الحزب الشيوعي الألماني المبدعين الذين يعيشون في بريطانيا. واكتشفت أنهم، كشيوعيين مخلصين، ما زالوا يدفعون إسهاماتهم المالية الحزبية ويعقدون اجتماعات منتظمة على مستوى الخلية. وبعد الغزو الألماني للاتحاد السوفياتي في حزيران ـ يونيو ١٩٤١، كانوا تواقين إلى مساعدة موسكو، وقامت روث كوتشنسكي بتنظيمهم في شبكات من الجواسيس النافعين بدرجات متباينة من الأنشطة المفيدة. وكان الجزء الأعظم منهم يتولى مهام وظيفية متدنية الدرجة، ولكنهم مع ذلك قدموا معلومات استخباراتية سرية، حتى أن وكالة الاستخبارات السوفياتية، GRU وجدتها مفيدة، ومع ذلك، فإن جهودها اللاحقة في تجنيد الجواسيس النافعين كانت مثمرة.

في أواخر ١٩٤١، قابلت كوتشنسكي عالمًا ألمانيًا مهاجرًا شابًا هرب من ألمانيا في ١٩٣٣ حينما جاء هتلر إلى السلطة. وبالنظر إلى أنه كان شيوعيًا متطرفًا، فهو استمر في حضور اجتماعات حزبية في المنفى، وأبلغ كوتشنسكي عن توقه الشديد إلى

مساعدة الاتحاد السوفياتي بكل ما يستطيع. ولم يكن في وضع وظيفي يسمح له بتقديم الكثير، وبعد عام في معسكر اعتقال الغرباء عند اندلاع الحرب، قام البريطانيون بتجنيده للعمل في شيء أطلق عليه "مشروع نفق الخير والشر". وحينما لم تظهر كوتشنسكي اهتمامًا كبيرًا، أبلغها كلاوس فوتش أن المشروع كان اسمًا تمويهيًا للسر الفني الأعظم في الحرب: بريطانيا العظمى والولايات المتحدة تعكفان على تطوير قنبلة ذرية. هل يبدي الروس اهتمامًا في ذلك؟

كان الروس بالفعل يبدون اهتمامًا، وجرى تجنيد فوتش كجاسوس نجم نافع في شبكة كوتشنسكي. وفي غضون ذلك، واجهت مشكلة كيفية إرسال كل هذه المعلومات الاستخباراتية إلى المحطة الرئيسية التابعة لوكالة الاستخبارات السوفياتية GRU في السفارة السوفياتية في لندن. وكان يمكن إرسال الجزء الأعظم من المعلومات الاستخباراتية التي تقوم بجمعها عن طريق جواسيس وسطاء، غير أن المعلومات الاستخباراتية "الساخنة" كان ينبغي إرسالها عن طريق الراديو. واحتاجت إلى جهاز إرسال، وما كان يمكنها أن تأخذ معها واحدًا إلى السوق ثم تعيده معها إلى البيت. وكان الحل صريحًا وواسع الحيلة...

خلال فترة امتدت إلى بضعة أسابيع، كانت كوتشنسكي تقوم بجولات فترية بالقطار إلى لندن مع ابنها الصغير. وبدا الاثنان عاديين جدًا: أمّ مع ابنها الصغير، والابن يحمل مزهرية باقة من الزنبق، في طريقهما إلى لندن. وحين وصولهما إلى هناك، تقوم كوتشنسكي بمقابلة عميل من وكالة الاستخبارات السوفياتية GRU في حديقة عامة. ويقوم هذا العميل بتسليمها حقيبة صغيرة، ثم تقوم هي بأخذ أجزاء الراديو من الحقيبة وتضعها في مزهرية باقة الزنبق. وفي طريق عودتها إلى البيت، كانت تبدو هي وابنها عادية مع ابنها مسافرين في قطار.

حينما كانت تقوم بإرسال المعلومات الاستخباراتية على الهواء، كانت كوتشنسكي تحرص على أن تكون مدة الإرسال قصيرة جدًا، ذلك أن رجال مكافحة التجسس في بريطانيا كانوا في حالة تأهب قصوى في مواجهة أيّ دلائل على وجود راديوهات سرية. وكانت طلبت حتى من أحد الجيران مساعدتها في مد الهوائي، وأبلغته بأنه حبل غسيل. وكان هذا كله جزءًا من مظهر كاذب من صورة اعتيادية عائلية اهتمت بالابقاء عليها. وكان هذا مظهرًا كاذبًا خدم أغراضها جيدًا، ذلك أنه برغم ذلك القدر الهائل من المعلومات الاستخباراتية الذي كانت تقوم بإرساله إلى موسكو خلال الحرب، فلم يتم اكتشاف أمرها مطلقًا. وكانت تمكنت حتى من الإفلات من تطور آخر كان يمكن أن يعني نهايتها:

في ١٩٤٥، جرى إلقاء القبض على فوتش في بريطانيا بتهمة التجسس، وقدم اعترافاته، ولكنه تجنب ذكر كوتشنسكي، وبقيت آمنة تبعًا لذلك.

بعد مضي ما لا يقل عن عامين، وتحديدًا في ١٩٤٧، جرى اكتشاف أمرها أخيرًا، ذلك أن ألكسندر فوت، الشيوعي البريطاني الذي قامت كوتشنسكي بتجنيده قبل عشر سنوات، ارتد إلى البريطانيين، وكشف عن أسماء جميع عملاء وكالة الاستخبارات السوفياتية GRU الذين أجرى معهم أي اتصال، ومن بينهم كوتشنسكي، مع أنه زعم أنه توقف عن العمل لحساب وكالة الاستخبارات السوفياتية GRU في ١٩٤٠. ولأسباب لم يعلن عنها أبدًا، فإن فوت كان على ما يبدو يقصد بذلك الكشف الجزئي حماية كوتشنسكي بطريقة ما. وهذا ما حدث بالفعل: عملاء جهاز الاستخبارات البريطاني MI-5 وقفوا أمام بيتها، وبدأوا في طرح أسئلة حول ارتباطها مع الاستخبارات السوفياتية. ولكنها لجأت إلى استخدام مظهر آخر من مظاهر الأفعال النسائية التمويهية، وبعد مغادرة عملاء جهاز الاستخبارات البريطاني MI-5 المكان،

أخذوا يسألون إن كان فوت مخطئًا بشكل من الأشكال. ولم يكن من الممكن أن تكون مثل هذه المرأة ذات الجسم الممتلئ والعيون الواسعة البريئة التي لا تظهر أي معرفة بتلك الأشياء الشائنة، كالتجسس، هي التي زعم فوت أنها كذلك، حتى لو كان ذلك قبل ١٩٤٠، حينما كان معروفًا عن وكالة الاستخبارات السوفياتية GRU وجهاز الاستخبارات السوفياتي KGB أنهما يقومان بتجنيد "كل واحد" يوافق على تقديم المساعدة لهما.

قبل أن يتمكن جهاز الاستخبارات البريطاني MI-5 من اتخاذ قرار بشأن ما يمكن عمله بعدئذ، عرفت كوتشنسكي أن الوقت حان للرحيل. وغادرت هي وزوجها وطفلاها البيت، فيما أبلغت جيرانها أنها جولة لزيارة الأقارب في ألمانيا. ولكن هؤلاء الجيران لم يزوا كوتشنسكي مرة أخرى، ذلك أن عائلة بيرتون والطفلين اختفوا في ألمانيا الشرقية، ثم أعقبهم بعد ذلك بفترة قصيرة جميع أفراد عائلة كوتشنسكي.

لم يكن جهاز الاستخبارات البريطاني MI-5 يشعر بالقلق تجاه هذا الاختفاء، وافترض، في ظل أسوأ الظروف، أنها كانت جاسوسة نافعة متواضعة المستوى عملت لحساب موسكو منذ سنوات مضت، وعلى أيّ حال، فربما لم تلحق ضررًا بالأمن البريطاني، ذلك أنها لم تدخل البلاد قبل ١٩٣٩.

في ١٩٥٩ فقط، حينما ظهرت عملية حل رموز الشيفرة "فينونا" إلى النور، عرف جهاز الاستخبارات البريطاني MI-5 أنه كان مخطئًا. وكشفت عملية حل رموز الشيفرة بشأن الرسائل الصادرة من محطة وكالة الاستخبارات السوفياتية GRU إلى موسكو خلال الحرب، عن بحر صغير من المعلومات الاستخباراتية من مصدر، وربما كان هذا المصدر رئيس الشبكة، كان يحمل الاسم الرمزي "سونيا". ومن خلال الدلائل العديدة التي ظهرت في الإرساليات، فلم يكن من الصعب على جهاز الاستخبارات

البريطاني MI-5 أن يستنتج أن "سونيا" كانت في الحقيقة هي روث كوتشنسكي، ربة البيت الصغيرة التي خدعته بمظهرها الكاذب لسنوات عديدة من قبل.

وكوتشنسكي، في غضون ذلك، استقرّت في ألمانيا الشرقية، حيث أصبحت موالية مخلصة للنظام، واشتغلت في وظيفة حكومية ربما لم تكن تمت بصلة إلى الاستخبارات. (ومن غير المعروف ما إذا كانت على قيد الحياة حتى الآن). وفي العام ١٩٨٢، نشرت مذكراتها وعاشت في نعيم حرارة تقدير الاستخبارات السوفياتية، التي قالت عنها: "لو كان لدينا خمس سونيات، فربما كانت الحرب انتهت في فترة أقصر[١]".

---

١ ـ فولكمان إرنست، الجواسيس عملاء سريّون غيّروا مجرى التاريخ، ص١٧٨ ـ ١٨٦.

بطولات نسائيّة سوفياتية في الحرب العالميَّة الثانية

كثيرات من النساء صنعن المعجزات، ولعبن دورًا خارقًا في ميدان العمل والانتاج، كما في الميدان الأمني والسياسي، وحتى العسكري، خلال المعارك والحروب. وكانت الحرب العالمية الثانية المسرح الأكبر الذي برزت فوقه عبقرية النساء وبطولتهن، وخصوصًا على الصعيد السوفياتي، حيث اكتسبت إحداهن من المجد والشهرة ما يفوق الوصف والخيال، وهي الآنسة "أوجيني رودنيفا" التي أصبحت كبيرة ملاّحات اللواء الجوي السوفياتي في الحرب العالمية الثانية... وهي التي حصلت على وسام "النجمة الذهبية ذات الشريط الأحمر".

كان قد مضى، في الواقع، على اكتساح روسيا من قبل هتلر أربعة أشهر فقط عندما أصبحت جيوشه على مقربة من موسكو تهدّدها بالاحتلال بين عشية وضحاها. وقد سقطت "سمولنسك" بأيدي الألمان. ومع تساقط الثلوج في أول الشتاء كان القتال يحتدم ويشتد باتجاه لينينغراد وموسكو. لقد جاء الشتاء مبكرًا في شهر تشرين الأول ـ اكتوبر عام ١٩٤١. وفي العاصمة الروسية كانت أخبار تقدم الألمان تبعث الفزع في النفوس؛ ولهذا فقد قوبل سقوط الثلج بالإرتياح العظيم على أنه تعزيز لدفاع الروس وتأخير لتقدم الألمان السريع. أما الرياح الشرقية القاسية فلم تبعث الخوف في قلوب الروس هذه السنة، بل فرحوا بها لأنها ستحدّ من اندفاع الألمان باتجاه الشرق، وتعطي للروس الفرصة للمقاومة المجدية في أرض يعرفونها، وطقس اعتادوا عليه.

كانت الآنسة "أوجيني رودنيفا" تغادر غرفة الدرس في جامعة موسكو لآخر مرة في حياتها. ففصل الشتاء الجديد قد خطّ لها حياة جديدة، وساعدتها الظروف لتلعب دورًا كبيرًا في تحطيم قوات العدو الزاحفة. كان عمرها عشرين عامًا. متوسطة القامة، وفي زرقة عينيها وميض يدل على الحزن سبّبته الغارات النازية على بلدها، والتي نتج عنها مقتل الكثيرين من أهلها ورفاقها.

ولقد علمت مؤخرًا بأن وزارة الحربية قد قررت تشكيل فيلق جوي من النساء، وأسندت قيادته إلى أشهر سيدة طيارة في العالم وتدعى الرائد "مارينا يسكوفا". ولقد تقرر اشتراك هذا الفيلق بالعمليات فور انهائه مدة تدريبه، واشترط أن يكون أعضاؤه من طالبات الجامعات في موسكو، أو من أعضاء نوادي الطيران، والسيدات طياري شركة الخطوط الجوية السوفياتية "ايروفلوت Aeroflot". لم تتأخر "أوجيني" لحظة، فكانت أولى المتوطوعات.

تمكن سلاح الطيران الألماني في الأسابيع الأولى من العمليات، من القضاء على سلاح الطيران السوفياتي في منطقة الجبهة. وبذلك أصبحت القوات الأرضية عرضة للتدمير. فكان لا بد من متطوعين لسلاح الطيران؛ ولضمانة العدد المطلوب كان لا بد من تطويع النساء. وقد وجدت "أوجيني رودنيفا" نفسها في فيلق جوي للقاذفات وفي مدرسة خاصة على شاطئ نهر "الفولكا". واضطرت إلى جمع شعرها الذهبي الجميل في لباس الرأس الخاص بالطيارين؛ ثم بدأت تتدرب على قيادة الطائرات.

لم يكن أحد يصدق بأن تنقلب هذه الفتاة إلى ملاّح جوي خلال تسعين يومًا فقط. ولضيق الوقت لم يعط المدرّسون الفرصة لأحد. ومن لايتمكن من السير بسرعة في التدريب يوقف عن الطيران، ويحول إلى وظائف أرضية بحتة. فخلال شتاء (١٩٤١ ـ ١٩٤٢) القاسي، بذلت "أوجيني" مجهودًا جبارًا في دراستها، ولوحظ عليها ولع شديد

بمادة الملاحة الجوية، فأصبحت اختصاصية فيها. وبانتهاء الدورة، حصلت "أوجيني" على جناح الملاحين وهو عبارة عن جناحين يحملان قنبلة بينهما.

وصادف أثناء الدورة ورود أخبار حسنة من الجبهة الوسطى. فقد تمكن السوفيات من وقف زحف الألمان قرب موسكو. وفي الجنوب تمكنوا من إعادتهم إلى الخلف قليلاً نحو شبه جزيرة القرم، ولكن الجيوش الألمانية ما زالت لديها القوة اللازمة للزحف.

وفي شهر أيّار - مايو عام ١٩٤٢ عيّنت "أوجيني" في اللواء الليلي القاذف الذي كان تحت قيادة الطيارة النقيب "أوديسي بيرشنسكايا". وكانت طائرات هذا اللواء من طراز "بوليكاروف P.O. 2"، وهي طائرات قديمة اخترعت عام ١٩٢٧ ذات مقعدين مكشوفين ليضعا الطيار والملاّح تحت رحمة الطقس السيء. وكانت سرعة هذه الطائرات القصوى لا تزيد عن (١٢٥ كلم/ساعة)، لكنّها كانت تسمح باستخدامها من المزارع والطرق في حالات الضرورة. كما كانت مدهونة باللون الكاكي، ولا يوجد فيها أي سلاح دفاعي. وقد تعيّنت الآنسة "نينا راسبوبوفا" طيارًا أول للملاّحة "أوجيني"، وكانت مهمتهما قذف مراكز العدو ليلاً.

أخذت الفتاتان تطيران ليلة بعد ليلة فوق خطوط العدو قرب جزيرة القرم. وكانت المهمات متواصلة ولا تتوقف مهما كانت الظروف سيئة، في البدر المنير والليالي الظلماء، وحتى لو كانت الغيوم الدكناء تغطي الأهداف التي يجب ضربها.

كانت "أوجيني" تصل إلى هذه الأهداف بدقّة متناهية، ثم تأمر زميلتها نينا بإفلات القنابل؛ وكانت نتيجة الغارة تصل إلى اللواء في اليوم التالي عن طريق رجال المقاومة الشعبية المعروفين "بالأنصار Partizan" الموجودين خلف خطوط العدو، فينهال عليها الثناء والتقدير من جميع رفيقاتها في اللواء.

لم يكد ينتهي صيف ١٩٤٢ حتى صدر أمر تعيينها كبيرة ملاّحات اللواء، وذلك بسبب الخبرة العظيمة التي اكتسبتها خلال مهماتها. ولم تكن "أوجيني" تعتمد فقط على النواحي العلمية في مهاتها، بل كان للمعلومات النظرية أهمية كبرى في نجاح هذه المهمات أيضًا، حتى أنها لقبت فيما بعد بصاحبة النظريات.

وخلال الليالي الطويلة لشتاء عام ١٩٤٢ ـ ١٩٤٣، كانت الطائرات السوفياتية من طراز "بوليكاروف P.O. 2" تقوم بأكبر عدد من الغارات على الخطوط الألمانية؛ وكانت الطائرة الواحدة تنفّذ ما لا يقل عن خمس طلعات كل ليلة ابتداء من غروب الشمس وحتى شروقها. وبلغ مجموع غارات اللواء خلال تلك الليالي ١٩٤ غارة، قذف فيها ما لا يقل عن ٥٥ ألف قنبلة. ولقد تمكنت أوجيني خلال إحدى غاراتها ليلاً من إصابة مركز قيادة الفيلد مارشال "بارون فون كليست" في منطقة "موزدوك"، ووصلت أخبار هذه الغارة الناجحة إلى مسامع الفريق "بتروف" قائد جبهة القوقاز الشمالية، وذلك قبل أن تقوم "أوجيني" بكتابة تقريرها عن ذلك.

لقد كان الألمان يسخرون كثيرًا من هذه الطائرات، ولكنهم كانوا دومًا يحترمون ملاّحيها ويلقبونهم بملائكة جهنّم.

وحتى صيف عام ١٩٤٣، تابع اللواء غاراته دون أن يكون هناك حوادث مؤسفة. ولكن في أول آب ـ أغسطس عام ١٩٤٣، كانت "أوجيني" تطير مع "كلوديا سيريبير باكوفا" في مهمة قذف الخطوط العدوة قرب مدينة "كيفسكايا". وللأسف الشديد دخلت طائرة القائدة "كرواتوفا" ـ أحسن طيارة في اللواء ـ ضمن منطقة محمية بالمدفعية المضادة للطائرات، وحوصرت الطائرات بأنوار الكشافات، فأصيبت طائرة القائدة وهوت نحو الأرض، وانفجرت بقنابلها فوق مواقع العدو، وتبعتها ثلاث طائرات أخرى لنفس السبب، وخسر اللواء ثماني فتيات في لحظة واحدة.

لقد أثّرت هذه الخسارة الفادحة تأثيرًا كبيرًا في نفس "أوجيني". فالبرغم من خبرتها العظيمة في العمليات الحربية، فإنها ما زالت صغيرة السن لا تتجاوز ٢٢ عامًا، ولا ترغب بالموت، لكنها كانت تخاف الحريق، وتفزع من الوقوع أسيرة بأيدي الألمان. ولهذه الأسباب فقط أخذت فكرة الانتحار تجد طريقها إلى هذه الفتاة، وأخذت تتحدث كثيرًا عن النقيب "كاستللو" الذي انتحر بطائرته الملتهبة حيث قادها باتجاه رتل من الدبابات وعربات الوقود الألمانية حتى اصطدمت به وانفجرت. وكانت تقول لرفيقاتها: "إذا صدف واشتعلت النار بطائرتي، فلسوف أوجهها نحو الخطوط العدوة منتقية هدفًا جيدًا لأدمّره. وعندئذ لا يمكن للألمان أن يحرقوني".

منحت الحكومة السوفياتية الملاحة "أوجيني رودنيفا" لقب بطلة الاتحاد السوفياتي تقديرًا لبطولتها والمهمات الناجحة التي نفذتها. وبذلك كانت "أوجيني" أول امرأة في القوات المسلحة تحصل على النجمة الذهبية ذات الشريط الأحمر.

وخلال شهر شباط ـ فبراير سنة ١٩٤٤، سافرت "أوجيني" إلى موسكو بإجازة لمدة أسبوعين، ثم عادت وعيناها تبرقان بوميض الفرح والسرور، وهرعت نحو غرفة قائد اللواء "أوجيني راتشكتفيتش" والتي هي برتبة رائد... وبعد أن أدت لها التحية النظامية قالت: "لقد خالفت الأوامر فأحبّيت، إنني مخطوبة".

ـ ومن هو خطيبك؟ قالت قائد اللواء.

ـ يدعى سلافيك. إنه ضابط في سلاح المدرعات، وهو أحسن رجل في العالم.

في منتصف ليلة التاسع من شهر نيسان ـ أبريل عام ١٩٤٤، صعدت "أوجيني" إلى طائرتها لتقوم بتنفيذ غارتها الـ ٦٤٦ في ضرب المطارات الألمانية قرب "بولكاناك" وهي تقول لقائدة الطائرة "بروكوفيفا" بأن الحرب ستنتهي حتمًا عندما

يصبح مجموع ما نفذته من غارات ٧٠٠ غارة. دارت الطائرات فوق الهدف فلمحت قائدة الطائرة انفجارات قذائف مدافع "الأورليكون" المضادة للطائرات، وشاهدت الأنوار الكاشفة تفتش عن طائرتها؛ ولكن صوت الملاّحة جاء واضحًا موجهًا إياها نحو مركز هذه الانفجارات. ولسوء الحظ فإن قذائف أحد المدافع الألمانية أصابت الطائرة إصابة حسّاسة فاشتعلت فيها النيران.

وصاحت الملاّحة "أوجيني": انقضاض باتجاه المراكز الألمانية.

وكان ذلك آخر جملة سمعتها فتيات اللواء اللواتي كنّ فوق نفس المكان. وانقضت الطائرة "بوليكاروف P.O.2" فوق الطائرات الألمانية الجاثمة على أرض المطار. وأثناء الانقضاض كانت "أوجيني" تودّع رفيقاتها برمي رشاشات قصيرة من مدافع الطائرة؛ ثم انفجرت الطائرة لدى اصطدامها بمجموعة الطائرات العدوّة، وظهر في مكان الانفجار لهب أحمر اندفع عاليًا نحو السماء يعلوه الدخان الأسود.

وبعد بضعة أيام استطاع الجيش السوفياتي احتلال مدينة "بولكاناك" والمطار المجاور لها. وأجريت التفتيشات اللازمة عن جثّتي الفقيدتين بين حطام الطائرة؛ وللأسف لم يعثر على شيء منها[1].

---

١ ـ المجلّة العسكريّة، تصدر عن قيادة الجيش السوري، ترجمة الرائد الطيّار ماجد حموي، العدد السابع، السنة الحادية عشرة (شباط،١٩٦١) ص٧٩ ـ ٨٢.

المُطرِبَة أسمَهان: ضحيَّة المخَابَرات البَريطَانيَّة

المطربَة العربيّة الكبيرة أسمهان، التي قضت في حادث سير مشبوه في الرابع عشر من شهر تمّوز - يوليو ١٩٤٤، وهي في ريعان شبابها وعزّ عطائها، كانت ضحيّة المخابرات البريطانيّة.

إسمها الحقيقيّ "أمال الأطرش"، بنت الأمير "فهد الأطرش" وشقيقة الموسيقار الكبير "فريد الأطرش". أصلها من "جبل الدروز" في سوريا، ولدت سنة ١٩١٩، وجاءت إلى القاهرة مع أخيها فريد ولم تبلغ الرابعة عشر عامًا، فكانت موضع عناية كبار الملحّنين في مصر، حيث لقّنها "داود حسني" أصول الغناء واختار لها إسم "أسمهان"، ثمّ أخذت الغناء عن "محمّد القصبجي" وعن "زكريّا أحمد" وغيرهما، فغدت مغنّية مطبوعة على الغناء، اشتهرت بطيب الصوت خاصّة.

في الثاني من شهر كانون الثاني ـ يناير ١٩٨٢، بثّت الإذاعة الإسرائيليّة في برنامجها "لقاء الأحد" حلقة عن المطربة أسمهان، جاء فيه أنّ المخابرات البريطانيّة هي التي قتلت أسمهان للتخلّص منها، نظرًا لما كان لأسمهان من مكانة مرموقة في عالم المخابرات، وخشية أن تبوح للألمان إذا اعتقلوها بما عرفته عنهم، تخلّصوا منها...

وأكّد معدّ البرنامج أنّ أسمهان نفسها اعترفت بتعاملها مع المخابرات البريطانيّة التي طلبت منها مفاوضة زوجها "حسن الأطرش" وزعماء سوريّين آخرين للانضمام

إلى الحلفاء ضدّ ألمانيا مقابل إعطاء سوريا استقلالها. ومن الوعد تظهر لنا مكانة أسمهان في حينه. وكدليل على تخلّص المخابرات البريطانيّة من أسمهان، قالت الإذاعة الإسرائيليّة إنّ نهاية أسمهان كانت مثل نهاية المهندس المصريّ الذي بنى لأحد ملوك الفراعنة قصرًا عظيمًا فيه سراديب سريّة خاصّة لكي يستعملها الملك عند تعرّضه لأيّ خطر، وهذه السراديب لا يعرف طريقها سوى الملك والمهندس... وبعد الانتهاء من بناء السراديب، قام الملك بقتل المهندس ودفَنه في القصر ليضمن عدم إفشاء سرّ السراديب لأحد. وهذه قاعدة عامّة تسير عليها المخابرات البريطانيّة، خاصّة وأنّ أسمهان كانت تؤمن بالقضاء والقدر، لأنّها كانت قد تعرّضت لعدّة محاولات اغتيال نجت منها، ولم تمت إلاّ في حادثة سقوط سيّارتها في نهر ماء عمقه لا يزيد على المترين...

ويروي بعض الباحثين[١] عن خمس حادثات تعرّضت لها أسمهان قبل تلك التي قضت فيها، حادثتان منها كانت من صنع رجال المخابرات. الأولى حصلت على يد المخابرات الفرنسيّة، والثانية على يد المخابرات الألمانيّة.

ففيما كانت أسمهان تنتقل من دمشق إلى بيروت وإلى القدس لصالح المخابرات البريطانيّة، وبينما كانت تقيم في حيّ الزيتونة ببيروت، رنّ جرس الهاتف في منزلها، وإذ كانت تنتظر مخابرة هامّة، أسرعة للردّ، وكان جهاز الهاتف موضوعًا بجانب النافذة، ويبدو أنّ تحرّكاتها كانت مرصودة لأنّها عندما رفعت السمّاعة وأجابت بكلمة "ألو"، أرجعت رأسها بحركة عفويّة إلى الخلف، فانطلقت بهذه اللحظة رصاصة اخترقت النافذة ومرّت من نفس المكان الذي كانت تقف عليه أسمهان التي لو لم تحرّك

---

١ ـ الجزائري سعيد، المخابرات والعالم، دار الجيل (بيروت،١٩٨٨) ٢: ١٧٠ ـ ١٧٨.

رأسها للخلف لقتلت على الفور. ولكن من الذي حاول قتلها؟ يقال إنّ المخابرات الفرنسيّة هي التي فعلت ذلك لأنّ في صدر أسمهان الكثير من أسرارها، وخير دليل على تعاملها مع المخابرات الفرنسيّة هي صورتها مع الجنرال "شارل ديغول" في إحدى حفلات الاستقبال الراقية ببيروت.

أمّا تفاصيل الحادثة الثانية فقصّتها أنّ أحد الصحافيّين الأميركيّين كان قد تعرّف إلى أسمهان في بيروت، وكان في الحقيقة يتعامل مع الألمان ودول المحور، ومكلّفًا من قبل "فون باين" سفير ألمانيا في أنقرة يومذاك، بإحضارها إلى تركيا لتتمّ تصفيتها باعتبارها محكومة بالإعدام من قبل النازيّين، وقبلت أسمهان بالسفر مع الصحافيّ الأميركيّ، وركبت القطار المتوجّه إلى تركيا، ولكنّ المخابرات البريطانيّة التي كانت أسمهان تتعامل معها أفشلت الخطّة حيث أُوقف القطار وأُنزلت منه أسمهان بالقوّة واعتقلت الصحافيّ الأميركيّ.

أمّا الحادثات الثلاث الأخرى التي تعرّضت لها أسمهان وكادت كلّ منها أن تودي بحياتها فلا علاقة لأيّ مخابرات فيها.

ففي الأولى كانت أسمهان تركب إلى جانب شقيقها الموسيقار فريد الأطرش في سيّارته، وعندما وصل إلى ميدان التوفيقيّة بالقاهرة، فوجئ بجواد جامح يعدو بسرعة جنونيّة باتّجاههما، فأغمضت أسمهان عينيها استسلامًا للقدر، ولكنّ فريد أمكنه أن ينحرف بسيّارته من وجه الجواد الذي قفز من فوق مقدّمة السيّارة فحطّم زجاجها فقط، ولم يصابا بأذى.

وفي الحادثة الثانية كانت أسمهان متوجّهة إلى الإسكندريّة عبر الطريق الصحراويّ مع شقيقها الأكبر "فؤاد الأطرش" في سيّارة الأخير، وفي الطريق انشغل فؤاد بالحديث عن مراقبة الطريق، فاقترب بسرعة من حاجز حديديّ متحرّك يغلق

مدخل ثكنة عسكريّة ممنوع الاقتراب منها، ولـولا سرعة خاطر الحارس الذي بادر برفع الحاجز على مسؤوليّته لقُطع عنقا أسمهان وفؤاد بالحاجز.

أمّا الحادثة الثالثة فمفادها أنّه عندما تزوّجت أسمهان الممثّل الطيّار "أحمد سالم"، أسكنها في فيلاّ بالهرم. وذات ليلة قرّرت أسمهان الخروج وحدها لتنشّق الهواء، فمنعها زوجها أحمد... ولكنّها أصرّت على الخروج بعنادها المعروف... عندئذ كبّلها أحمد سالم بالحبال وربطها بالسرير وشهر مسدّسه في وجهها مهدّدًا بقتلها... ساعتئذ فرّت سكرتيرتها اللبنانيّة "ماري قلادة" من الفيلاّ واتّصلت باللواء "إمام ابراهيم" من شرطة القاهرة، فحضر حالاً على رأس قوّة من رجاله لإنقاذ أسمهان. ولمّا حاول اقتحام الفيلاّ بادره أحمد سالم بإطلاق النار عليه وعلى رجاله وعلى أسمهان، فأخطأها وأصاب اللواء إمام برصاصة إصابة سطحيّة، وحاول إطلاق النار على نفسه بقصد الانتحار، فعصاه المسدّس... واقتيد للتحقيق... ونجت أسمهان بأعجوبة وكان بعد تلك الحادثة الطلاق.

ويروي الباحث نفسه عن حياة أسمهان في القاهرة قبل مصرعها فيقول إنّها اعتلت سلّم المجد بفنّها وصوتها الأصيل، وكان شقيقها فريد الأطرش يقف إلى جانبها ويشجّعها ويلحّن لها، بل وشاركها في بطولة فيلمين غنائيّين هما فيلم "انتصار الشباب" وفيلم "أحلام الشباب"، ذلك أنّ العنصر النسائيّ كان نادرًا في السينما المصريّة يومذاك. ثمّ تزوّجت المخرج "أحمد بدرخان" الذي طلّقها ليتزوّجها "أحمد سالم" ويطلّقها أيضًا، بينما كانت أصلاً زوجة الأمير "حسن الأطرش"، وله منها إبنة محترمة هي السيّدة "كاميليا الأطرش"، ولكنّها افترقت عنه بالطلاق عام ١٩٣٩.

عاشت أسمهان حياتها في القاهرة وعاشرت الأميرات والأمراء وأصبحت أميرة القصور والقلوب مع عملها في المخابرات البريطانيّة حيث وُصفت في حينه بأنّها أنجح

من أهمّ ضابط مخابرات، كما قيل عنها أنّها كانت جاسوسة مزدوجة تعبّ الأموال من المخابرات البريطانيّة باليمين، ومن المخابرات الفرنسيّة باليسار... وكانت هذه التصرّفات لا ترضي شقيقها فؤاد الذي لم يكن راضيًا عن زواجها في القاهرة... بينما كانت هي تتصرّف حسب ما تمليه عليها الظروف. فعندما تدخّل الملك فاروق شخصيًّا في فصم عرى العلاقة بينها وبين "أحمد حسنين باشا" رئيس الديوان الملكيّ وحاول إقامة علاقة معها، رفضته، فأوعز إلى وزير الداخليّة لطردها من مصر. والمقول إنّ عائلتها في جبل العرب بسوريا كانت تتمنّى بل وتخطّط لأجل أن تقوم الحكومة المصريّة بطردها لأنّ أسمهان قد خرجت عن تقاليدهم في عملها بالفنّ الذي كان غير مرغوب فيه يومها، ولأنّها تزوّجت من غير أهلها...

علمت أسمهان بنيّة الملك من خلال ما كان لها من معجبين في الحاشية الملكيّة، وكانت في تلك الأثناء تمثّل في فيلم "انتصار الشباب" مع شقيقها فريد، وكان الفيلم من إخراج "أحمد بدرخان"، الذي عندما روت له أسمهان عن إيعاز الملك فاروق لأولياء الشأن بطردها من مصر، وخشية منه على مصير الفيلم، ولوجود حبّ دفين في صدره لأسمهان، ولكونه إنسان متعقّل، فقد عرض على أسمهان الزواج ليخلّصها من هذا المأزق ويطمئنّ بنفس الوقت على فيلمه وممثّلته الأولى، فوافقت أسمهان بلا تردّد، حتّى أنّها لم تتشاور مع شقيقها فريد الذي يعمل معهما بالفيلم نفسه، وبعد إجراء الزواج لدى المأذون الشرعيّ، دُعي فريد من قبلهما إلى عشاء فاخر في أحد مطاعم "غاردن سيتي"، ووُضع تحت الأمر الواقع، فقبل بذلك الزواج حماية لمصالحه أيضًا.

شاع زواج بدرخان وأسمهان ووصل الخبر إلى الملك فاروق الذي صُدم لأنّ ذلك الزواج يمنح أسمهان قانونيّا الجنسيّة المصريّة، وبذلك لن يستطيع اتّخاذ أيّ إجراء ضدّها. وبذلك أتمّ المخرج بدرخان فيلم "انتصار الشباب"، ووراءه فيلم "أحلام الشباب"،

ولكنّ حياته الزوجيّة لم تستمرّ مع أسمهان أكثر من أشهر، إذ كان كلّ منهما صاحب طبع مختلف عن الآخر تمامًا... فتطلّقا، وعادت أسمهان إلى حياة السهر مع المجتمعات الراقية والمخابرات، وسافرت في مهمّة إلى القدس، ونزلت في فندق "الملك داود"، وكان معها مرافقها السرجنت "ميخائيل طحّان" الذي انتدبته المخابرات البريطانيّة لمرافقتها وحراستها. وفي الفندق، تشاء الصدف أن يكون الممثّل "أحمد سالم" موجودًا، وكان من نتائج لقائهما الزواج، وكانت نهايته إطلاق النار عليها ومحاولة قتلها جرّاء غيرته عليها.

كان شقيق أسمهان الأكبر فؤاد يُعتبر حارسًا على شجرة العائلة، وكان يتسقّط أخبار شقيقته سواء بسفره إلى القاهرة أو ممّا تنشره الصحف عنها... فتوجّه إلى نسيبه "عبد الغفّار الأطرش" وزير الدفاع السوريّ في حينه وقال له: "جئت أشتكي لك يا عمّ عن أسمهان... لقد عذّبتنا كثيرًا بعد طلاقها من الأمير حسن الأطرش وبقائها ثلاث سنوات في القاهرة، تزوّجت في خلالها مرّتين، عدا عن تورّطها في مشاكل جلبت العار لتقاليدنا"...

أجابه "العم" جادًّا: وماذا تريد منّي؟ فقال فؤاد: "أرجو إعطائي رسالة من لدنكم إلى المسؤولين في مصر للعمل على تسفير أسمهان منها لنعيدها إلى الجبل".

وأعطاه "العمّ" رسالة حسب طلبه فعاد فؤاد مسرعًا إلى السويداء وطلب من زوجها الأمير حسن الأطرش أن يتوسّط له مع سلطان باشا الأطرش، وهو من زعماء الثورة السوريّة المعروفين ضدّ الفرنسيّين، فحصل له على الرسالة المطلوبة منه، وهنا عاد فؤاد إلى دمشق وطلب مقابلة رئيس الجمهوريّة في حينه الشيخ "تاج الدين الحسيني"، وانتظر يومين حتّى تمكّن من الحصول على موعد لمقابلة رئيس الجمهوريّة بتاريخ السبت ١٥ تموز - يوليو ١٩٤٤، فعاد إلى السويداء فرحًا حيث وجد "كاميليا"

ابنة أسمهان تستعدّ للاحتفال بعيد ميلادها في ١٤ تمّوز ـ يوليو، وكان يوم جمعة، وكانت كاميليا مسرورة وقد حضر والدها الأمير حسن الأطرش ليشاركها عيد ميلادها ليدخل الفرح إلى قلبها، أمّا خالها فؤاد الذي كان يعدّ العدّة لإرجاع أسمهان بالقوّة من مصر، حتّى ولو اضطرّه الأمر لقتلها بنفسه إذا رفضت العودة معه، فقد سأل كاميليا بقوله: "كاميليا. هل تبكين إذا ماتت أمّك؟"... أجابته كاميليا وقد صعقها السؤال: "طبعًا أبكي!". فاستطرد في خياله القاتل وهو يتصوّر بيده سكّينًا يغمدها في صدر أسمهان قائلاً لكاميليا: "هل تحدّين عليها؟"... فقالت كاميليا: "أجل يا خالي... أوليست أمّي؟"...

كان والد كاميليا الأمير حسن الأطرش يستمع إلى هذا الحوار، فشقّ عليه أن يُقال لابنته ما يبكيها في عيد ميلادها، فقال لفؤاد معاتبًا: "هل يوجد في الدنيا خال يستقبل عيد ميلاد بنت أخته بهذه الطريقة؟". فصحى فؤاد وأدرك أنّه تمادى فاعتذر ولاذ بالصمت..

تناول الجميع الطعام وشبح الموت الذي أوحى به فؤاد يحلّق فوقهم، وفي الصدر بوادر حزن خفيّ، وفي الأعين صمت يشي بالتوجّس من طرق أيّ باب للحديث حتّى لا تهبّ عليهم ريح الشؤم مرّة ثانية... وقطع الصمت الأمير حسن الأطرش قائلاً لفؤاد:

"هل تريد السفر إلى القاهرة بعد حصولك على رسالة رئيس الجمهوريّة؟"... فأجابه فؤاد: "وهل في ذلك شك؟"..

في المساء، لبست كاميليا ثوبًا كانت أمّها أسمهان قد اشترته لها من تلّ أبيب، وامتلأ المنزل بصديقات وجيران كاميليا، وأُحضرت الشموع، وبدأ الغناء والرقص، وأطفأت كاميليا شموع عيد ميلادها بين زغاريد الحاضرين وتصفيقهم... وبدأوا بتقطيع كعكة الحلوى الكبيرة والتهامها... وفجأة رنّ جرس الهاتف فأمسك فؤاد بالسمّاعة

فسمع متحدثًا يقول له: "من يتكلّم؟ فؤاد أم حسن؟". أجابه: أنا فؤاد. عندها قال له المتحدّث، وكان "هايل الأطرش" مدير الأمن العام في السويداء:

"العوض بسلامتك... والبقيّة في حياتك".

عند ذلك سقطت سمّاعة الهاتف من يد فؤاد وامتقع وجهه... فاستعاد السمّاعة وقد سكت الجميع، ووقفوا مذهولين بانتظار معرفة نوع المخابرة... فتابع هايل الأطرش قائلاً:

"أسمهان ماتت يا فؤاد".

فاستجمع فؤاد شجاعته وقال لمحدّثه: هذه دعاية سخيفة لفيلمها الذي تمثّل فيه مع "يوسف وهبي"، إذ كان من واقع القصّة أن تموت البطلة، ولا بدّ أنّ استوديو مصر أراد أن يجذب المشاهدين إلى الفيلم بهذه الدعاية...

أجابه هايل الأطرش: كلامك غلط... وأنا سمعت الخبر من إذاعة لندن بأنّ أسمهان ماتت في حادث غرق سيّارتها في ترعة عند بلدة "طلخا" الكائنة على طريق متفرّع من "دمياط" مقابل "المنصورة"، وقد ماتت معها سكرتيرتها "ماري قلادة"، ولكن السائق نجا من الموت بعد أن قفز من السيّارة وهي تهوي إلى الترعة...

لم يستطع فؤاد أن يبقى واقفًا، فارتمى على أقرب كرسيّ وأخذ الأمير حسن سمّاعة الهاتف وتحدّث إلى هايل الأطرش بضع كلمات، ثمّ وضع السمّاعة على جهاز الهاتف وصرف البنات بأدب حتّى لا ينقلب عيد الميلاد إلى مناحة، واحتوى ابنته كاميليا التي عرفت الخبر من حديث خالها... فأخذت تصرخ... وأخذ والدها يبكي... ويخفّف من صراخها... وفؤاد في غيبوبة من الخبر المفجع.

كانت أسمهان تمثّل فعلاً فيلم "غرام وانتقام" مع عميد المسرح العربيّ "يوسف وهبي"، وكان فؤاد، قبيل ذلك التاريخ، في القاهرة، يحاول إقناعها بالتخلّي عن أمجادها والعودة إلى جبل العرب، ولكنّه فشل... فسافر إلى سوريا بدون أن يودّعها أو يودّع شقيقه فريد الذي كان منهمكًا في تلحين أغنية "ليالي الأنس في فيينّا" لأسمهان لتنشدها في الفيلم، هذه الأغنية التي خلّدت أسمهان... وقد حزنت أسمهان لسفر شقيقها فؤاد على هذا الشكل، وقد أيقنت أنّه عاد إلى الجبل ليحرّك عليها مشاعر العشيرة، فغضبت غضبًا شديدًا. وفي تلك الحقبة نفسها، حصلت حادثة إطلاق أحمد سالم النار عليها، وكان التحقيق معها يزيد من الضغوط عليها... فأخذت تعاني من انحراف في المزاج، وشعرت بوعكة صحيّة ألزمتها الفراش... وكانت إلى جانبها صديقتها وسكرتيرتها اللبنانيّة ماري قلادة التي كانت تهوّن عليها الأمور بأن تبقى إلى جانبها لإفساد جميع خطط شقيقها فؤاد، وقرّرت أسمهان أن تخرج إلى الشاطئ الهادئ قرب الأمواج لتريح أعصابها وتعود قويّة لتتمّ فيلم "غرام وانتقام"، واستأذنت يوسف وهبي بطل ومخرج الفيلم، بمنحها يومين للراحة في "رأس البرّ"، فوافق وهبي بعد أن لاحظ أنّها بحاجة ماسّة لمثل هذه الإجازة، وقرّرت إدارة استوديو مصر وضع السيّارة الخاصّة التي كانت تحضر أسمهان إلى الاستوديو تحت تصرّفها، خاصّة وأنّ أسمهان كانت تثق بالسائق كلّ الثقة، وهي لا تدري بأنّه سيصبح قاتلها.

صعدت أسمهان إلى سيّارة استوديو مصر في الساعة الثامنة من صباح يوم الجمعة الوقع فيه الرابع عشر من شهر تمّوز ـ يوليو ١٩٤٤، وجلست على المقعد الخلفيّ مع صديقتها ماري قلادة، وطلبت من السائق أن يملأ خزّان الوقود وأن يتّجه إلى "رأس البرّ"، فنفّذ أوامرها وتوجّه بهما حسب الطلب... وما أن وصلت السيّارة إلى المنطقة الكائنة بين "طلخا" و"المنصورة"، وحسب روايات الناس العيان، حتّى اعترضها

هبوط ثمّ ارتفاع، جعل السائق يفقد السيطرة على السيّارة التي اتّجهت بسرعة جنونيّة ساقطة إلى يمين الطريق حيث "الترعة" المشؤومة، وهي عبارة عن نهر ماء عمقه حوالى المترين، وهنا فتح السائق الباب وألقى بنفسه إلى خارج السيّارة على الرمل فتدحرج قليلاً ولم يُصَب بأذى، بينما سقطت السيّارة بأسمهان وماري قلادة في الترعة وغاصت في المياه حتى غمرتها تمامًا حيث اختفت أسمهان وماري بدون أن يحاول أحد إنقاذهما... وكأنّ السائق كان مدرّبًا تدريبًا على إنهاء حياة أسمهان بهذا الشكل المفجع...

أشارت أصابع الاتّهام يومها إلى أكثر من جهة بقتل أسمهان... إلى أخيها فؤاد للأسباب التي ذكرنا آنفًا؛ إلى الملك فاروق لأنّها كانت تعرف الكثير من أسرار والدته عندما كانت في فندق الملك داود في فلسطين ليطوي بموتها فضائح والدته؛ إلى أمّ كلثوم التي أشيع أنّها كلّفت السائق بالتخلّص من أسمهان لأنّها أضحت تزاحمها على عرش الغناء بعد أن غنّت قصيدة "هل تيم البان" المسجّلة في القسم العربيّ من إذاعة لندن، وقد نجحت هذه القصيدة نجاحًا باهرًا... ولكن من يعرف أمّ كلثوم على حقيقتها الطيّبة السمحة يتأكّد من أنّها لا تقدم على مثل هذه الأمور؛ إلى زوجها السابق أحمد سالم الذي كانت له اليد العليا في استوديو مصر، لا سيّما وأنّه كان من الأغنياء وبوسعه شراء السائق ببضع مئات من الجنيهات، والسبب الرئيسيّ في اتّهامه بتدبير قتل أسمهان هو غيرته عليها أولاً لأنّه كان يحبّها، ولولا محبّته لها لما أوثقها بالحبال ومنعها من الخروج وحدها وحاول قتلها والانتحار؛ وأخيرًا المخابرات البريطانيّة لأنّها كانت تتعامل معها وتحمل رتبة ضابط فخريّ بريطانيّ، وقد نفّذت لتلك المخابرات عددًا من الطلبات، وأدركت الكثير من أسرارها وعمليّاتها السريّة في دمشق وبيروت والقدس، وعندما طرق الألمان بقيادة "رومل" أبواب "العلَمين" وبات احتلالهم مصر

وشيكًا، قرّرت المخابرات البريطانيّة التخلّص من أسمهان خشية زلّة اللسان، فاشترت سائقها ليتخلّص منها بالشكل الذي حصل...

غير أنّ التهمة الأخيرة بدت وكأنّها الصائبة... ذلك أنّ تدريب السائق كان يلزمه خبراء في مثل هذه الأعمال، ولأنّ المخابرات البريطانيّة كانت الأكثر استفادة من إسكات أسمهان إلى الأبد.

إمتنع شقيق أسمهان المخلص الموسيقار فريد الأطرش عن التحدّث في هذا الموضوع وانصرف إلى ذرف الدموع على شقيقته ورفيقة دربه. واستمرّ وفاؤه لها حبًّا وتكريمًا حتّى آخر لحظة من حياته حيث أوصى بأن يُدفن إلى جانبها عوضًا عن دفنه في مقابر العائلة في جبل العرب، وهذا أعظم الوفاء وردّ الاعتبار لأسمهان حتّى ولو بعد وفاتها.

أمّا سائق أسمهان الذي قفز من السيّارة وتركها تهوي بها لتلقى مصرعها، فلم يعد أحد يأتي على ذكره، وبقي مصيره مجهولا.

شُولا كوهين

تُعتَبر العميلة الإسرائيليّة "شولا كوهين" أخطر جاسوسة إسرائيليّة عرفها الشرق الأوسط.

وُلدت شولا كوهين سنة ١٩٢٠ في مدينة بوينـاس أيرس عاصمة الأرجنتين، وكان والدها تاجرًا يهوديًّا من زعماء طائفته، وكان يزور فلسطين مصطحبًا معه عائلته.

عرّف هذا اليهوديّ ابنته على تاجر يهوديّ لبنانيّ يدعى "يوسف كشك"، يزيدها عمرًا، وزوّجها إيّاه، فانتقلت بعد ذلك لتسكن في بيروت مع زوجها، في بيت للكنيس اليهوديّ في الحيّ اليهوديّ المعروف بـ"وادي أبو جميل"، وهناك تعرّفت إلى رجال حركة "مكابي" اليهوديّة، وإلى النادي اليهوديّ الذي نشطت من خلاله في العمل لمصلحة الصهيونيّة وإسرائيل، حيث استمرّ نشاطها من سنة ١٩٤٧ حتّى تاريخ اعتقالها في سنة ١٩٦١.

كانت شولا كوهين تتمتّع بمزايا كثيرة. كما أصبح منزلها ملتقى للعملاء الناشطين في خدمة الصهاينة. وقد أُطلقت عايها ألقاب عديدة، منها: "الزعيمة"، و"سفيرة إسرائيل في لبنان"... وكانت تُغرق زبائنها وعملاءها بالنساء والفتيّات اليهوديّات اللواتي كنّ على جانب كبير من الجمال والأناقة ليسهل اصطياد الضحايا والإيقاع بهم، وكان من أشهر بغاياها، بالإضافة إلى اللواتي كنّ يعملن في النادي الليليّ الذي تملكه،

"فورتونيه"، و"راشيل"، و"مارسيل"، و"إسبيرانس"، و"روزيت"... اللواتي كنّ الطعم لاستدراج "الزبائن"...

كانت "شباك الجنس"، بالإضافة إلى المال، من أقوى أسلحة اليهود في اصطياد ضحاياهم. وقد برعت شولا كوهين في استعمال تلك الشباك أكثر من سواها، وقد كان دورها من أخطر الأدوار، وكان من مهمّاتها، بالإضافة إلى التجسّس وتهريب اليهود والأموال إلى فلسطين، خلق جوّ سياسيّ وشعبيّ في بيروت يمهّد للصلح مع إسرائيل. والمقول إنّ العملاء الذين قبلوا العمل لصالح إسرائيل ومخابراتها على يد شولا كوهين وعاملاتها، مقابل أيّ نوع من الإغراء المادّي أو الجنسيّ أو غيرهما، كانوا يمارسون "الزنى" بمختلف وجوهه...

كانت شولا كوهين من ألمع الأسماء النسائيّة اليهوديّة التي برعت في فنّ ترحيل اليهود إلى فلسطين، وقد نجحت في مهمّتها هذه، ليس في لبنان فحسب، بل وفي معظم البلدان العربيّة التي تسلّمت فيها من الموساد مسؤوليّة شبكة تهريب اليهود والأموال إلى فلسطين.

وُضعت شولا كوهين تحت مراقبة رجال الأمن العام اللبنانيّ مدّة من الزمن، إلى أن تمّ اعتقالها مع باقي أفراد الشبكة في منزلها بتاريخ ١٢ آب ـ أغسطس ١٩٦١. وأثناء محاكمتها، اعترفت بنشاطها التجسّسيّ من خلال تاجر يهوديّ فرنسيّ يقيم في لبنان إسمه "جورج مولخو". وقد صدر الحكم بسجنها عشرين عامًا.

هزّ اعتقال شولا كوهين أجهزة الموساد عندما علمت بما حصل لرئيسة وأعضاء شبكة التجسّس، باعتبار أنّ شولا كوهين كانت أهمّ وأخطر عميلة لإسرائيل في الشرق الأوسط. وقد اضطرّ "موشي دايان" حينذاك أن يظهر على شاشة التلفزة الإسرائيليّة مهدّدًا ومتوعّدًا بالثأر والانتقام قائلاً بأنّه "سيكون عقاب المخابرات اللبنانيّة عسيرًا

وقاسيًا". بينما استهزأ قادة المخابرات اللبنانيّة يومها بهذا التهديد الإسرائيليّ، وكان الكولونيل أنطوان سعد رئيسًا للمخابرات، يساعده بعض الضبّاط من أمثال سامي الخطيسب وغابي لحّود وسواهما...

ونظرًا للمكانة التي كانت تحتلّها شولا كوهين لدى جهاز الموساد، فقد تحيّن هذا الجهاز الفرصة إلى أن وجدها أثناء قيام دوريّة من الجيش اللبنانيّ بمهمّة تفتيش على الحدود بين لبنان وفلسطين المحتلّة، وكانت الدوريّة تتألّف من ثلاثة ضبّاط، عمدت القوّات الإسرائيليّة إلى خطفهم، وراحت الحكومة الإسرائيليّة تفاوض عليهم، حيث جرى في ما بعد، مبادلتهم بشولا كوهين، التي استقرّت في إسرائيل، وتابعت عملها في الموساد. وفيما يذكر باحثون أنّ شولا كوهين قد لعبت دورًا خطيرًا أثناء الاجتياح الإسرائيليّ للبنان في العام ١٩٨٢، تذكر مراجع أخرى أنّ شولا كوهين تعيش في إسرائيل يائسة بعد أن تنكّر لها الإسرائيليّون وشتّتوا عائلتها في طول البلاد وعرضها بدلاً من لمّ شملها، ما دفعها إلى القول: "ليتهم أعدموني في لبنان ولم أعد إلى إسرائيل، فكانوا حوّلوني إلى قدّيسة بعد موتي"[١]...

---

١ ـ خوري حاتم، شولا كوهين أخطر جاسوسة إسرائيليّة عرفها الشرق الأوسط، دار اليقظة للنشر (بيروت، ١٩٩٣٦)؛ حسن ديب علي، المرأة الصهيونيّة، المكتبة الثقافيّة (بيروت،١٩٩٥) ص١٨٦ ـ ١٩٣؛ Aviezer Golam & Pinkes Danny, *The Pearl - Shula Code Name*, Delacorte Press (New York,1 089(؛ زهر الدين د. صالح، الموساد بين الإخفاق والاختراق، في موسوعة الأمن والاستخبارات في العالم، المركز الثقافي اللبناني (بيروت،٢٠٠٣) ص٧٤ ـ ٧٨.

رَاشيل رَافُول

"رَاشيل رَافُول"، كانت إحدى عميلات الاستخبارات الإسرائيليّة في لبنان، وهي فتاة من اليهود الذين كانوا يقيمون في لبنان، كلّفتها الاستخبارات الإسرائيليّة "الموساد" بمتابعة مهمّة شولا كوهين التي ألقت أجهزة الأمن اللبنانيّة القبض عليها. واستطاعت راشيل رافول بالتعاون مع "إدوار هيسي"، مندوب الوكالة اليهوديّة في بيروت، العمل تحت ستار ملهى ليليّ.

تمكّنت رافول، أثناء تنفيذها لمهامّها في لبنان، من تحقيق عدّة عمليّات لتهريب أموال اليهود المهاجرين، منها تهريب أموال "إميل بتشوش" الذي أعلن إفلاسه التجاريّ، وتبيّن أنّه مدين إلى عدد من المصارف والتجّار بمبلغ ثلاثة ملايين ليرة لبنانيّة، كما أشرفت على تهريب ابراهيم مزراحي، التاجر اليهوديّ في طرابلس، حيث استطاعت تجنيد زوجته ليلى مزراحي للعمل معها في الشبكة ودفعتها لاستدانة مبلغ مليونيّ ليرة لبنانيّة من مصارف وتجّار طرابلس، والهروب بها إلى اليونان، ومنها إلى إسرائيل. وقد كشفت السلطات اللبنانيّة هذه الشبكة بعد مدّة. وأُلقي القبض على راشيل رفول في حالة تلبّس بنقل معلومات عسكريّة لصالح العدوّ[1].

---

١ ـ زهر الدين د. صالح، موسوعة الأمن والاستخبارات في العالم، المركز الثقافي اللبناني (بيروت،٢٠٠٣) ١١: ١٥ ـ ١٦، عن: عمّار نزار، الاستخبارات الإسرائيليّة، ص٤٢؛ أبو النصر عمر، إيلي كوهين، ص٤٥ ـ ٤٦.

جُودي كوبلن: دفعَها الطَّيشُ إلى التجسُّس

"جودي كوبلن"، أميركيّة من مواليد سنة ١٩٢١، كانت في خلال أحداث هذه القصّة الشيّقة معها وانتسابها للجاسوسيّة وعمل المخابرات فتاة جميلة جذّابة ذات شعر أشقر، تحبّ وتعشق الفنون والموسيقى ولكنّها لم تُخلق لكي تكون جاسوسة، وذلك على الرغم من أنّها جلبت إنتباه الآخرين إليها طويلاً، كما أنّها لم تكن من طراز أولئك الجواسيس الذين يمكن أن يكون أحدهم مقيتًا أو مكروهًا. وبما أنّ الأجيال الماضية والمقبلة لن تتذكّر الجاسوسة "ماتا هاري"، كما أنّها لن تشعر بالكراهية تجاه "دليلة" التي "خانت" "شمشون"، فماذا سيكون حكم التاريخ على بطلة قصّتنا الحقيقيّة هذه، "جودي كوبلن"، التي انغمست في الجاسوسيّة من أجل الحب؟

كانت جودي تتمتّع بإمكانيّة التعرّف إلى رجلين في وقت واحد، وقد وقع محاميها تحت تأثير سحرها وفتنتها وأصبح في أعماقه يشفق عليها. لقد كان شغفها الجنسيّ وافتقارها إلى التجربة، وغباؤها، وطيشها، من العوامل التي دفعت بها إلى ميدان التجسّس.

قبل يومين من عيد ميلاد عام ١٩٤٨، انفجرت قنبلة في قلب مبنى المباحث السياسيّة في واشنطن، ثمّ تبعها استلام هذه المباحث تقريرًا يتضمّن إعلامًا عن وقوع وثائق للمباحث السياسيّة لها طابع السريّة للغاية، ووثائق هامّة من وزارة العدل في يدَي السفير السوفياتي في حينه لدى واشنطن. فكُلّفت المخابرات الأميركيّة بإجراء

التحقيق، وكانت تلك المخابرات حديثة العهد... فاستدعى "إدغار هوفر" رئيس المخابرات في حينه، معاونيه الرئيسيّين إلى اجتماع فوق العادة. وفي هذا الاجتماع تمّ رسم الخطوط اللازمة للبدء في البحث عن أخطر مأساة في تاريخ الجاسوسيّة...

كان مصدر التقرير أحد عملاء المخابرات الأميركيّة الذي أمكن إدخاله إلى قلب شبكات التجسّس الروسيّة في الولايات المتّحدة الأميركيّة، وقد تمّ الإبقاء على اسمه سريًّا، بصورة مستمرّة. ولم تكن مهمّة هذا الرجل سوى تقديم المعلومات المختصرة وغير الكاملة... كان كلّ ما علمه أنّ هناك نوعين من التقارير تمّ وقوعها في يدي المخابرات الروسيّة: ١) معلومات سريّة عن نشاط الشيوعيّين الأميركيّين؛ ٢) ملاحظات تمّ تسجيلها عن عملاء ودبلوماسيّين يعملون بالخارج.

كان ذلك العميل يعتقد أنّ تلك التقارير تمّ نقلها بواسطة امرأة كانت تعمل في ما مضى في وزارة العدل في نيو يورك، وكانت في حينه قد أصبحت في مكتب إحصاء ومراقبة الأجانب في الوزارة نفسها، ولكن في مركز واشنطن.

في أحد أيّام الشتاء، بدأت تحريّات رجال المخابرات بعمق ودقّة للبحث عن النشاط الماضي والحاضر لكلّ امرأة عملت في وزارة العدل، إلى أن أمكن حصر البحث مع ثلاثة من النسوة ممّن كنّ يعملن في نسخ الوثائق السريّة وتصنيفها. وكان من بينهنّ واحدة عملت في فرع نيويورك فعلاً، وكانت هذه تتميّز بتحليلها الرائع للأحداث الراهنة، إسمها جودي كوبلن. وقد عُرف عنها بعد التحقيق أنّها فتاة جميلة، قصيرة القامة إلى حدّ ما، ذات شعر أشقر، تحبّ الفنون إلى درجة العبادة، وتعشق الموسيقى. وكانت المتاحف الرائعة للفنّ الحديث في نيو يورك من الأمكنة المفضّلة التي كانت تتردّد إليها كثيرًا، كما كانت تتنقل إلى واشنطن لزيارة متحف الفنّ الوطنيّ فيها، وكانت لما تتمتّع به من خيال خصب ومتوثّب تستطيع الإمساك بدون أيّ صعوبة

بأطراف المشاكل المتعلّقة بالأعمال الغربيّة والأجنبيّة. أمّا في تلك الحقبة التي كانت تُتمّ فيها دراستها في الجامعة، وهي جامعة "برنارد" في نيو يورك، فكثيرًا ما كانت تعمل على تحرير افتتاحيّة صحيفة الطلبة، وكانت مقالاتها تحمل طابع الآراء الراديكاليّة. ولمّا كان طابع الشباب هو المبالغة في وصف الأشياء، لذا لم يكن أحد ليعتقد بأنّ ما تكتبه تلك الفتاة وتقوله هو ما يمكن حمله على محمل الجدّ.

لقد كانت في بدايتها مثاليّة، ولديها استعداد دائم لنجدة الآخرين ومساعدتهم، ذلك أنّها كانت ترغب في أن تكون محبّبة إلى قلوب الآخرين، كما كانت تريد في الوقت نفسه إدراك النجاح. وكانت جودي تعمل بصدق وإخلاص في حياتها ودراستها حتّى واتتها الفرصة ووظّفت في المكتب "٢٢٢٠" في وزارة العدل الأميركيّة وفي القسم الداخليّ والخارجيّ للأمن.

يتكوّن المكتب من غرفة فسيحة ومريحة تتقاسمها جودي مع وكيل الدعاوى لمؤسّسة الحكومة واسمه "فاتان لانفان"، وكانا على وفاق تامّ. وكانت الرفوف حول الغرفة مليئة بالإضبارات والمصنّفات التي تتضمّن معظم المواضيع القديمة والحديثة. أمّا وسط الغرفة، فكان يشغله مكتب تتراكم فوقه التقارير والإضبارات المهيّأة للتنفيذ أو التصنيف.

إرتفع راتب جودي إلى أربعة آلاف دولار سنويًّا، كما استلمت في تلك السنة رسالة شخصيّة من الجنرال توم كلارك يهنّئها فيها لكفاءتها في تحليل الأحداث ويشجّعها على متابعة عملها الرائع... والجنرال نفسه الذي شجّعها، أصبح بعد مدّة رئيسًا للمحكمة العليا التي حاكمت جودي في ما بعد مرّتين، وأصدر حكمه عليها في المرّتين بتهمة سرقة وثائق الدولة والتآمر ضدّ حكومة الولايات المتّحدة الأميركيّة. فكيق تمّت المحاكمة وماذا ارتكبت جودي من الجرائم؟ وكيف؟... لعلّ الإجاتبة على

هذا السؤال تتطلّب استشارة طبيب نفسانيّ أكثر من استشارة أخصّائيّ في علم الجرائم الجاسوسيّة. ولعلّ جودي كوبلن نفسها لم تكن راغبة في إلحاق الأذى بوطنها، ولكنّ الحبّ أعماها فأوقعتها قلّة خبرتها في شبكة جاسوسيّة سوفياتيّة يديرها رجل ذكيّ إسمه "لفرانتي بيريا"، الذي كان يشغل رئاسة المخابرات السوفياتيّة...

نتيجة حصر الشبهة في جودي كوبلن، تمّ تكليف موظّف خاصّ من رجال المخابرات للقيام بالتحريّات اللازمة عنها، وكان ذلك الموظّف رجلاً ذكيًّا وخبيرًا في عمله، إسمه "فيكينيت دولامبين"، وقد بدأ مهمّته بتنظيم مراقبة دقيقة لها، ذلك أنّه لم يكن لدى المخابرات حتّى ذلك التاريخ سوى شكوك واتّهامات تفتقر إلى الأدلّة والوقائع. كانت الخطوط الأولى للتحقيق هي اكتشاف المنازل المتتابعة التي أقامت فيها جودي، ولم يكن ذلك بالأمر الصعب.

تمّ تحديد الشقّة التي كانت تقطنها في مبنى صغير في منطقة "تونلور" من واشنطن. ولقد صرّح صاحب المنزل وأهل الجوار وكلّ من عرفها من صورها التي عرضها رجل المخابرات بأنّها متعلّمة ذات أخلاق عالية، وبأنّها كانت تقرأ كثيرًا، وطالما سمعوها تعمل بالضرب على الآلة الكاتبة باستمرار حتّى في أيّام الآحاد. وكانت عوضًا من أن تعود إلى منزلها وبرفقتها رجل، تقضي معه وقتها، تعود إلى منزلها دائمًا وذراعها مثقلة بأحمال الصحف والمجلاّت. ثمّ تركت تلك الشقّة لتشغل غرفة مفروشة في "جيفرسن هول" الكائن في "ماكلين غادردن" في حيّ يقع على مقربة من مقرّ عملها. وابتداء من معرفة المخابرات لأماكن سكنها، ولعدّة أسابيع، أصبحت جودي تحت الرقابة وملاحقة رجال المخابرات في كلّ خطوة تخطوها، وعلى الرغم من أنّ المراقبة كانت سريّة وبشكل خفيّ، إلاّ أنّها كانت قويّة وفعّالة بشكل لم تشعر معه جودي بأنّها تحت مراقبة المخابرات.

مضى الشهر الأول على مراقبة جودي بنتيجة مخيّبة للظنون... فقد كانت الفتاة من عائلة عريقة، وكان والدها "صموئيل كوبلن" صاحب مصنع لأدوات المطبخ، عُرف عنه شعوره الإنسانيّ ومساعدته للبؤساء والمعوزين، كما كانت زوجته، والدة جودي، من طراز ربّات البيوت السيّدات الهادئات، والشيء الوحيد الذي أمكن لرجال المخابرات اكتشافه هو أنّها كانت على علاقة ببعض الرجال، بعكس ما كان يعتقد أهل الجوار... ولكنّها كانت تتردّد هي إلى منازل هؤلاء وتقيم معهم علاقات جنسيّة بحيث لم تصطحب أيّ إنسان إلى مكان سكنها.

في أحد أيّام المراقبة، شاهد رجال المخابرات جودي وهي تخرج من مسكنها لتركب إلى جانب شابّ يقود سيّارة من نوع "فورد" تحمل الرقم "٣٤٨٢ ـ ٧". وقد انطلق السائق بالسيّارة إلى "فندق الجنوب" في مدينة "بلتيمور" حيث حجز الغرفة رقم ٤١٢ باسم السيّد والسيّدة "هـ.ب. شبيرو"، وقد استعملا العنوان ١٢٢ ـ شارع "بيير نايد" من "هارت فورد". وفي الوقت نفسه، احتلّ الموظّف المختصّ بملاحقتها فيكينيت وزملاؤه الغرفة ٤١٣ المجاورة ومعهم ميكروفونات لاقطة للصوت إلى أجهزة تصوير بأشعّة إكس قادرة على التقاط الصور من خلف الجدران...

في تلك الليلة، لم يدر بين الرجل وجودي أيّ حديث له علاقة بالسياسة أو الجاسوسيّة، بل تبيّن أنّهما كانا يقضيان تلك الساعات الطوال في تبادل العواطف الحارّة وتبادل الحبّ المثير. وفي اليوم التالي اكتشف فيكينيت وزملاؤه بأنّ السيّد شبيرو هو من المحامين اللامعين ومن محامي قضايا الدولة، ويعمل في نفس الجناح الذي تعمل فيه جودي. ولم يغادر الثنائي العاشق الغرفة رقم ٤١٢ إلاّ بعد ظهر اليوم التالي، وكان يوم أحد، حيث انتقلا بالسيّارة إلى مدينة فيلادلفيا، وكانت قافلة المخابرات في أثرهما... إلى أن توقّفا أمام فندق "سترافورد بيلفيو"، وهو من الفنادق المشهورة في

فيلاديلفيا. وفي هذا الفندق أعطيا نفس الإسمين اللذين أعطيا في الفندق السابق وكذلك العنوان... وأُعطيا الغرفة ١٥٢٣، كما احتلّ رجال المخابرات أيضًا، وللمرّة الثانية، الغرفة المجاورة. وكان كلّ ما جرى تلك الليلة هو تكرار لما حدث في الليلة السابقة، وقد ظنّ زملاء فيكينيت أنّه أتى بهم لمراقبة ومطاردة اثنين متّهمين بالجاسوسيّة، فإذا بهم لم يشاهدوا نتيجة المراقبة إلاّ زوجًا من العاشقين، وأنّ هذه المهمّة قد أفسدت عليهم عطلة نهاية الأسبوع...

شعر فيكينيت ورؤساؤه بالحرج والضيق نتيجة هذه المراقبة، فلقد كان السيّد صموئيل كوبلن، والد جودي، رجلاً شريفًا للغاية، كما أنّ السيّد شبيرو، من المحامين الأفذاذ المعروفين في قصر العدل بمتابعة قضايا الدولة، ولم يكن في ماضي جودي أيّ مجال للشبهة، فهل كانت المعلومات التي وصلتهم من المعلومات الكاذبة؟... وهل كان الاتّهام مجرّد ظنّ بفتاة بريئة، وقع لها ما يقع لكثير من سواها في ميدان الحرب الباردة؟... ولكن كان القرار من رئيس فرع المخابرات المهتمّ بالقضيّة، هو متابعة المراقبة، لأنّه من الممكن أن تكون علاقات جودي الجنسيّة هذه تغطية لعملها الجاسوسيّ. وفعلاً، كان رئيس فرع المخابرات على حقّ في قراره متابعة المراقبة، لأنّ جودي تصرّفت في الأسبوع الذي عقب مشاهدتها مع المحامي شبيرو تصرّفًا غير طبيعيّ عندما تقدّمت من رئيسها، الذي كان على اطّلاع بتحريّات المخابرات عنها باعتبارها موظّفة تعمل في دائرته، وقالت له: "كنت قد وعدتني بتسليمي تقريرًا سريًّا للغاية عن العملاء السوفيات في أميركا، فهل باستطاعتي أن أرى هذا التقرير؟.. لأنّني بحاجة له في عملي". أجابها رئيسها، وهو "ويليام فولي"، بعد برهة من التفكير، بأنّه لم يتمكّن لعدم وجود الوقت لديه من الاطّلاع على ذلك التقرير ودراسته. وكان الهدف من إجابته تلك هو كسب الوقت... فسكتت على مضض وعادت إلى عملها.

نقل رئيس جودي المتعاون مع المخابرات هذا الخبر إلى فيكينيت حيث أطلعه على ما جاءت جودي تطلبه منه. وقد فرح فيكينيت بهذا الحدث المفاجئ، وسارع إلى إعلام مدير المخابرات إدغار هوفر شخصيًّا به، فطلب الإهتمام بالقضيّة منذ حينه، وتوجّه حالاً لزيارة ويليام فولي رئيس جودي المباشر، الذي أعاد عليه ما جاءت جودي تطلبه منه. وعندئذ وضع هوفر مشروعًا، بعد أن تأكّد من أنّ رجاله قد عجزوا عن العثور على أيّ أثر أو دليل يدين جودي. وقد فكّر قبل قدومه لهذه الزيارة بتصنيف ذلك الإتّهام مع نتائج المراقبة في مصنّفات المحفوظات، رغم أنّ رئيس فرع المخابرات المعني بالقضيّة أفهمه بأنّ "لا دخان بلا نار"، وها هي الحادثة الجديدة تثبت بأنّ العميل الذي أبلغ ذلك التقرير كان صادقًا في معلوماته، لذا فكّر هوفر رئيس المخابرات باتّباع أسلوب جديد يكون بمثابة الرهان الأخير، على أمل الحصول على أيّ نتيجة تثبت علاقة تلك المرأة مع المخابرات السوفياتيّة.

أرسل رئيس المخابرات هوفر رسالة خاصّة إلى ويليام فولي، رئيس المتّهمة بالتجسّس جودي، تتضمّن طابع "سرّي للغاية"، وكانت هذه الرسالة تتضمّن أسماء ثلاثة من الشخصيّات الهامّة العاملة في إحدى المؤسّسات السوفياتيّة والمقيمة في واشنطن.

وتشير الرسالة إلى أنّ هؤلاء الثلاثة العاملين في شركة التجارة المساهمة السوفياتيّة الرأسمال والإسم، هم من العملاء السريّين المتعاونين مع المخابرات الأميركيّة، وأنّه قد وضعهم تحت "اختبار جديد"، بهدف التأكّد من بقائهم على ولائهم لأميركا. وقد ألمح هوفر إلى تسليم تلك الرسالة إلى جودي ضمن عملها قائلاً: "أتركوا لها الحريّة لتهتمّ بهذه الرسالة، فإذا كانت فعلاً على اتّصال بالمخابرات السوفياتيّة، فستجد نفسها مضطرّة لإنذار أصدقائها، لأنّ هذه المعلومات من الأنباء التي تصلح "طعمًا لها"، وستهتمّ فعلاً بها.

استدعى فولي الآنسة جودي وسلّمها الرسالة طالبًا إليها دراستها عوضًا عن التقرير السرّي الذي طلبته لأنّه قد حُفظ في الأرشيف لعدم الحاجة له، كما طلب إليها إحضار الدراسة مع كافّة الاختبارات المتعلّقة بهؤلاء الأشخاص الثلاثة...

في صباح يوم الجمعة التالي، تقدّمت جودي من رئيسها طالبة إليه مساعدتها وإعطاءها إجازة لبعد الظهر، ذلك لتستمتع بإجازة طويلة لنهاية الأسبوع، تقضيها في نيو يورك. تمّت الموافقة لها على تلك الإجازة، بعد إعلام المخابرات، وخرجت جودي من مقرّ عملها إلى المحطّة حيث استقلّت قطار الساعة ١٢ المسافر إلى نيو يورك من محطّة "يونيون ستيشن"، وصعد معها إلى نفس القطار أربعة من رجال مفرزة المراقبة في المخابرات... وبعد أربع ساعات، وصل القطار إلى محطّة بنسلفانيا في نيو يورك، حيث كان بانتظارها أكثر من عشرة عناصر من المخابرات ومعهم سيّاراتهم المجهّزة بأحدث أجهزة الاتّصال.

توجّهت جودي فور هبوطها من القطار إلى المغاسل ودورات المياه، وغادرتها بعد أن قضت فيها زهاء خمس وأربعين دقيقة، بعد أن أودعت متاعها في إحدى العينات الفرديّة والشخصيّة من قسم الإمانات، وتوجّهت إلى إحدى المكتبات ثمّ إلى أحد المقاهي، حيث جلست في زاوية لتتناول بعض الشطائر الخفيفة، واستقلّت بعد ذلك قطار الأنفاق المتّجه إلى مانهاتن ونزلت في موقف الشارع ١٩١. وصعدت إلى الشارع وسارت على قدميها عشرات الدقائق، وكان الظلام قد بدأ ينشر جناحيه على المدينة، كما كانت المصابيح الكهربائيّة قد بدأت تنير الطرقات، وكانت جودي بين الحين والحين تنظر إلى الوراء من فوق كتفها كما لو كانت تخشى من أن يكون هناك من يسير خلفها... وأخيرًا توقّفت أمام بائع للمجوهرات ونظرت طويلاً إلى معروضات واجهة المحل، وكان الزجاج يمكّنها دون شكّ من مراقبة ما يجري خلفها،

كما أنّ عناصر المخابرات الذين يلاحقونها قد تحسّبوا لكلّ هذه الأمور، فلم يدعوها تشعر بأمر مريب.

إستمرّ وقوفها أمام محلّ المجوهرات مدّة سبع دقائق، عندما ظهر رجل ذو شعر أسود يرتدي الملابس الأنيقة وله تقاطيع تشبه تقاطيع الخدم، وما أكثرهم في نيو يورك.

بدأ ذلك الرجل بالدوران حول المبنى وهو ينظر مرارًا وراءه ومن خلف كتفيه... وفي آخر دورة تبعته جودي دون أن تتبادل معه كلمة واحدة.

إستمرّ سيرهما لمدّة دقائق... ثمّ دخلا فجأة إلى مطعم صغير إسمه "ديلاكس"، وجلسا إلى طاولة تقع في زاوية منه، وجلس رجل المخابرات على مقربة منهما، لكنّه لم يتمكّن من التقاط أيّ كلمة من حديثهما الذي كان يغرقه الضجيج وأصوات مكبّرات الصوت التي كانت تردّد الأغنيات من آلة أسطوانات الأغاني...

قضيا زهاء ساعة كانت جودي في خلالها تتحدّث بانفعال، وتلوّح بيديها كثيرًا، وكانت تبدو ورفيقها في حالة انفعال ظاهريّ عندما غادرا المطعم، حيث ركبا قطار الأنفاق المتّجه إلى قلب المدينة. صعد رجال المخابرات في المقطورة ذاتها، وكان هدير المحرّكات يطغي على حديثهما، وعندما كان القطار على وشك مغادرة الموقف في محطّة شارع ١٢٥، قفز الرجل ذو الشعر الأسود مرافق جودي فجأة خارج القطار، وتمكّن رجل واحد من عناصر المراقبة من القفز وراءه إلى الرصيف خارج القطار وهو يستأنف سيره.

إستقلّ ذلك المجهول خلال نصف ساعة عددًا من سيّارات الأجرة وعربات النقل الكبيرة وقطارات الأنفاق مرّة ثانية حتّى تمكّن من تضييع أثره عن رجل المخابرات الذي كان يلاحقه، والذي أصابه الذعر لفشله في مطاردته رغم أنّه بذل قصارى جهده.

وعندما عاد إلى مكتب المخابرات كان على يقين من أنّ ذلك المجهول، إنّما هو سوفياتيّ، وهو اكتشف ملاحقته، ومن ثمّ تأكّد أيضًا من أنّ جودي كانت ملاحقة، وقد أيّده رفاقه في رأيه هذا.

في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي، كان عدد من رجال المخابرات يحتلّ مراكزه أمام وخلف السفارة السوفياتيّة ينتظرون حضور الرجل المجهول... وفعلا، كان ظنّهم في محلّه، فقد حضر الرجل نفسه في الساعة العاشرة تمامًا، وقد أمكن معرفته بسهولة وبدون أيّ شكّ، وبقي رجال المخابرات في الانتظار زهاء ساعة أخرى، حيث غادر ذلك المجهول السفارة السوفياتيّة واستقلّ سيّارة باص، ثمّ انتقل إلى قطار الأنفاق حتّى موقف الشارع ١١، ومن هناك ذهب إلى الشقّة التي يقطنها دون أن يشعر بمراقبة المخابرات.

عمل رجل المخابرات على استجواب حارس المبنى الذي أعطاهم فكرة مبدئيّة عن ذلك الرجل المجهول: إنّه المهندس الروسيّ "بالنتان غوبيتشوف" الملحق في قسم التصنيف في الأمم المتّحدة.

لقد كان رئيس فرع المخابرات المختصّ بالعمليّة على حقّ عندما طالب بمتابعة المراقبة، وكان رئيس المخابرات هوفر على حقّ أيضًا عندما غيّر طريقة المراقبة ووضع لجودي طعمًا جعلها تسرع بكشف نفسها واتّصالاتها مع المخابرات الروسيّة.

بعد هذه النتيجة، تمهّلت المخابرات باتّخاذ أيّ إجراء ضدّ جودي، واستمرّت بمراقبتها، ووجّهت طلبًا إلى فولي بإعاقة كوبلن من العمل في قسم الوثائق السريّة، ولقد ضايقها هذا التغيير كثيرًا، فطلبت تفسيرًا لذلك، وقد ألحّت في طلبها مدّعية بأنّ هذا التغيير يعني انتقادها في حسن سير عملها. وكانت غاضبة جدًّا وعلى وشك البكاء وذرف الدموع. شرح لها رئيسها فولي بأنّ نقلها من مركزها كان طبيعيًّا جدًّا وحسب

الأوامر الدائمة في الوزارة، وأنّ مركزها الجديد سيكون له أهميّته، وأنّه بحاجة هو شخصيًّا لكفاءتها وتمكّنها من مثل هذا العمل. كما أنّ راتبها سيبقى كما هو. فقبلت جودي على مضض ولم تتمكّن من إدراك الموقف وباشرت عملها الجديد بعيدًا عن الوثائق والأسرار الهامّة ولكنّها بقيت تتردّد كلّ يوم ولمدّة قصيرة على مكتبها السابق، ثمّ أصبحت بعد مدّة وجيزة على علاقات طيّبة مع السيّدة "ريالتي" التي خلفتها في عملها على اعتبار أنّ هذه الأخيرة حديثة العهد في عملها وبحاجة للمساعدة والعون. وهكذا اغتنمت جودي الفرصة لتتمكّن من الاطّلاع على كافّة الوثائق ذات الطابع السرّي للغاية التي كان رجال المخابرات يضعونها فوق مكتب السيّدة ريالتي كطعم لجودي، كما اطّلعت أيضًا على ذلك التقرير الذي طالبت به رئيسها السابق فولي منذ عدّة أسابيع، وكان قد أُعدّ خصيصًا لتطّلع عليه أيضًا، وقد كانت شهادة السيّدة ريالتي في ما بعد أنّها وضعت بين يدي جودي حوالى ستّين تقريرًا سُلّمت لها من قبل المخابرات بما فيها ذلك التقرير الخاص.

كان رئيس المخابرات على علم بزيارة جودي وتردّدها لمكتبها السابق، ولكن لم يكن قد أصبح بين يديهم أيّ دليل يثبت عليها جريمة التجسّس. وقد كان رجال المخابرات بحاجة للأدلّة التي سيقدّمونها للمحكمة في ما بعد، لذا مكثوا ينتظرون بصبر على أمل لقاء آخر لها مع غوبيتشوف، بينما كانت تذهب من وقت لآخر لزيارة صديقها المحامي شبيرو. وفي يوم آخر تقدّمت جودي مرّة أخرى بطلب إجازة لبعد ظهر يوم جمعة، ومُنحت الإجازة بموافقة المخابرات، فاستقلّت قطار الساعة الرابعة عشرة المتّجه إلى نيو يورك. وكان رجال المخابرات قد اتّخذوا نفس الإجرءات التي اتّخذوها في المرّة السابقة، ولكن هذه المرّة كان مع رجال المخابرات فتاة جميلة إسمها الآنسة "سافو مانوس"، وهي من المخابرات، ومدرّبة تدريبًا جيّدًا لمثل هذه المطاردات.

بدأت الرحلة من قطار الأنفاق في اتجاه مانهاتن، وكان القطار مزدحمًا كما كانت جودي محاطة بالمخابرات. وعندما فتحت بشكل عفويّ محفظة يدها لتعيد إليها ترتيبها، لاحظ أحد رجال المخابرات وجود أوراق مطبوعة على الآلة الكاتبة في داخلها.

غادرت جودي القطار من جديد في محطّة شارع ١٩١. وكانت الأخيرة بين الركّاب الذين ركبوا المصعد الذي يرتفع بهم حتّى مستوى الشارع العام. وكانت الآنسة مانوس وبرفقتها رجل مخابرات آخر بنفس المصعد معها، بعد أن استمرّا في ملاحقتها طوال المدّة الماضية. وقد شكّت جودي في كونهما يقومان بمراقبتها فعملت على المسير أمامهما واقتيادهما إلى شارع مسدود، ثمّ استدارت فجأة لتلاحظهما من جديد، ولكنّ عنصري المخابرّات المدرّبَين أدركا ذلك، فضحك كلّ من مانوس ورفيقها وتظاهرا بأنّهما عاشقين بوضعه يده حول خصرها... ولمّا وصلا لقرب جودي، سألتها مانوس بدلال: "أوه، لقد ضللنا الطريق نحن أيضًا، هل لك في إرشادنا إلى اتّجاه برودواي"؟...

فردّت جودي: "نعم... تفضّلا من هنا". وقد شعرت جودي بالسرور وهي تشير للعاشقين إلى الاتّجاه المطلوب.

ترى، هل عرفت جودي من هما هذين اللذين التقت بهما يسيران في أثرها؟

في مفترق شارع برودواي، تابعت مانوس وزميلها سيرهما طبيعيًّا... وهنا دخلت مراقبة جودي ضمن مسؤوليّة فريق آخر من عناصر المراقبة. بينما سارت جودي بنفس شارع برودواي، ودخلت في أوّله إلى حانوت تصليح أحذية لتعمل على إصلاح إحدى فردتي حذائها... ثمّ تابعت سيرها خلال دقائق عديدة. وكان الجَزَع باديًا عليها عندما أوشكت على ترك شارع برودواي لتدخل شارعًا آخر. أخيرًا ظهر أمامها

غوبيتشوف بصورة مفاجئة ولكنّه لم يطل الوقوف معها إلاّ ثوان قليلة، وكانت الظلمة الدامسة تحيط بهما بشكل كان يصعب معه رؤيتهما أو رؤيتها إذا عملت على تسليمه الوثائق التي تحملها، ثمّ ترك كلّ منهما الآخر فجأة مثلما التقيا. واستقلّ غوبيتشوف سيّارة أجرة بينما عادت جودي باتّجاه محطّة بنسلفانيا.

كان رجال المخابرات على ثقة تامّة بأنّ غوبيتشوف قد تسلّم خلال تلك الوقفة وثائق سريّة، ولكنّهم كانوا يفتقرون إلى الدليل لإثبات ذلك، كما أنّ الروسيّ قد تمكّن من جديد من الإفلات من مراقبيه وتضييع كلّ أثر له رغم احتياطات المخابرات الأميركيّة.

بعد مدّة، اتّصل رجال المخابرات في نيو يورك بزملائهم في واشنطن هاتفيًّا لإعلامهم بأنّ جودي هتفت إلى والدتها وأعلمتها بأنّها ستعمل على قضاء إجازة نهاية الأسبوع معها، وفعلاً طلبت جودي منحها من جديد إجازة لبعد ظهر الجمعة، ومُنحت الموافقة على تلك الإجازة أيضًا. ثمّ تقدّمت من رئيسها الجديد طالبة إليه "بغباء" إطلاعها على بعض الوثائق السريّة للغاية، عندئذ قال لها مستذكرًا أنّ السيّد فولي رئيسها السابق كان قد طلب منه أن يسألها في ما إذا كانت تذكر التحريّات عن أولئك الأشخاص الثلاثة الذين يعملون في مؤسّسى التجارة المساهمة الروسيّة، لأنّه قد استلم من جديد بعض المعلومات المتعلّقة بموضوعهم. وقد سبق القول أنّ هذه الرسالة هي من وضع المخابرات وهي بصدد التحريّات عن أوضاع تلك الشركة السوفياتيّة فعلاً، وقد تبيّن أنّ الثلاثة الذين طُلب من جودي البحث عن علاقتهم أصبحوا مكشوفين للمخابرات وكان اثنان منهم، أي من مدراء هذه الشركة، مخبرين لدى المخابرات الأميركيّة، كما كانت الشكوك تحوم حول الشخص الثالث واسمه "جيبي نيد لمانفيتش". ولقد كان التقرير الذي وضعته المخابرات ينوّه عن عدم الرضى والشكّ بهذا الرجل

الذي كان يتعامل معهم كما جاء ذكره من قبل، وهو الرجل الذي كان يقدّم تقاريره مختصرة وناقصة المعلومات، وكان هذا التقرير بالذات الذي تمّ إعداده ليقع في أيدي المخابرات السوفياتيّة بهدف إيقاع جودي في الفخّ، وإضافة إلى محتويات التقرير السابقة، كانت هناك إيضاحات عن علاقة الشركة مع غيرها من الشركات الأميركيّة المختصّة بإنتاج توابع ومستلزمات التجارب الذريّة المدنيّة في الولايات المتّحدة الأميركيّة. وكان يبدو أنّ الشركة تبعث إلى الخارج عدا التقارير والمعلومات المتعلّقة بأسرار النماذج الذريّة، ترسل أيضًا معلومات عن أحدث الإنتاج الذرّي وأدواته المستعملة في ذلك الإنتاج.

إلى هنا أصبح الفخّ جاهزًا... فهل ستقع جودي به؟

كانت الرحلة الثالثة في رحلاتها لملاقاة غوبيتشوف عندما ادّعت أنّها ذاهبة لقضاء نهاية الأسبوع لدى والدتها...

تحرّك في أثرها العديد من رجال المخابرات مرّة جديدة أيضًا، وكان الطريق هو ذات طريق المرّات السابقة مع بعض التغييرات القليلة:

محطّة بنسلفانيا، قطار الأنفاق حتّى محطّة شارع ١٩١، صعودها إلى الشارع العام، ولقاؤها غوبيتشوف، نزهة في نفس الشوارع، الدخول إلى المطعم، ثمّ إلى محلّ حلوى، ثمّ صائغ مجوهرات، ومع كلّ ذلك نظرات حذرة من فوق الكتفين بين حين وآخر، للتأكّد من أنّ أحدًا لا يلاحقها، ثمّ من جديد، عودة إلى قطار الأنفاق، فحافلة الركّاب، ثمّ مسير بخطوات سريعة، ثمّ الوقوف فجأة وتبادل بعض الكلمات... وهنا شعرا... بل تأكّدا... من محاصرتهما من قبل رجال المخابرات، لأنّ المنطقة الأخيرة لمراقبتهما كانت مكشوفة إذ إنّ رجال المخابرات أنفسهم كانوا بالاتّفاق مع النائب العامّ ينوون وضع حدّ لهذه المغامرة الجاسوسيّة خشية حدوث مضاعفات. فحاول

غوبيتشوف الفرار من جديد عائدًا إلى موقف الباص، ولكنّ رجال المخابرات تمكّموا من إلقاء القبض عليه، وقد انهمكوا جميعًا بمطاردته، ونسوا جودي التي استغلّت ذلك بالهروب والعودة إلى المدينة... فعاد رجال المخابرات للبحث عنها والعودة إلى أماكن عملها وسكنها، ولقد كادت أن تضيع آثارها ثلاث مرّات خلال تلك المطاردة المجنونة إلى أن تمّ أخيرًا اعتقالها في الساعة التاسعة والدقيقة الخامسة والثلاثين ليلاً وهي تعبر تقاطع الشارع الثالث من الطريق العام رقم ١٣.

في مركز المخابرات، صرّح غوبيتشوف بقوله: "هذا أمر مضحك للغاية". أمّا جودي فقد غرقت في البكاء. ثمّ جرى تفتيشهما تفتيشًا ذاتيًّا كلاً على حدة، وفي غرفة خاصّة. ولقد تذمّرت جودي عندما اضطرّتها إحدى ضابطات المخابرات إلى خلع ثيابها كلّها، رغم أنّ المخابرات كانت منذ البدء غير راغبة في المجازفة بأيّ مخاطرة مجهولة النتائج.

لم تكن جودي تخفي شيئًا على جسدها بأيّ شكل. عند ذلك عمل رجال المخابرات على تفتيش حقيبة يدها التي تحوي عادة كلّ ما تحتاجه المرأة للزينة، وكان هناك ورقة مطويّة من الأوراق المستخدمة في حفظ الجوارب، وهي مزدوجة وملتصقة بواسطة الأوراق اللاصقة القويّة. بعد أن تمّ سحب الورقة اللاصقة وقصّها بمشرط ورق، فتح ذلك الغلاف فأمكن استخراج أربعة وثلاثين نسخة ورق وملخّص عن وثائق حكوميّة سريّة للغاية، ومن بينها صورة عن تلك الرسالة الخياليّة التي وضعها رئيس المخابرات هوفر بالإضافة للتقرير المتعلّق بنشاط شركة التجارة المساهمة السوفياتيّة.

كما كان هناك رسالة مطبوعة على الآلة الكاتبة عملت جودي على تحريرها قبل مغادرتها واشنطن مباشرة وكان نصّها مكما يلي:

"سيدّي المحترم،

"إنّني لم أعد أتمكّن وأعتقد بأنّي لن أتمكّن مستقبلاً، من الحصول على تقارير عن المخابرات السريّة للغاية عن نشاط وأعمال المنظّمات السريّة السوفياتيّة والشيوعيّة في الولايات المتّحدة الأميركيّة، والتي تكلّمت عنها مع ميخائيل. أعلمكم بأنّي طلبت من فولي عندما بدت لي الفرصة مناسبة إطلاعي على التقارير التي أعلمني ذات يوم بأنّه استلم تقريرًا مماثلاً عنها، وقد أخبرني بأنّ التقرير الآن في حوزة أحد المسؤولين في الوزارة، وأنّ فولي بالذات لا يأمل أن يراه مرّة ثانية. كما أعلمني فولي بأنّ ذلك التقرير لا يحتوي أيّ معلومات جديدة لكنّي استطعت الاطّلاع على هذا التقرير لمدّة دقيقة، وقرأته بسرعة كبيرة، وإنّني أذكر بعض محتواه بشكل مختصر ذلك لأنّه مؤلّف من خمس عشرة صفحة، وهو يلخّص أعمال المنظّمات السريّة السوفياتيّة ويأتي على ذكر "مارتن" و"لو" و"بونيتر آليتشولر"، و"سيلفر ماستر"، والآخرين، كما يركّز التقرير على الموظّفين السوفيات في منظّمة الأمم المتّحدة. هذا ما أذكره عن محتوى التقرير. وأذكر أنّ ما تبقّى من التقرير يتضمّن نشاط البولنديّين واليوغوسلافيّين... كما كان يتضمّن بعض المعلومات عن الحزب الشيوعيّ في الولايات المتّحدة الأميركيّة.

"في مطلع الفصل الأوّل لهذا العام، تردّدت على الجامعة الأميركيّة في واشنطن وبقيت حتّى انتهاء المرحلة التحضيريّة لشهادة الليسانس في تنظيم العلاقات العلميّة، ولم يبق عليّ سوى تقديم الأطروحة للحصول على شهادتي على الرغم من فتور حماسي للدراسة، وأعتقد أنّي سأنتهي منها في الصيف، إنّ ذاكرتي تخونني في بعض المشاهد والمواقف عن دور الدعاية العالميّة ومراقبتها. استلمت مع الشكر جميع المخصّصات وبانتظار توجيهاتكم".

كانت الرسالة تحمل توقيع حرف H مع شطب بسيط عليه، وقد ظهر الحرف والشطب بأنّهما توقيع المرسلة.

لا يمكن هنا ذكر كافّة الوثائق التي وجدت مع جودي، ولكنّ المقدّم "ريتشارد هيرش"، وهو محقّق كبير، وأحد الخبراء الرئيسيّين في قضايا الجاسوسيّة، لخّص أهمّها وهي كالتالي:

١ ـ وثيقة رقم "ت ـ ٢٧٩"، وهي ملخّص عن نشاط أعضاء السفارة السوفياتيّة، وفيه إعلام أيضًا بعدم استلام أيّ معلومات، كما أنّ هناك اقتراح لإدخال بعض عناصر السفارة السويسريّة في نشاط الجاسوسيّة السوفياتيّة.

٢ ـ رسالة صادرة عن رئاسة المخابرات وفيها موافقة على إجراء تحريّات عن شخص يدعى "ستوجان كستيك" يعمل مستخدمًا في القنصليّة اليوغوسلافيّة في شيكاغو بهدف التأكّد وتثبيت المعلومات الواردة عنه، والتي يمكن بواسطتها إثبات اشتراكه في أعمال الجاسوسيّة.

٣ ـ بموجب رأي بعض دوائر الدولة، فإنّ ذلك الشخص الذي تقدّم بطلب منحة جواز سفر باسم "شارلز فرانسيس شيز"، قد يكون عميلاً سوفياتيًّا يحمل اسم "جون شيرمان".

٤ ـ إنّ ذلك الشخص الذي كان يشكّ به المخبر على أنّه يعمل للمخابرات البلغاريّة أو السوفياتيّة، قد تمكّن من إيجاد عمل له في منظّمة الأمم المتّحدة، وذلك حتّى يتمكّن من الحصول على مزيد من الحريّة للعمل في الولايات المتّحدة الأميركيّة، وإنّ ذلك الشخص يعمل حاليًّا في قسم الهجرة ودائرة الأعمال الاجتماعيّة في هيئة الأمم المتّحدة.

٥ ـ وثيقة رقم "ت ـ ٥"، السكرتير الأوّل في السفارة البلغاريّة، هو العنصر الممثّل للحزب الشيوعيّ في السفارة، كما يشغل منصب رئيس فرع المخابرات في السفارة.

٦ ـ الأمر الذي يؤكّد بأنّ "ستيوارت ليج" هو عميل للمخابرات السوفياتيّة.

***

بالإتّفاق التام بين المخابرات الأميركيّة ووزارة الخارجيّة، وحسب الأصول الدبلوماسيّة، تمّ أبعاد غوبيتشوف من الأراضي الأميركيّة بسبب تمتّعه بالحصانة الدبلوماسيّة. ومن المعروف أنّه يمنع اتّخاذ أيّ إجراء مع الدبلوماسيّين الحقيقيّين حتّى ولو اعتقلوا متلبّسين بجريمة التجسّس. أمّا جودي، فقد انهارت تمامًا وكانت تبكي باستمرار وتصرخ حتّى يغمى عليها، وقد أعلنت أنّها بريئة، ولكنّ المحكمة أعلنت أنّها مذنبة منذ اللحظة الأولى. وكان أكثر ما ضايقها في المحكمة وأمام الصحافة الأميركيّة افتضاح قصّتها الغراميّة مع الأستاذ شبيرو.

لم يصدّق المحلّفون بأنّ جودي كانت على علاقة غراميّة وحبّ مع كلّ من غوبيتشوف والمحامي شبيرو، في وقت واحد، وقد صرّحت بأنّها لم تخلع ثيابها إطلاقًا في غرفة الفندق التي كانت تتقاسمها مع المحامي شبيرو، ولكنّ أحدًا لم يصدّقها في ذلك، لا سيّما رجال المخابرات الذين كانوا يحتلّون الغرفة المجاورة ومعهم آلات التصوير المجهّزة بأشعّة إكس، بالإضافة للاقطات الصوتية الحسّاسة التي سجّلت لها شريطًا واضحًا جُلب إلى المحكمة واستمعت إليه في جلسة سريّة، وقد سمعت المحكمة أدقّ الأصوات التي صدرت عن العاشقين بما في ذلك صوت تدفّق مياه الدوش في الحمّام خلال اليومين موضوع استماع المخابرات. كما أنّ جودي لم تعترف بشيء وأنكرت كلّ شيء عن علاقتها مع غوبيتشوف مدّعية بأنّها قد تعرّفت إليه في متحف الفنون الحديثة الذي كان يثير اهتمامها كثيرًا، كما ادّعت أنّها تقابلت معه مرّة ثانية في سنترال بارك، وعندئذ اعترف لها بأنّه متزوّج، وأنّه يأمل في الحصول على الطلاق من زوجته الروسيّة ليتزوّجها. ولكن المحقّق "ستيد ماكلن" ضغط عليها كثيرًا أثناء

التحقيق وأهمّها بأنّ لديهم تسجيلات كاملة صوتيّة عن علاقتها الغراميّة والجنسيّة مع غوبيتشوف، فانهارت واعترفت بعلاقتها الغرميّة معه قبل المرّات التي تمّت فيها مراقبتها معه، حيث كانت تقضي معه الساعات الطويلة في منزله الشخصيّ، وقد وصفته بأنّه "فحل روسيّ" بكلّ معنى الكلمة، بل إنّ علاقتها الحميمة معه كانت السبب في موافقتها على التجسّس لصالح المخابرات السوفياتيّة عن طريقه ولعدم حرمانها من الساعات السعيدة التي كانت تقضيها معه.

أحيلت قضيّة جودي كوبلن إلى المحكمة المختصّة بجرائم التجسّس برئاسة الجنرال "توم كلارك" وقاضيين بصفة مستشارين، وبدأت محاكمتها بشكل جدّي تمامًا، والتزم الجميع بالصمت احترامًا للمحكمة. أمّا هي فكانت تضحك بغباء كما لو أنّ أعضاء المحكمة يعملون على تسليتها... بينما جلس المحلّفون في أماكنهم بمنتهى الجديّة، ولم يكونوا مصدّقين لحديثها بأنّها كانت تحبّ غوبيتشوف فقط، كما أنّهم لم ينظروا إلاّ إلى الأربع وثلاثين وثيقة التي تمكّنت من سرقتها من بين وثائق الدولة لتسلّمها للمخابرات السوفياتيّة. ولقد صرّحت بأنّها لم تعمل على تحرير أيّ رسالة إلاّ تلك الملاحظات التي كانت تأمل في إعدادها بهدف تحرير قصّة عاطفيّة... وعندما تمّ اعتقال غوبيتشوف كان في جيبه مظروف يحتوي على ألف دولار من فئة المائة دولار، ولقد صرّح بأنّ هذا المبلغ هو لمصروفه الخاصّ، بينما لم يصدّقه أحد من أعضاء المحكمة في ادّعائه هذا.

حاول "أوشيبالد بالمير" محامي الدفاع عن جودي تقديم دفاعه أمام المحكمة بشكل مثير عندما قال موجّهًا حديثه للمحلّفين بينما كانت موكّلته تضحك:

"عندما يقع الإنسان في الحب، فإنّه لا يهتمّ إن كان ذلك المحبوب أحمر أو أخضر، لأنّ الحبّ لا يخضع لقوانين الحدود، ولا يعرف له وطنًا"...

وجدت جودي أنّ محاميها يدافع عنها بشكل يدعو للإعجاب، فصفّقت له زيادة في إظهار غبائها، لكن المحلّفين لم ينقطعوا عن التساؤل: "وحبّها للمحامي شبيرو"؟...

لقد قالت أمام المحكمة موجّهة كلامها للمحلّفين: "قضيت الليل معه فعلاً، ولكنّنا لم نمارس الجنس مطلقًا، كما أنّني لم أحاول ذلك ولو مجرّد محاولة"...

وسألها النائب العام: "هل كان ذلك خلال الليلتين"؟...

أجابته جودي: "نعم خلال الليلتين لم نتبادل حتّى القبلات".

أجابها النائب العام متّهمًا: "هل تنكرين وجود العلاقة الجنسيّة مع المحامي شبيرو رغم وجود شرائط التسجيل الفاضحة التي سجّلت حتّى تنهّداتك الحميمة؟"...

لقد ذُهل أعضاء المحكمة من هذه المرأة التي تظهر نفسها أنّها تعجز عن إدراك ما مرّ معها خلال ليلتين ولا تعترف بالحقيقة رغم ثباتها. وكانت حجّتها الواهية التي تمسّكت بها للدفاع عن نفسها، إضافة لظهورها بمظهر الغباء والضحك، عندما صرّحت بلهجتها "البروكلينيّة" بأنّها تعاني وتتألّم من مرض يتغلّب عليها هو "الجنس الحرام"... وهي عندما تقابل شخصًا ما لا تدري ما يحدث معها بعد ذلك، إلاّ بعد فوات الأوان. لكنّ تلك الحجّة أيضًا لم تقنع أحدًا.

انتقلت المحكمة إلى البحث في حالة التجسّس المثبتة بالوقائع، كالأربع وثلاثين وثيقة سريّة جدًّا، والألف دولار التي صودرت من غوبيتشوف، وكافّة المقابلات السريّة، عدا مقابلاتها الغراميّة مع المحامي شبيرو التي لم تدرج في موضوع التجسّس. وكانت الأدلّة دامغة حيث انتهى الأمر بمحاميها إلى ترك الدعوى، فاستدعت المحامي الشيوعيّ "مومر أنتزا" الذي طالب المحكمة بالتأجيل للاطّلاع على ملفّ الدعوى، وبعد التأجيل وقبول المرافعة منه، تمّ الحكم على جودي كوبلن كما يلي:

"ترى المحكمة أنّ الأعمال التجسّسيّة التي قامت بها المدّعى عليها جودي بنت صموئيل كوبلن، والمثبّتة بالوقائع والأدلّة وأقوال الشهود تستحقّ تطبيق القانون الخاصّ بخيانة الوطن، والذي يقضي بالإعدام في زمن الحرب، ولكن، وبما أنّ فصل الوقائع قد حدث أثناء الحرب الباردة، فقد مكّن المتّهمة من الاستفادة من الدفاع أولاً ومن بعض الأسباب التخفيفيّة، صدر الحكم عليها بالسجن الفعليّ خمس سنوات"...

وفي أثناء المحاكمة كانت "قصّة حبّ جديدة" تنشأ بين جودي والمحامي بومر الذي أخذ يزورها باستمرار في سجنها، وبعد مدّة تمكّن من أن يستصدر لها أمرًا قضائيًّا يقضي بإخلاء سبيلها بسبب "مرض عضال" أصيبت به في السجن. فخرجت من السجن إلى سجن الزوجيّة حيث تزوّجت محاميها الذي أحبّته من وراء القضبان[١].

١ ـ الجزائري سعيد، المخابرات والعالم، دار الجيل (بيروت،١٩٨٩) ٣: ٣١٥ ـ ٣٣٨.

ميشلين كاريه: القطّة الجاسوسة الفرنسيّة المزدوجة

لا يزال الكثيرون في فرنسا يذكرون الإعلان الذي تمّ نشره وتعليقه على الجدران، والذي تضمّن صدور الحكم بالإعدام في ٨ كانون الأول - ديسمبر ١٩٤٨ على "ميشلين كاريه" البالغة من العمر أربعين عامً، وقد صدر الحكم عليها من قبل المحكمة الجنائيّة رقم ١٤.

كانت هذه المرأة التي كشفت المحاكمات النقاب عن سيرتها، تحمل اللقب الذي اشتهرت به، وهو "القطّة"... وهي فتاة ذات بشرة سمراء، جميلة، وذات عينين جميلتين، وأسنان دقيقة بيضاء... وكانت القطّة واحدة من أكبر جواسيس أوروبّا.

العقيد الفرنسيّ "مارسيل"، وهو أحد ضبّاط الاستخبارات ومن الذين لعبوا دورًا هامًّا وحيويًّا في خلال الحرب العالميّة الثانية، وكان عضوًا في الشعبة الثانية، أي المخابرات الفرنسيّة، كما كان رئيسًا لمنظّمات استخبارات الجنرال "بول جوان"، أدلى أمام المحكمة بالإفادة التالية: "لقد قامت السيّدة كاريه بأداء خدمات جلّى للجيش الفرنسيّ في خلال السنوات التي قضتها في العمل معنا، ولقد تمكّنت من الحصول لنا على عدد من المخطّطات لمعارك الجيش الألمانيّ، وكان ذلك لمصلحتنا"...

أمام هذه الشهادة، يتساءل المرء: لماذا إذن صدر الحكم على السيّدة كاريه بالموت من قبل محكمة فرنسيّة؟...

لقد صدر هذا الحكم عليها لأنّها فعلت كما يفعل عدد من الجواسيس، عندما يعملون في الظلام، وينتقلون في عملهم من مصلحة بلد إلى مصلحة

بلد آخر... وليس ذلك بالأمر المعقّد... كما كان هناك أكثر من سبب دفع السيّدة كاريه لذلك...

في العام ١٩٣٩، كانت ميشلين كاريه، وهي من مواليد "بيلارد"، زوجة لضابط فرنسيّ مقيم في الجزائر. وكان زوجها يدفع لها القليل من النفقة، ما اضطرّها للعمل كمدرّسة في إحدى القرى الصغيرة الواقعة في جنوب البلاد. وكان جوار السيّدة كاريه، وكذلك الفتيّات الصغيرات اللواتي عرفنها، على حذر منها، لأنّها كانت ذات تربية عالية وثقافة أكثر بكثير ممّا كانوا يتوقّعونه منها...

كانت ترتدي ثيابًا بسيطة لأنّ دخلها المحدود من عملها لم يكن ليسمح لها بأكثر من ذلك، ولكنّها على الرغم من ذلك، فإنّها لم تكن لتعدم وسيلة كي تبدو بمظهر أنيق. ولو أنّ رجلاً قدم من العالم الخارجيّ، مارًّا بتلك القرية الضائعة في نهاية أعماق الجزائر، فإنّه كان ولا شكّ سيتأكّد حتمًا من مكانة ميشلين التي كان سلوكها مثاليًّا... وكان من الصعب الحكم على هذه المرأة ومعرفة ما إذا كانت سعيدة بوجودها في الجزائر أو أنّها على عكس ذلك... ولكن من المعلوم تمامًا أنها قرّرت العودة إلى باريس فور إعلان الحرب.

لعبت الظروف دورها في مساعدة ميشلين كاريه من أجل تحقيق مخطّطها، فقد كانت فرنسا في تلك الحقبة بحاجة إلى النساء من أجل تلبية احتياجات الخدمة الصحيّة للجيش، ولذا تطوّعت ميشلين مباشرة للخدمة. وعندما حصلت أخيرًا على بطاقتها وأصبح إذن العمل جاهزًا في جيبها، دفعت بزفرة عميقة من صدرها قائلة: لقد ابتدأت حياتي منذ الآن... هذا ما ردّدته في سرّها، فكيف كانت تعرف ذلك؟...

لقد كانت ميشلين في الواقع بدايةً منذ ذلك اليوم تقوم بعملها اليوميّ ثمّ تنتهي بذكر وتدوين مذكّراتها اليوميّة، ولقد أتمّت هذه المذكّرات في ما بعد، وكانت تلك المذكّرات

بمثابة اعترافات تتكوّن منها وثيقة إنسانيّة نبيلة سمحت المناسبات والظروف بتكوينها...

قبل أن تعود إلى عملها، عاودت زيارة زوجها في الجزائر، وقد كان على أهبّة الاستعداد للالتحاق بالجبهة، ولم يكن ليشعر في خلده بأنّ هذا اللقاء سيكون آخر لقاء له بزوجته، ذلك أنّه وقع قتيلاً بعد ذلك بقليل تحت وابل من رصاص الأعداء.

عندما وصلت ميشلين إلى باريس، أقامت في فندق يقع في قلب المدينة، وقد كتبت في دفترها: "أيّ بلاد هذه؟ وأيّ مدينة هذه؟ إنّه من الصعب تصوّر هؤلاء القذرين وهم يتمّون استيلاءهم على باريس، فالمباني التاريخيّة القديمة، السّين وأرصفته، نوتردام، قبّة الأنفاليد، ونحن... إنّني أرى هذه الأشياء جميعًا. الشوارع... إنّها الحياة... إنّني أتنزّه على طول الشوارع، وأجلس على رصيف هذا المقهى أو ذاك... وهذا ما يثير في نفسي أجمل المشاعر والأحاسيس... إنّني سعيدة... إنّني في الجنّة! وإنّني سأبذل جهدي لكي لا تلتهم جهنّم السماء وتنتصر عليها"...

ذهبت ميشلين في اليوم التالي لاستلام عملها الجديد، حيث تمّ تقديرها أثناء مدّة دورتها الدراسيّة في باريس على أنّها عنصر منتج، واثقة من ذاتها، وقادرة على إظهار كفاءة جيّدة في معالجة الجرحى.

لقد كان توقيع الهدنة في عام ١٩٤٠ صدمة قاسية بالنسبة لميشلين كاريه.

عندما كان الألمان يعملون على اجتياح فرنسا، كانت ميشلين تهرب أمام الزحف النازيّ، مثلها في ذلك مثل نصف سكّان فرنسا، وقد تمكّنت عند وصولها إلى "بوينس" من تنظيم مركز للإسعاف تابع للصليب الأحمر الدوليّ، ثمّ استأنفت مسيرها على طريق فرنسا إلى أن وصلت أخيرًا إلى مدينة "تولوز"، حيث عملت على تنظيم مركز

جديد لتجميع الجرحى. وكان ذلك بإمكانيّاتها الخاصّة. وقد ألحّت على الضبّاط الفرنسيّين بإنشاء معسكر لاستقبال المقاتلين المنعزلين عن وحداتهم، وأثناء تنفيذها هذه المهمّة الطوعيّة، اجتمعت بذلك الرجل الذي كان، على ما يبدو، بحاجة إلى عونها ومساعدتها أكثر من الآخرين. وهو ضابط من ضبّاط القيادة البولونيّة، كان يعمل كضابط اتّصال مع قيادة الجيش الفرنسيّ، ومن الذين قاتلوا الألمان إلى أن وقع أسيرًا بين أيديهم، ثمّ تمكّن من الفرار لكي يقع بين يدي ميشلين... وها هو الآن تعب وجائع ومريض، فأنقذته من شقائه، وألبسته، واعتنت به حتّى عادت إليه عافيته وشجاعته.

كان إسم ذلك الضابط "رومان كزيريناوسكي"، وهو من الأسماء التي يصعب النطق بها، ولذا عملت ميشلين على تسميته "آرمان"، كما عمل هو بدوره على مناداتها بـ"قطّتي"، وذلك لما كان يلمس فيها من الرقّة والوداعة. وكانت العلاقة التي تربط بينهما أكثر من كونها مجرّد علاقة عاطفيّة، إذ إنّ أرمان جعل منها جزءًا من مخطّطه للقيام بأعمال تنظيم شبكة للجاسوسيّة في فرنسا بالإضافة إلى تنظيم حركة مقاومة، وقد قبلت القطّة بسرور أن تتعاون مع أرمان في كلّ ذلك.

للبدء في هذا المشروع، كان لا بدّ من التفتيش عن الضبّاط الفرنسيّين الذين كان بعضهم في المنطقة الحرّة بينما كان البعض الآخر يختفي في المنطقة المحتلّة، وشرعت القطّة في عملها بجدّ وحماسة، وكانت الحالة العامّة في فرنسا في غاية الفوضى، إذ كان ملايين الأشخاص لا يزالون يتكدّسون فوق الطرق... كما كانت الحالة على الحدود الإسبانيّة لا تزال غامضة ومضطربة.

لم يكن في استطاعة العقيد البولونيّ التجوّل والسفر بحريّة، كما لم يكن يجرؤ على الظهور في المنطقة المحتلّة، لذا كانت القطّة مجبرة على إنشاء الاتّصالات الأولى، فكانت تقوم على جمع الرجال وتقسيمهم إلى فرق ثنائيّة بحيث يعمل كلّ اثنين منهم

كخليّة متّصلة. وكانت تؤمّـن المخـابئ لهذه الخلايـا، وبذلـك أصبحـت المجموعـة التـي كانت تسمّي نفسها "مجموعة الحلفـاء" بعد مـدّة قصـيرة مـن أنشـط وأقـوى مجموعـات المقاومة... ولقد انضمّ العقيد "مارسيل آكارد" إليها.

كان العقيد آكارد شخصيّة هامّة في تلك المجموعة، إذ كان جميع أفرادهـا البـاقين، باستثناء العقيد البولوني، من هواة أعمـال الجاسوسيّة، بينمـا كـان العقيـد آكـارد رجـلاً مفرط الذكاء والدهاء، ولقد تمكّن من الاتّصال بالإنكليز عن طريق إسـبانيا والبرتغـال، وكان هذا الرجل بالنسبة للقطّة صنمًا معبودًا.

أدرك آكارد بثاقب نظره أنّ القاعدة الحاليّة التي كـانت تُستخدم للحـرب هـي ذات مشكلة كبرى، وذلك نتيجة لغموض الموقف. وكان يتساءل: "ترى، هل ستتوقّف ألمانيـا عند حدود البيرينيه، أمْ أنّها ستتمكّن من الاتّفاق مـع فرانكـو للقيـام بـالهجوم علـى جبـل طارق"؟...

عمل آرماند على تكليف القطّة بالكشف عن تلـك المشـاريع الألمانيّـة. فذهبـت إلـى "بوردو" ثمّ إلى "بايون" وإلى "بياريتز"، حيث كانت تتمركز في هذه الأخيرة وحـدة مـن المدرّعـات الخاصّـة بمهمّـة إقامـة معسكر علـى الحـدود. وكـانت تبـدو وكأنّهـا تسـتعدّ لخوض معركة جديدة، كما كان هناك بعض الوحدات الجويّة المقيمة في بوردو، وكـان عدد من ضبّاط هذه الوحدات يتردّد على مقهى باريس فـي بيـاريتز. وقـد كتبـت القطّـة قصّة ذلك اللقاء في مذكّراتها:

"دخل ضابط نازيّ إلى المقهى وقال لـي: ـ هـل أستطيع الجلـوس علـى طـاولتك، سيّدتي؟... إنّني أرغب في طلب بعض المعلومات عن هذه المدينة.

فأجبته: ـ نعم، وأنا بدوري أحبّ أن أطرح عليك سؤالاً جال في خاطري!.

فقال: ـ هيّا، إطرحي سؤالك!

- إنّك ترتدي لباس الطيران الألمانيّ، بينما لا تدلّ هيئتك على أنّك طيّار، ثمّ إنّني لم أتعرّف على معنى شاراتك التي تحملها؟

- إنّني أحمل الرتبة التي تسمّونها عندكم في فرنسا عقيد، وأعمل في مصلحة الإمداد الجوّي، وإنّني المسؤول عن كلّ إمدادات واحتياجات الطيران لقاعدة بوردو".

تناولا معًا شراب الشمبانيا، في المطعم أوّلاً، ثمّ بعد ذلك في أماكن أخرى. وقد وصفت شعورها في مذكّراتها بقولها:

"لقد حرصت على أن أحتفظ بصفاء ذهني، لأنّني لو لم أفعل، لفقدت كلّ تحفّظ واحتراس"...

بعد ذلك بقليل، تمكّنت القطّة من إعلام أرمان بأنّ الألمان يتّخذون التحضيرات اللازمة لاجتياز إسبانيا. في حين استمرّ بقاؤها في الإقليم المحتلّ وهي تراقب التحضيرات الألمانيّة، إلى أن لاحظت أنّ استعدادات الألمان ونشاطاتهم قد بدأت تخفّ تدريجًا، وأدركت بذلك أهميّة النبأ الجديد، وهو أنّ الألمان تخلّوا عن مخطّطهم في الهجوم على جبل طارق.

انتهت بذلك مهمّة ميشلين، فعادت إلى قرب أرمان، وكانت بمنتهى السعادة وهي تعود إليه، وفي تلك الأثناء كان العقيد آكارد يعمل على تنظيم مجموعاته المنتشرة في جميع أنحاء فرنسا. وكانت القطّة تعمل لمصلحته بجدّ ونشاط، وقد أكّد العقيد ذلك بشهادته التي أدلى بها أمام المحكمة، وقال أنّهما أدركا في تلك المرحلة نجاحًا رائعًا وخارقًا للطبيعة، وكانت مصلحة الاستخبارات البريطانيّة التي عرفت تلك المجموعة تحت إسم "فالنتي"، تنظر باحترام كبير إلى رجالها الشجعان.

كانت لوائح البريطانيّين تتضمّن أسماء الأعضاء الرئيسيّين في المجموعة، وكذلك أسماءهم المستعارة، ذلك لأنّ أعمالهم ذات أهميّة خاصّة.

كما كان البريطانيّون يعرفون كلّ شيء عن العقيد رومان كزيريناوسكي المعروف باسم أرمان، وكذلك عن ميشلين المعروفة بالقطّة، بالإضافة إلى باقي أعضاء المجموعة من المقاومين الذين كان منهم الأرستقراطي الفرنسي "بيير دو فومكورت".

في تلك الأثناء، وبالاتّفاق مع إنكلترا، قامت المجموعة فالنتي بإعداد عدّة مناطق من الأرض لإنزال الأسلحة المخصّصة لإمداد الرجال، كما تمّ إعداد وانتقاء مناطق للإنزال البحري على طول الشاطئ، كما تمكّنت المنظّمة من تأمين وصول أسرى الحرب الهاربين من ألمانيا إلى كلّ من إسبانيا وسويسرا بشكل خفيّ. إنّهم ولا شكّ رجال شجعان يبذلون كلّ شيء في سبيل وطنهم.

في ذات يوم، شعر كلّ من أرمان والقطّة بالحاجة إلى من يساعدهما في أداء بعض الأعمال الصغيرة، كالتردّد على المقاهي والمطاعم، وقبول دعوات الألمان ومرافقتهم من أجل الحصول على كافّة المعلومات التي يمكن التقاطها أثناء سياق الأحاديث...

بدأت القطّة في البحث عمّن يصلح لأداء هذه المهمّة، وسرعان ما عثرت على المرأة الملائمة لذلك في مدينة "لومبفيل"، وكان اسمها "رينيه بورني"، وبما أنّ هذه الفتاة ستصبح مساعدة مقرّبة من أرمان، فقد حرصت ميشلين على أن تكون الفتاة الجديدة من النوع الذي لا يروق للعقيد البولوني...

بذلت رينيه، أو "فيوليت"، كما أصبح إسمها في أوساط المقاومة، كلّ جهدها لكي تدخل السرور إلى قلوب كافة عناصر المقاومة، كما أظهرت تفانيًا وإخلاصًا كبيرين لعملها، ولذا فإنّ القطّة لم تشعر بالأسى وهي تكتشف بعد مدّة أنّ أرمان أيضًا أصبح من الذين يحبّون تلك الفتاة...

كانت القطّة تشعر بالضيق والقلق أحيانًا، عندما كانت تنظر إلى فيوليت في تلك الحقبة الموقتّة التي كانت تقيم في خلالها بباريس. وقد توسّلت إلى أرمان لأن يرسل فيوليت إلى الريف، حيث يمكن تكليفها بواجبات تقلّ أهميّة عن واجباتها الحاليّة. وكان أرمان يشعر بالسرور من أقوالها ويجيبها وهو يبتسم بأنّ القطّة بدأت تشعر بالغيرة، وكانت ميشلين تحتجّ على ذلك بقولها:

"إنّ الأمر لا يتعلّق بذلك، إنّ لديّ شعور بأنّ كارثة ستنزل بنا من جرّاء عملها"...

وكان أرمان يجيبها ضاحكًا:

"ألا يمكن أن ينبعث هذا الإحساس من الغيرة"؟...

ولكنّ إحساس ميشلين كان مصيبًا. فقد كانت رينيه بورني، أو من كانت تسمّى فيوليت، سبب كارثة أدّت إلى تحطيم تلك المجموعة وإلى خرابها، فقد تلقّت فيوليت أمرًا بالحصول على معلومات ذات أهميّة ثانويّة، وكانت المعلومات المطلوبة معرفة الاتّجاه الذي ستذهب إليه بعض الكتائب التي سيتمّ نقلها بواسطة القطار من محطّة الشمال في باريس...

قابلت فيوليت على مقربة من محطّة الشمال أحد صفّ الضبّاط الذي بدأ الحديث معها، ثمّ بدأت هي بدورها في استجوابه بحذر دون أن تتنبّه إلى وجود رجل يرتدي الثياب المدنيّة ويجلس إلى خلف صفّ الضابط، متظاهرًا بأنّه يقرأ الصحيفة. ثمّ انصرفت من المقهى بعد أن قضت وقتًا مع صفّ الضابط، دون أن تلاحظ وجود شخص يسير في أثرها، كما أنّ الشكّ لم يخامرها في خلال الأيّام التالية بوجود أشخاص مدنيّين يعملون على مراقبتها باستمرار تقريبًا. وبذلك أمكن مشاهدتها برفقة كلّ من أرمان والقطّة. ونتج عن تلك المراقبة اكتشاف مقرّ قيادة المجموعة، وكذلك

مقرّ سكن أعضائها، وفي ١٨ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٤١، في الساعة الخامسة والنصف صباحًا، تمّ اعتقال كلّ من أرمان وفيوليت من قبل منظّمة مكافحة الجاسوسيّة التابعة للأميرال الألماني "وولتر ويلهيلم كناري"، كما تمّ اعتقال ميشلين كاريه بعد ذلك بساعات، وأُلقي بها في السجن العسكريّ.

أثار صمت الزنزانة الرهيب شعور قلق كبير في نفس القطّة التي لم تكن لتعلم شيئًا عن الآخرين... وكانت تتساءل: ترى، هل تمّ اعتقال أرمان أيضًا؟... وهل أمكن اعتقال الآخرين؟... تُرى، هل كانت هي الوحيدة من بين الزمرة؟... وفكّرت وهي ترتعد بما ستتعرّض له وبما ينتظرها... إنّ الليل سيهبط، وسيحمل معه كلّ الرعب الذي تنتظره...

وهبط الليل عليها وهي وحيدة في زنزانتها المظلمة، وكانت القطّة تعرف بأنّها لن تنجو من الموت. وكانت ترتجف وهي تفكّر بالصورة التي ستلقى الموت فيها... وفجأة، اشتعل ضوء المصباح المثبّت إلى السطح وانفتح الباب، حيث دخل رجل يرتدي الثياب العسكريّة الألمانيّة...

بقيت القطّة جالسة في مكانها وألقت نظرة جذعة إلى ذلك الرجل المنتصب أمامها. ولمّا كانت تعرف الشارات العسكريّة بشكل جيّد فقد عرفت بأنّه يحمل رتبة رقيب، ولو لم يكن يرتدي الألبسة العسكريّة لما عرفت أنّه رجلاً ألمانيًّا. ذلك لأنّ مظاهر الوحشيّة لم تكن تنطبق على مظهره. كما فوجئت بموقف ذلك الرجل منها إيضًا، والذي بقي واقفًا على عتبة الباب مستندًا بكتفيه إلى الجدار ناظرًا إليها بثبات دون أن يقول لها شيئًا. وقد بدأت القطّة بعد قليل تفقد صبرها، إلى أن قالت له وهي تنهض من مكانها:

ـ ياسيّد، ترى لماذا عملتم على اعتقالي؟...

ولكنّ الرجل لم يجب بشيء، وكان صمته يطبق عليها آخذًا بتلابيبها. إلى أن قال لها أخيرًا:

- لقد عشت في الجزائر، أليس كذلك؟

وأجابته:

- نعم، في الجزائر!

عندئذ قال لها:

- إنّ باريس مدينة شاعرة، أليس كذلك؟

ونظرت إليه بهلع... وآنئذ أعقب على نظراتها بقوله:

- هل أنت خائفة؟... ولماذا تخافين؟... إنّني سوف لن أقوم بأيّ عمل يضايقك، وإنّني أعترف بأنّك امرأة ذكيّة، ثمّ، هل تعرفين بأنّك بطريقة تصفيف شعرك تشبهين إلى حدّ ما "جانّ دارك"؟...

لقد كتبت في ما بعد في مذكّراتها شعورها عن ذلك اللقاء، فقالت:

"لقد تملّكني شعور غريب للغاية، فقد كان ذلك الرجل الذي دخل إلى زنزانتي إنسانًا"...

ولم يستجوبها ذلك الرجل الإنسان عن نشاطها في منظّمات المقاومة بل تكلّم معها عن الجزائر، عن فرنسا وباريس، وكان صوته يصل إلى أذنيها عذبًا هادئًا. ودُهشت الفتاة من ذاتها وهي تتساق معه فجأة في حديث عذب مهذّب، إلى أن مازحها بدعابة قاسية وهو يقول لها: - إنّ هذا المكان يفتقد للراحة قليلاً، فلنذهب إلى مكان آخر، ما هو رأيك؟...

وأدركت فجأة قسوة المكان الذي تقيم فيه، فهزّت بكتفيها بحركة يائسة وهي تُطرق إلى الأرض، وعندما رفعت رأسها كان الرقيب قد اختفى، وانطفأ الضوء عليها، وكتبت عن ذلك في مذكّراتها تقول:

"لقد عادت إلى سمعي ألحان موزارت وانيفيت، واضحة في خيالي وكأنّ تلك الموسيقى الحلوة كانت تعزف فعلاً على مقربة منّي"...

وطرق سمعها بعد قليل صوت من جديد، وأضيء النور، وفُتح الباب ليظهر منه جنديّ مسلّح، حيث تقدّم عريف من ميشلين وأشار إليها بأن تتبعه، وسارت خلفه بين الدهاليز الموحشة، واجتازت الأبواب الحديديّة المتتالية إلى أن وصلت إلى مكتب وقّع العريف فيه على ورقة كانت معه، ثمّ فتح الباب لتجتازه، ثمّ اجتازت بابًا آخر، وعبرت خلال باب جديد من الحديد المتصالب الذي انفتح أمامها، وعندئذ وجدت نفسها أمام رجل، ولكن... من هو هذا الرجل؟... إنّه ذلك الرقيب الذي زارها في زنزانتها، ولكنّه يبدو بهيئة مختلفة تمامًا. فقد كان يرتدي الثياب المدنيّة، كما كان يحمل قفّازات أنيقة ويضع ربطة عنق ذات ألوان زاهية، ويرتدي على رأسه كمّة من ذلك النوع الذي كان يعتمره رجال جنوب غرب فرنسا، الكوت باسك، فوق رؤوسهم، وكان يعلّق لفافة تبغ بين شفتيه، وكان يبدو في كلّ ذلك وكأنّه أحد الفرنسيّين المتأنّقين الذين كانوا يقيمون في الحيّ الإيطاليّ.

رافقها ذلك الرجل المتمدّن إلى عربة كبيرة، وطلب إليها أن تجلس قائلاً لها:

- على المقعد الخلفي من فضلك... واتركي الستائر مقفلة.

ثمّ انزلق بدون اكتراث خلف المقود. ولاحظت ميشلين المساحة الكبرى للمرآة العاكسة التي كانت تقع أمام بصر السائق والتي كانت تمكّنه من مراقبة الجالس إلى

المقعد الخلفيّ بوضوح، وهدر صوت محرّك السيّارة، ثمّ انفتح باب حديديّ، ووجدت القطّة ذاتها في باريس من جديد. ترى إلى أين ستذهب؟...

وصلت السيّارة إلى ظاهر المدينة ثمّ مرّت من أمام مبنى لافاييت. وقد رأت ميشلين ذلك بوضوح من خلال عاكس الهواء... ترى، من كان يقطن تلك الفيلاّ التي تقع في وسط تلك الحديقة الكبرى؟... وارتعدت القطّة خوفًا من جديد، فقد كان ذلك القصر الفسيح هو منزل الممثّل المشهور "هاري بور" الذي استولى عليه الألمان ليتّخذوا منه مقرًّا لمنظّمة مكافحة الجاسوسيّة في القيادة العامّة الألمانيّة.

أدركت القطّة أنّها إذا ما وصلت إلى هناك، فمعنى ذلك أنّه قد افتُضح أمرها وأمكن اكتشاف كلّ شيء عنها، كما أنّ قوّات الاحتلال لا تتلهّى في إلقاء القبض عليها وجلب العناصر التي لا خطر منها إلى هذا المنزل... وكان يتوجّب عليهم أنّ يضعوا فوق باب المدخل الرئيسيّ لهذا المنزل لوحة يُكتب عليها قول "دانتي" الذي وضعه على باب جهنّمه:

"أنت... يا من تدخل من هنا... دع خارجًا كلّ آمالك"...

ولكن، هل كان مقرّ القيادة العامّة لمكافحة الجاسوسيّة الألمانيّة يقيم هنا فعلاً هنا؟

كان كلّ شيء يبدو أمام ناظريها وكأنّه غير حقيقيّ... فالخدم بغاية الأدب والتهذيب، كما كانت الصالات الفسيحة أنيقة الأثاث... ولكنْ... تركوها هناك وحيدة!

جلست القطّة في مقعد وثير ونظرت إلى النافذة حيث لمحت بالكاد الساحة الفسيحة الغارقة في بحر من الظلام الدامس، كما كان يطرق أذنيها أصداء الأصوات الخافتة لصخب المدينة وضجيجها. وبدا لها أنّ كلّ من في المدينة ينصرف إلى شؤونه ولا

يفكّر في شأنها أحد. وفجأة، فُتح الباب وطلب إليها الرجل الذي رافقها أن تتبعه، ثمّ تقدّم أمامها إلى البهو، وقادها إلى صالة كبرى كثيرة الأثاث. وكان هناك باب آخر ينفرج عن نصف انفتاحة. ومرّت ميشلين برأسها من خلال ذلك الباب فرأت مرآة كبيرة، وأمامها مصباح صغير يضيء الغرفة، لقد كانت تلك الغرفة مخصّصة للنوم، ترى ماذا حدث في تلك الليلة؟...

إنّ مذكّرات القطّة لا تحتوي شيئًا عمّا جرى في تلك الليلة. وقد حاولت المحكمة في ما بعد الكشف عن ذلك عندما سألها رئيس المحكمة قائلاً:

- قصّي علينا مشاهد تلك الليلة كما حدثت بالضبط، بعد أن وصلتِ إلى فيلاّ هاربور...

- لقد قلت لك ما جرى في تلك الليلة بالضبط. ولكن سأعيد ذكر ذلك ثانية. بعد أربعة عشر شهرًا من النضال والعمل المستمرّ من أجل المقاومة، تمّ اعتقالي وأُخذت إلى فيلاّ هاربور، وهو منزل لافاييت. كنت تحت رحمة الألمان... كما أنّ الرقيب "هيغو بليخر" لم يتركني ثانية واحدة أعيش فيها وحدي.

- لقد تعرّفت إذًا على إسم ذلك الرقيب؟...

- كان يدّعي بأنّ اسمه "هيغو بليخر".

- وهل كان يحمل رتبة رقيب فعلا؟

- إني لست أدري إطلاقًا.

- وهل كان اسمه الحقيقيّ هيغو بليخر؟...

- ....

- حسنًا، لقد كنتِ مسجونة لدى بليخر، فهل أصبحت خليلة له منذ تلك الليلة؟...

- وهل تستطيعون أن تضعوا أنفسكم في مكاني، سيدي الرئيس؟...

- أجيبي على سؤالي. هل أصبحت خليلة ذلك الرقيب أثناء تلك الليلة الأولى؟...

- وهل يجب أن أجيبك فعلاً بدقّة يا سيّدي الرئيس؟...

- ولماذا أصبحت خليلته؟...

- لقد قال لي بليخر بأنّي إذا لم أسخر منه، فسيطلق سراحي في تلك الليلة، وعندئذ، عملت على ألاّ أسخر منه.

- ألم يصدمك ذلك... أرملة ضابط فرنسيّ... بأن تصبحي خليلة لرقيب ألماني؟...

- نعم يا سيّدي الرئيس، لقد صدمني ذلك. وعلى كلّ حال فقد صدمني ذلك من الناحية الجسديّة، يا سيّدي الرئيس.

- وماذا حدث غير ذلك خلال تلك الليلة؟...

- ....

- أريد أن أعرف ماذا حدث لك من أشياء أخرى خلال تلك الليلة؟...

- ....

- إنّنا نريد معرفة كلّ ما جرى لك تلك الليلة، وهذا ما يجب عليك أن تفسّريه لنا. فقد بذلت كلّ جهودك خلال أربعة عشر شهرًا وعرضتي نفسك لأخطار جسيمة وأنت تعملين لمصلحة زمرتك من عناصر المقاومة، ثمّ في ليلة واحدة نسيت كلّ ماضيك، ونسيت فرنسا، ونسيت حتّى ذاتك، وبعد... وخلال الساعات التي تلت تلك الليلة عملت على وضع رفاقك الخمسة والثلاثين مقاتلاً، وهم من أكثر عناصر المقاومة الفرنسيّة أهميّة، بين يدي ذلك الرقيب بليخر. أذكري لنا الآن ماذا حدث لك خلال تلك الليلة!...

وركّز الرئيس "درابيه" نظراته الثاقبة على المتّهمة خلال دقيقة كاملة...

***

في الصباح الذي تلى تلك الليلة، صعد كلّ من القطّـة وبليخر، وكـان هـذا الأخير يرتدي الألبسة المدنيّة من جديد، وركبا سيّارة صغيرة تحمل لوحة فرنسيّة انطلقت بهما إلى قلب باريس، حتّى توقّفت أمام المكان الذي كان يختفي فيه "م. روشيني"، كما توقّفت عربة أخرى في ذات الوقت، ولكن دون أن تجلب أيّ انتباه لها، لأنّها كانت تحمل ركّابها ممّن كانوا يرتدون الألبسة المدنيّة والذين خرج أحدهم لشراء صحيفة يوميّة، بينما انطلق آخر ليجرّب حظّه عند أحد باعة التبغ...

تسلّقت القطّة على درجات السلّم، ثمّ طرقت باب إحدى الشقق مستخدمة في أسلوب الطرق رمزًا متّفقًا عليه، وفُتح الباب مباشرة حيث ظهر كلّ من "وشيني" و"فرانك"، وهما من الأعضاء البارزين في مجموعات المقاومة. لقد أربكتهم الدهشة لرؤية ذلك المجهول برفقة ميشلين التي همست في آذانهم بصوت خافت: "يجب القيام بعمل ما... فقد تمّ اعتقال أرمان".

ذُعر كلّ من الرجلين بهذا النبأ، ثمّ قالت لهما وهي تشير إلى بليخر:

"لا تقلقا من أجله، إنّكم لا تعرفونه، ولكنّه واحد منّا".

وتلا ذلك خمس دقائق تخلّلتها الأحاديث الوديّة.

ووجّهت القطّة أخيرًا حديثها إلى بليخر قائلة:

- إهبط وأدر محرّك السيّارة، لكي لا نضيّع الوقت سدى.

ثمّ مكثا في الشقّة لمدّة دقيقتين أو ثلاث، وحينئذٍ اهتزّ الباب تحت وطأة طرقات ثقيلة... وفتحت القطّة الباب فوجدت نفسها وجهًا لوجه مع الألمان الذين كانوا قد شهروا مسدّساتهم وهم يصرخون: "إرفعوا أيديكم".

تكرّرت إعادة هذا المشهد الذي تمّ إعداده وإخراجه بمهارة فائقة خلال الثماني ساعات التالية في عدد من المرّات، وترك بليخر القطّة تنعم بحريّتها وتتصرّف على هواها لمدّة شهرين كاملين، فقد كانت تعرف كلّ شيء، وقد عملت على خيانة كلّ من تعرفهم، فقذفت بذلك كلّ رفاقها الذين استطاعت أن تعثر عليهم إلى السجن. ولكنّ الشخص الذي كان يهدف بليخر إلى القبض عليه، وهو العقيد آكارد، وقد يبدو ذلك غريبًا، فإنّ القطّة لم تقدم على الوشاية به. وقد شهد العقيد آكارد بذلك أمام المحكمة عندما قال:

"إنّها كانت تعرف أين أختبئ، ولكنّها لم تقدم على خيانتي".

وقد اختلقت القطّة كافّة الأعذار لكي تضلّل بليخر وصرّحت له بأنّها لا تعرف أيّ شيء عن مكان أو مخبأ آكارد وأقسمت له كثيرًا ومرارًا حتّى اقتنع بأقوالها. وعرضت عليه أن تساعده في إلقاء القبض على شخصيّة أخرى لها أهميّة كبرى، وكانت تلك الشخصيّة "بيير دو فونكورت". وقد بدت ملامح الاستثارة واللهفة على وجه بليخر وهو يستمع إلى ذلك الإسم، ثمّ جالت فكرة في رأسه، دفعته ليتأمّل قليلاً، حيث قدّر موقفه خلال ذلك، وبدأ يرسم مخطّطًا جديدًا يتمكّن بواسطته من اقتناص إمكانات كبيرة...

عادت القطّة بعد ذلك إلى مقرّ قيادتها العامّة القديم، وكانت مشاريع بليخر متكاملة ودقيقة، ذلك أنّ الرجال الذين تمّ اعتقالهم لم يكونوا قد تمكّنوا بعد من إنذار رفاقهم بما حدث، كما أنّ ما وقع حتّى ذلك الحين كان لا يزال بعيدًا عن آذان رجال المقاومة.

استمرّت القطّة في عملها وهي تمثّل دورها القديم خلال شهرين من الزمن، من دون أن يراود الشكّ أحدًا من بين صفوف عناصر المقاومة رجالاً ونساءً، الذين كانوا ينظرون جميعًا إلى الرفيقة الأمينة والشجاعة ميشلين كاريه بعين

التقدير. ولذا لم يكن ليخطر في مخيّلة أحد منهم بأنّ القطّة تعرّض كلّ منظّمتهم للخراب، ذلك أنّه لم يكن هناك أيّ مبرّر للشكّ بها وهي التي اعتادت على تنظيم المجموعة، كما أنّها هي التي أثارت الشجاعة في نفوس المتخاذلين من أعضائها... لكن، في كلّ مساء، كان يتمّ اصطحاب القطّة بشكل سرّي إلى الفيلاّ التي كان يقيم فيها بليخر حيث كانت تخون رفاقها بالإخبار عن المخطّطات التي كان يتمّ وضعها في خلال النهار.

وفي ذات يوم، أعلنت القطّة أمام بليخر أنّ الهدف الرئيسيّ لعناصر المقاومة كان إقامة اتّصال مع إنكلترا بعد أن تمّ اعتقال وإيقاف كافّة عناصر الاتّصال.

عندما علم بليخر بذلك، طلب من القطّة أن تعمل على استدعاء بيير دو فونكورت إلى باريس، وشرح لها أنّ فونكورت يجب أن يذهب إلى إنكلترا، كما يجب عليها أيضًا أن تدفع رفاقها كي يصرّوا على ذهاب فونكورت لأنّه خير من يصلح لأداء هذه المهمّة.

في الليلة التالية، ذكر بليخر أمام القطّة أنّه يحمل لها مفاجأة سارّة: "عندما ستعودين إلى مقرّك، ستجدين هناك فيوليت التي لم تُعتقل في الواقع أبدًا لأنّها كانت تعمل معنا دائمًا، وسوف لن تتكلّم عن أيّ شيء، وبإمكانك الوثوق بها، وعليك الاهتمام بها لأنّ مهمّتها هي البقاء في صفوف المقاومة".

نفّذت القطّة كافّة الأوامر التي أعطيت لها، حيث قابلت بيير دو فونكورت وكذلك بعض عناصر المقاومة الأخرى في أحد مشارب الشانزيليزيه، واسمه "بام بام"، وتقدّمت بعرضها الذي تقبّله الجميع بالترحاب. ولقد اتُّخذ القرار بإرسال بيير دو فونكورت للالتحاق بإنكلترا في مهمّة إعلام رفاقهم عمّا كان يدور في الطرف المقابل للمانش، وطلب أيّ تعليمات جديدة، ولم يكن تنفيذ المهمّة بالأمر السهل، فقد قام بعض

الخونة على دلّ الألمان إلى الممرّات السريّة التي كان رجال المقاومة يستخدمونها للوصول إلى إسبانيا، كما كان الألمان أيضًا على علم بالنقاط المحدّدة لاستخدامها في إنزال القوارب والغوّاصات الإنكليزيّة.

عادت القطّة بعد عدّة أيّام من الاجتماع إلى بام لرؤية أصدقائها مجددًا وأعلمتهم أنّها تمكّنت من العثور على الوسيلة التي يستطيعون بواسطتها من الوصول إلى إنكلترا، كما شرحت لهم أنّها يجب أن ترافق بيير دو فونكورت، وذلك لأنّها أصبحت معروفة هناك، كما أنّ وجودها معه من شأنه أن يذلّل الصعاب في سبيل تنفيذ المهمّة.

وافق الآخرون مباشرة على هذا الاقتراح وهنّأوها على ذلك، وهم يشعرون تجاهها بعرفان الجميل، وكانت بالنسبة لعناصر المقاومة في الواقع بمثابة البطلة التي تستحقّ كلّ الشهرة، فقد كانت أكثر الجميع تألّقًا، وأرجح الجميع رأيًا وأشجعهم طرًّا.

حرص بليخر على أن تتمكّن القطّة من مغادرة فرنسا، دون أن يداهمها أيّ خطر، ذلك لأنّها عندما تتمكّن من اجتياز فرنسا، لن يبقى أمامها أيّ صعوبة للوصول إلى إنكلترا، وبذلك تمكّن بليخر من إدخال عميلته القطّة مع بيير دو فونكورت الذي لم يكن ليشكّ أبدًا في أمرها، إلى قلب وزارة الحرب في لندن.

عملت القطّة هناك لمدّة تسعة أشهر، كانت في خلالها تقوم بنقل كلّ ما تعلّمته إلى فرنسا عن طريق القنوات التي أنشأها رجال المقاومة، وكانت هذه المعلومات جميعًا تصل إلى فيوليت التي كانت تقوم بدورها بنقلها إلى بليخر.

ولكن... أتى اليوم الأسود الثاني في حياة القطّة، فقد راودت الشكوك رجال منظّمة مكافحة الجاسوسيّة البريطانيّة حولها...

في الوقت نفسه، أدركت الشكوك رجال المقاومة الشجعان في فرنسا، ورجال السكوتلانديارد، وهم يدقّقون جميعًا في كافّة ما جرى ويجري، فتمّ اعتقال القطّة في شهر تموز ـ يوليو ١٩٤٢، وأُلقي بها في أحد السجون البريطانيّة، ومكثت هناك حتّى نهاية الحرب.

كتبت القطّة في صفحة من مذكّراتها أثناء إقامتها في السجون البريطانيّة نصّ رسالة وجّهتها إلى رفاقها في المقاومة الفرنسيّة جاء فيها:

"آه! كم أتألّم وأنا في سجني، وإنّني لم أتمكّن أبدا من العثور على الكلمات التي أستطيع أن أعبّر بها عن حزني العميق والأبدي... كما إنّني لا أستطيع أن أصف مخاوفي، ولكنّني لست وحيدة هنا، إنّكم جميعًا، أنتم الذين لا زلتم على قيد الحياة، معي، وإنّكم سوف لن تتمكّنوا من النوم أيضًا في هذا المساء، لأنّكم ستكونون إلى جانبي... وأنتم يا من قضيتم أجلكم، وأنا منكم... إنّنا سنعيش ونحن نسير حسب شريعتنا الخاصّة في عالم سأنتصر عليه من أجلنا جميعًا"...

في كانون الأوّل ـ ديسمبر من عام ١٩٤٩، كانت القطّة تجلس أمام حكّامها، وكان يبدو عليها الهدوء التامّ، بينما كانت عيناها الحالمتان تنظران إلى السقف الذهبيّ لتلك الصالة المشوّشة الصاخبة.

تكلّم النائب العامّ للجمهوريّة فقال:

ـ لقد زاولت هذه التي أمامكم لمدّة شهرين أعمال الخيانة في أرهب صورها الممكنة، ولقد كان خبثها وخداعها، وإغراقها في الشرّ، ومذكّراتها التي قُرأت عليكم نصوص منها، والتي تصفها كما هي على حقيقتها: عقل مفكّر وامرأة بدون قلب... وعليكم أن تُصدروا حكمكم على كلّ هذا... ولا شكّ بأنّكم تشعرون معي بأنّ العقوبة الوحيدة التي يمكن تطبيقها جزاء وفاقًا هي الموت.

أمّا محامي الدفاع فقد أوجز دفاعه بقوله:

- إنّني أعترف أمامكم بذنبها، ولكن عليكم أن تدركوا بأنّ العمل الذي أقدمت عليه هذه المرأة كان نتيجة لذلك الموقف الذي لم يكن لها خيار فيه: فإمّا الحياة أو الموت... وعليكم ألاّ تنسوا أنّها كانت تعمل مع المقاومة منذ البداية، وقد كانت عنصرًا بطوليًّا من عناصر المقاومة... كما يتوجّب عليكم أن تصدروا الحكم بالموت على كلّ أولئك الذين سبقوها فعملوا على بذر بذور الثقة ثمّ عملوا بعد ذلك على دفعها إلى الخيانة...

قبل أن يتمّ إصدار الحكم، فقدت القطّة هدوء أعصابها، وكانت تلك هي المرّة الوحيدة التي وقع لها ذلك، فصرخت أمام المحكمة:

- ...ولكنّني لا أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير لأتذكّر أنّه في الوقت الذي يطلب فيه النائب العامّ الموت لي، فإنّ هبغو بليخر ينعم بحريّته في هامبورغ...

وأصدرت المحكمة حكمها الذي كان متوقّعًا: الموت. ولكن بعد عدّة أشهر أنزل رئيس الجمهوريّة عقوبة الموت التي صدرت بحقّ ميشلين كاريه إلى السجن مدى الحياة[١].

---

١ ـ سنجر كيرت، أعلام الجاسوسيّة العالميّة، ترجمة بسّام العسلي، دار اليقظة العربيّة (بيروت،١٩٦٥) ص٢٩٧ ـ ٣١٤؛ زهر الدين د. صالح، ملف الاستخبارات الفرنسيّة والبريطانيّة، المركز الثقافي اللبناني (بيروت،٢٠٠٣) ص٦٩ ـ ٩٤.

الكونتيسَّة مارغريت دي أندُورين

في إحدى ليالي شهر تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٤٨، أُلقي بكيس كبير في مياه خليج طنجة المتلألئة في ضوء القمر، من منزل يطلّ على الميناء، وبداخل الكيس كانت جثّة الكونتيسّة "مارغريت دي أنديورين"، أرملة الكونت "بيير دي أندروبين"، التي كانت لسنوات طويلة من أخطر مصادر الدسائس في شؤون الشرق الأوسط.

بعد ذلك بشهرين، استمع بوليس الدار البيضاء إلى قصّة غريبة تحكي نهاية الكونتيسّة يرويها "هانز آبل"، وهو عميل سابق لجهاز المخابرات النازي "الغستابو"، كان يحمل إسمًا مستعارًا هو "ريناتو بونسيني". وطبقًا لما رواه هانز آبل هذا، فإنّه هو الذي ألقى بجثّة الكونتيسّة في مياه الخليج بعد أن ركلها برجليه من الطابق العلويّ في الفيلاّ خاصتّها، وكان آخر الرجال الكثيرين في حياتها...

السؤال الذي حيّر الكثيرين كان: لماذا يعترف آبل هكذا بقتل الكونتيسّة، مع العلم بأنّه لم يتمّ العثور على جثّتها؟...

كان آبل وصديقته "هيلين كولتز" يقومان برعاية اليخت الذي تملكه الكونتيسّة والذي كان يحمل اسم "جيلان". وقال آبل إنّ الكونتيسّة كانت قد أتت إلى المغرب، لكي تساعد على تهريب النازيّين السابقين، الذين يعيشون في إسبانيا، إلى أميركا اللاتينيّة عن طريق ميناء طنجة. وأوضحت تحريّات البوليس الفرنسيّ أنّ الكونتيسّة تقوم كذلك بعمليّات لتهريب الذهب من الكونغو.

حدثت مشادّة بين هانز آبل ومستخدمته المتوسّطة العمر عندما اكتشفت أنّ عشيقها يهتمّ بدرجة أكبر بالفتاة "هيلين كولتز"، وكانت أصغر منها سنًا وأكثر جاذبيّة...

بعد أن قتل هانز الكونتيسّة قام ببيع محتويات اليخت لتاجر من طنجة، ثمّ فرّ هاربًا إلى الدار البيضاء، تصحبه صديقته هيلين.

من خلال تلك القضيّة، تمكّن الإسرائيليّون من تحقيق أوّل نجاح لهم في عمليّة تعقّب واقتناص النازيّين السابقين، وكان معظمهم قد هرب إلى أميركا اللاتينيّة...

كانت مارغريت دي أنديورين إبنة لقاض فرنسيّ، استطاعت في صغرها، حتّى وهي لا تزال فتاة ذات سبعة عشر ربيعًا، أن تلفت الأنظار بجمالها وسرعة بديهتها ولباقتها في الحديث. ثمّ تزوّجت الكونت بيير أنديورين، وهو أحد النبلاء الفرنسيّين، وكان له اهتمام خاصّ بالشرق الأوسط. وفي العام ١٩١٨، سافر الزوجان إلى لبنان، وبدآ يتاجران في اللؤلؤ. وتعلّمت الكونتيسّة اللغة العربيّة، وكان يطيب لها دائمًا أن ترتدي الأزياء العربيّة.

عُرفت الكونتيسة بين أصدقائها باسم "مارغا"، وقد عاشت حياة غريبة غامضة، وكانت كثيرًا ما تذهب إلى مناطق نائية بمفردها، وكانت لها سيطرة دائمًا على كلّ من عرفت من الرجال الأوروبيّين والعرب... ثمّ اشترت فندق "غراند أوتيل" في بالميرا ـ تدمر، في الصحراء السوريّة، وهي مدينة صغيرة قديمة تقع على بعد ١٢٠ ميلاً من دمشق، وغيّرت إسم الفندق ليصبح "أوتيل دي لارين زينوب"، واشتهر الإسم بين البدو، ولكنّهم كانوا يطلقون عليه إسم "فدق ملكة سبأ".

خلال ما بين العامين ١٩١٨ و١٩٢٥، أصبح لمارغريت دي أنديورين دور في عالم الجاسوسيّة، وبدأ هذا الدور على الأرجح بأن اشتغلت كعميلة للفرنسيّين. والتقت

"لورانس العرب"، ويقال إنّها حاولت أن توقعه في حبائلها لكن لورانس، وقد كان مثليًا يخجل من النساء، هرب منها مذعورًا. ثمّ كانت لها قصّة غراميّة مع أحد ضبّاط المخابرات البريطانيّين وهو الكولونيل "سينكليز" الذي وجد بعد ذلك ميتًا في دمشق، واعتبرت وفاته بسبب الانتحار... وفي العام ١٩٢٥، طلّقت مارغا زوجا، وتزوّجت أحد المشايخ الوهّابيّين واسمه "سليمان"، وقد أخذها سرًّا إلى مكّة متنكّرة في ثياب رجل لكي يحقّق لها رغبتها في مشاهدة الكعبة والحجر الأسود.

وهناك روايات عديدة حول ما حدث نتيجة لرحلتها تلك، وتقول إحدى هذه الروايات إنّ أمرها قد اكتُشف أثناء رحلة الحج، وأُلقي القبض عليها وحُكم عليها بالرجم حتّى الموت، لكنّ الملك سعود تدخّل لينقذ حياتها.

وهناك رواية أخرى تقول إنّ الشيخ سليمان قد حبسها في جدّة، وإنّها ثارت لذلك، وبعدها بأيّام قليلة مات الشيخ مسمومًا... ومن المؤكّد أنّ الشيخ سليمان قد مات، لكن ليس واضحًا ما إذا كان الملك بن سعود قد أنقذها من الإعدام لقتل زوجها بالسمّ أو لسفرها إلى مكّة.

خلال زمن قصير عادت مارغا إلى تدمرر وأعيد زواجها من الكونت مرّة أخرى في عام ١٩٣٧، وفي خلال شهرين من عودتها إليه وجد ميتًا في حديقة الفندق وقد مزّقت ظهره سبع عشرة طعنة سكّين، وأُلقي القبض على رجلين، طُعن أحدهما حتّى الموت داخل السجن، قبل أن يتفوّه بكلمة. وبعد ذلك، وكانت الكونتيسّة لا تزال على أناقتها وجاذبيّتها، فقد خلطت بين التجسّس والأعمال التجاريّة المريبة، إذ كانت تهرّب الذهب إلى فرنسا، وكانت تتاجر في جوازات السفر المزوّرة... وكانت في سفريّاتها تحلّ في أرقى الفنادق من نيس إلى القاهرة. ومع نشوب الحرب العالميّة الثانية كانت في باريس، وقامت ببعض أعمال بسيطة للتجسّس لحساب النازيّين، ولكن يبدو أنّهم لم

يدفعوا لها الكثير... وفي عام ١٩٤٥ كانت تعيش في شقّة أعارها أيّاها ابن شقيقها الذي كان محاميًا شابًّا في باريس، ويدعى "ريموند كليريس"، ولمّا طالبها بإعادة الشقّة له حدثت مشاجرة بينهما... وبعد ذلك بوقت قصير وجد المحامي الشابّ يتلوّى من الألم، واتّهم مارغا بأنّها قدّمت له شوكولا مسمومة، وكان ذلك في حضور مارغا نفسها وخادمتها، وقد توفّي الشاب، وتمكّنت مارغا من الفرار من باريس، لكن أُلقي القبض عليها بعد ذلك بشهور قليلة، ووُجّهت إليها تهمة الاشتراك في قتل ريموند كليريس، لكنّ المحكمة برّأتها بعد ذلك.

منذ ذلك اليوم، اشتهرت مارغا، بأنّ عدّة قوى ومنظّمات راحت تسعى للقضاء عليها... فقد كان لها أعداء كثيرون، من بينهم عميل سوفياتي، قيل إنّه كان يتعقّبها كظلّها في الشهور التي سبقت وفاتها. وإنّ ما جعل الخدمة السريّة في عدد من الدول تهتمّ بأمر مارغا، كان بلا شكّ دورها في مساعدة النازيّين السابقين ومحاولتها تهريبهم من أوروبّا. وكان أحد العملاء الإسرائيليّين في طنجة هو الذي اكتشف، بعد تحريّات أجراها عن الكونتيسّة ونشاطها، عمليّة تهريب النازيّين، وعدد الذين كانوا يشقّون طريقهم إلى أميركا اللاتينيّة بواسطتها... هذا العميل أصبح يملك مصرفًا في روما، وهو لم يحظ بالتقدير الكافي لدوره الأساسيّ في المساعدة على بدء حملة عالميّة بواسطة الاسرائيليّين للبحث عن النازيّين واصطيادهم. فمن دون ما قام به هذا العميل، لما كان أمكن اصطياد أيخمان وكثيرين غيره.

والواقع أنّ الكثيرين في إسرائيل لم يأخذوا مأخذ الجدّ ما كان يرد من تقارير تفيد بأنّ عمليّات كانت تجري لتهريب النازيّين البارزين، بطرق سريّة، من أوروبّا إلى الأرجنتين وباراغواي وأورغواي وحتّى البرازيل وبيرو. وكان المستر "إكس"، العميل الإسرائيلي في طنجة، هو الذي تعقّب هانز آبل في الدار البيضاء، وبدون ما قام به من

تحريّات لم يكن من الممكن إلقاء القبض على أحد في قضيّة مقتل مارغا. فقد كان هناك من اعتقد أنّه ما دام لم يعثر على جثّتها، فإنّها ربّما كانت لا تزال على قيد الحياة، وأنّها هي التي اختلقت قصّة مصرعها. ومع ذلك فقد حُكم على هانز آبل بالسجن لمدّة عشرين عامًا، ويبدو أنّه لم يكن هناك أدنى شكّ في أنّه مذنب. فقد ضُبط معه ومع هيلين كولتز ساعة إلقاء القبض عليه جوازات سفر سويسريّة مزيّفة.

قبل اختفائها بمدّة وجيزة، كانت الكونتيسّة قد تقدّمت بطلب تأشيرة لزيارة جبل طارق في يختها "جيلان"، لكن طلبها رُفض بسبب ارتباطاتها المعروفة مع النازيّين. ولمّا كان للمستر إكس صلات قويّة بأفراد قوّة الأمن البريطانيّة في جبل طارق، فقد أمكنه القيام برحلة من طنجة عبر المضيق، وعَلم أنّ لهذه المرأة دورًا كبيرًا في مساندة العرب في نزاعهم مع اليهود في فلسطين... وكدليل على ذلك، أمكنه الحصول على صور فوتوغرافيّة لعدد من الوثائق زعم أنّها كانت قد سُرقت من الكونتيسّة. ومن بين تلك الوثائق خطاب سرّي للغاية مرسل لها من الملك عبدالله ملك الأردن، وهو كاف جدًّا لإدانتها. واعتمادًا على تلك الوثائق، بدأ المستر إكس في جمع المزيد من المعلومات في مدينة "تطوان" عاصمة القطاع الإسباني في المغرب، وتمّت مواجهة بينه وبين أحد شركاء الكونتيسّة الإسبان، وانتزع منه قائمة بأسماء أكثر من ثلاثين نازيًّا، أمكن تهريبهم إلى أميركا اللاتينيّة، عن طريق الشبكة التي كانت تديرها الكونتيسّة.

مضى بعض الوقت قبل أن يتمكّن المستر إكس من نقل هذه المعلومات إلى تلّ أبيب، ربّما لأنّه لم يكن من كبار عملاء الموساد. وحتّى بعد أن نقل المعلومات، كانت هناك أصوات تنادي بإجراء المزيد من البحث والتحرّي قبل اتّخاذ أيّ إجراء. فالذي كان يعني المسؤولين في المخابرات الإسرائيليّة فعلاً لم يكن فرار النازيّين بقدر ما كان

مفزى هذا الفرار، وهل تكشف شبكة تهريب النازيّين عن أيّ اتّجاه لإحياء النازيّة والفاشيّة في أوروبّا ذاتها وهل هناك أيّ دلائل على قيام حزب نازيّ سرّي جديد في ألمانيا أو غيرها. ولهذا السبب فقد كان هناك بطء في تحرّك الإسرائيليّين لتعقّب واصطياد النازيّين السابقين إذ كانوا يخشون أن يترتّب على أيّ إجراء متسرّع أو سابق لأوانه فشلهم في معرفة مَن الذين يساندون ويساعدون مجرمي الحرب هؤلاء، كما يقول بعض الباحثين الذين يضيفون، أنّه على ضوء الخبرة، فإنّ ذلك يبدو أنّه ذعر أو هوس من النازيّة، قد استبدّ بالإسرائيليّين، وبالتالي فقد أصابهم هلع لا مبرّر له من تصوّر إحياء العقيدة النازيّة مرّة أخرى[1]...

---

١ ـ ديكون ريتشترد، الموساد، جهاز الموت اليهوديّ الدامي، تعريب لجنة الإعداد والترجمة، المكتبة الثقافيّة (بيروت،١٩٩٥) ص١٣١ ـ ١٣٨.

المصريّة التي لم تقع في الشبّاك

جنّدت المخابرات الإسرائيليّة المصري "محمّد ابراهيم فهمي كامل" للعمل معها بطريقة أغرب من الخيال، ولا تحدث سوى في الأفلام السينمائيّة.

محمّد ابراهيم فهمي كامل الذي كان يلقّب بـ"ماريو"، كان يملك محلاً لبيع قطع تبديل السيّارات في الإسكندريّة، ويعيش مع زوجته في شارع محرّم بك، وله زوجة ثانية أسكنها في "الدقّي" بالقاهرة... وسبب لقبه بماريو أنّه بدأ حياته ميكانيكيًّا في الإسكندريّة، وأغلب زبائنه من الإيطاليّين، حيث تعلّم الإيطاليّة وأخذ يتكلّمها بطلاقة حتّى أطلق عليه أصدقاؤه لقب مايو. ولكنّ حالته الماديّة ساءت بعد سفر الإيطاليّين من الإسكندريّة لا سيّما وهو يعيل زوجتين...

استخرج ماريو حالاً جواز سفر وتوجّه إلى ميلانو. وهناك بحث عن أصدقائه القدامى الذين ساعدوه على بيع ما حمله من هدايا من "خان الخليلي"، وابتياع قطع سيّارات، والعودة بها إلى الاسكندريّة بعد تهريبها من الجمارك... وبعد عدّة سفرات، أوجد له أصدقاؤه عملاً في شركة "راواتيكس" واستحصلوا له على تصريح عمل وإقامة في إيطاليا. فتحسّنت أحواله بعض الشيء، وأخذ يتنقّل من روما إلى ميلانو، إلى الإسكندريّة.

في إحدى رحلاته التجاريّة إلى روما، وفي المطار، تقابل مع صديق يهوديّ قديم سبق أن غادر الإسكندريّة في عام ١٩٥٢، واسمه "ليون لابي". وبعد العناق والسؤال

عن الأحوال، تواعد الاثنان على اللقاء في ميلانو، مقرّ عمل محمّد أو ماريو. وبعد أسبوع اجتمعا، فدعا لابي صديقه القديم لتناول الغداء في مطعم فاخر من مطاعم ميلانو... وأثناء الحديث سأله لابي عن حالته الماديّة، وعن سبب إقامته في ميلانو، وأيضًا عن الحالة الاقتصاديّة في مصر، فأجابه ماريو بسوء الأحوال... ثمّ شكا له الفقر وعدم استطاعته تحقيقر آماله. فابتسم لابي في نهاية الحديث وطلب منه أن يزوره في مكتبه الكائن في ميلانو، شارع أوروبّا رقم ١٢، الطبقة الثانية...

ذهب ماريو في اليوم التالي إلى العنوان، ليجد فوق الباب "نجمة إسرائيل السداسيّة"، وعلى اليسار لوحة نحاسيّة كتب عليها باللغة الإنكليزيّة "القنصليّة الإسرائيليّة". ومع ذلك قرع الجرس ففتحت له سكرتيرة جميلة الباب... سألها عن لابي، فأدخلته مبتسمة إلى مكتبه الفخم، واستقبله لابي بقوله: "ماريو... أنت صديق قديم يمكن الوثوق به، وأنا أحتاج إليك في عمل... وستربح كثيرًا من المال، وتحقّق جميع آمالك التي حدّثتني عنها بالأمس"... وقبل أن يصحو ماريو من المفاجأة، أردف لابي قائلاً: "قابلني في روما في فندق ريتز"... وودّعه بابتسامة عريضة.

في روما، توجّه ماريو إلى الفندق، فوجده من أفخم فنادقها، بينما كان يظنّه مثل فنادق ميلانو التي كان يتردّد إليها، ويدفع ما بين ٢,٥٠٠ و٧,٥٠٠ لير في الليلة...

حضر لابي حسب الموعد، وحجز له جناحًا في هذا الفندق، وأعطاه مئة دولار، وطلب منه أن يستريح هذا اليوم.

وفي اليوم التالي، حضر لابي في الساعة العاشرة صباحًا، ومعه يهوديّ آخر يتكلّم اللغة العربيّة بطلاقة تامّة، وقدّمه لماريو باسم "إبراهيم"، على أنّه يعمل في المخابرات الاسرائيليّة لمكافحة الشيوعيّة في البلاد العربيّة. فرحّب به ماريو، وتكلّم معه إبراهيم بصراحة قائلاً: "لقد حدّثنا عنك صديقك لابي، الذي يعرفك منذ زمن طويل. ونحن

نعمل في مكافحة الشيوعيّة في المنطقة. ولا نريدك أن تخون وطنك... كلّ ما هو مطلوب منك لقاء راتبك الذي سيكون ٣٠٠ دولار شهريًا هو بعض المعلومات عن خطر الشيوعيّة فقط.

وافق ماريو فورًا على حديث إبراهيم المغلّف بمكافحة الشيوعيّة. وهنا أفهمه إبراهيم أنّه يجب أن يتبع دورة لتعلّم أصول المهنة. وتولّى مع ضابط آخر إسمه "فوراحي" مهمّة التدريب على استعمال الحبر السرّي، والتصوير باستخدام كاميرا "كارل زايس"، وسلّماه كاميرا من نفس النوع لاستعمالها. وعلّماه كيفيّة قياس المسافات والارتفاعات. وتعلّم أيضًا بعض فنون الحرب النفسيّة من إطلاق الشائعات والنكات... باعتبار الشعب المصريّ يحبّ النكتة...

انتهى الشهر الأول بالتدريب، وقبض ماريو أول راتب حرام من المخابرات الإسرائيليّة. وعاد إلى القاهرة ليمضي بعض الوقت مع زوجته، ليعود إلى إيطاليا ليكمل عمله. وبناء على طلب المخابرات الإسرائيليّة، بدأ بالحصول على المعلومات من المصريّين الذين أخذوا يتوافدون إلى إيطاليا لشراء السيّارات وهم من جميع فئات الشعب، أطبّاء ومهندسون ورجال أعمال وميكانيكيّون... كلّهم بحاجة إلى سيّارة، وكان ماريو يتلقّفهم ويساعدهم في الشراء ويسهّل لهم أعمالهم ويستغلّ الظروف أحسن استغلال بتبادل الأحاديث معهم، ويحصل منهم على المعلومات التي تريدها المخابرات الإسرائيليّة.

زادت ثقة رؤساء ماريو به، فطلبوا منه تجنيد من يراه مناسبًا من المصريّين للعمل معهم، فتذكّر فتاة مصريّة مثقّفة سبق أن قابلها في القاهرة، وأخبرته برغبتها في شراء سيّارة من إيطاليا لتشغيلها "تكسي"، تستعين بإيرادها على الحياة... كما أنّها لا تمانع في العمل إذا وجدت لها عملاً مناسبًا. فكتب لها رسالة مضمونة طلب منها

عبرها الحضور حالاً إلى إيطاليا. وفعلاً، حضرت الفتاة ومعها ما ادّخرته من مال... وفي روما استقبلها ماريو، وأخذ يتجوّل بها على الأماكن التي تبيع السيّارات. وكان يعتمد رفع أثمان السيّارات، بالنظر إلى أنّ الفتاة لم تكن تلمّ باللغة الإيطاليّة. وأخيرًا اشترى لها سيّارة "فيات ـ ١٢٥" بجميع ما لديها من مال، ولم يبق معها ثمن أجرة الشحن...

أوقفت الفتاة السيّارة أمام الفندق، وحارت كيف تتصرّف... وهي لا تملك شيئًا. وكان ماريو يعتمد تركها عدّة أيّام وحيدة بدون مال، لكي يتمكّن من تسخيرها في النهاية لخدمة المخابرات الإسرائيليّة.

ظهر ماريو فجأة بعد غياب عدّة أيّام، واعتذر لها بانشغاله، ثمّ دعاها إلى العشاء في مطعم فخم... وأثناء العشاء كان يجلس بالقرب منها شخص وسيم خطّ الشيب شعره... تقدّم منها بأدب وسألها هل يزعجها لو طلب من إدارة المطعم إغلاق جهاز الحرارة لكي لا يصابوا بالبرد عند الخروج من المطعم؟ فوافقت، وبعد الشكر جرى التعارف... وأصرّ ماريو على دفع الحساب... ولكنّ الرجل الآخر رفض ذلك إلاّ إذا قبلا دعوته للعشاء في اليوم التالي... وقبلا الدعوة، وبعد العشاء أوصلهما بسيّارته... وفي الطريق، جرى الحديث باللغة الانكليزيّة التي تجيدها الفتاة عن حاجتها إلى وظيفة، فوافق الرجل على مساعدتها للحصول في اليوم التالي على وظيفة. ولكنّ ماريو اعتذر بحجّة انشغاله، وقبلت الفتاة بأن تقابل الرجل لوحدها، في أحد المطاعم، حيث أخبرها بأنّ لديه مؤسّسة مالية تستثمر الأموال في المشاريع الإنمائيّة، وأنّه سوف يجعلها مندوبة لمؤسّسته في القاهرة، ولا يطلب منها الآن سوى السفر على حساب المؤسّسة إلى القاهرة وموافاته بمعلومات عن الحالة الاقتصاديّة هناك، لأنّ مؤسّسته تريد الاطمئنان قبل أن تفتتح فرعًا لها في البقاهرة. ومن ثمّ وجدت الفتاة أنّه دفع عنها

حساب الفندق المتراكم عليها، وهنا ظهر ماريو وأخبرها أنّه شحن لها السيّارة، فأعلمته بأمر الرجل، فوافق بحرارة، وتمنّى لها التوفيق...

نسي ماريو وصديقه ضابط المخابرات الإسرائيليّ الذي طلب من الفتاة المعلومات عن الحالة الاقتصاديّة في مصر أنّ البشر ليسوا من طينة واحدة. فإذا كان ماريو قد باع وطنه بمبلغ سبعة آلاف دولار، وهو مجموع ما كان قبضه من أموال المخابرات الإسرائيليّة، فإنّ هذه الفتاة المثقّفة المصريّة التي لا عمل لها، وتعيل أسرة كبيرة، رفضت أن تبيع أسرار وطنها... ولو بما كان سيصلها من الملايين، فتوجّهت فور وصولها القاهرة إلى إدارة المخابرات بعد أن اقتنعت بأنّ ما عُرض عليها إنّما هو التجسّس على وطنها، ذلك أنّ "رجل المطعم" صاحب المؤسّسة الماليّة تقرّب منها بطريقة تدعو للشكّ، وطلب منها معلومات قيّمة عن بلدها، ودفع عنها حساب الفندق، وحجز لها الطائرة...

وماريو، بعد أن أوقعها في حبائل المخابرات الإسرائيليّة، قام بشحن سيّارتها على حسابه بدون أن يطالبها لدى وداعها بأيّ شيء... كلّ ذلك قدّمته للمخابرات المصريّة، فوجدت أنّ لدى هذه الأخيرة ملفًّا كاملاً عن ماريو... وعرض عليها رجال المخابرات المصريّة صورًا التُقطت لماريو في أماكن مختلفة في إيطاليا من قبل المخابرات العربيّة التي كانت على علم بأمره... بل وكانت تراقبه وتنتظر الدليل لإدانته، وها هو الدليل بين يديها...

رسمت المخابرات خطّة بارعة للفتاة للإيقاع بماريو. وما هي إلاّ أيّام حتّى وصل ماريو إلى القاهرة، واتّصل بالفتاة، وبلّغها تحيّات "صاحب المؤسّسة الماليّة"، وأعلمها بأنّه ينتظر منها المعلومات التي طلبها، لكي يقوم على ضوئها باعتمادها مندوبة لمؤسّسته بالقاهرة، فوعدته خيرًا، وكتبت، بمعرفة المخابرات المصريّة، تقريرًا مفصّلاً

عن الأحوال الاقتصاديّة في مصر مؤلّفًا من عدّة صفحات... فأُعجب ماريو بالتقرير كثيرًا وشكرها وشجّعها على السفر قريبًا، وذهب يجمع المعلومات والصور لينقلها إلى المخابرات الإسرائيليّة...

خرج ماريو من منزله صباحًا وهو يحمل حقيبته المملوءة بأسرار بلده متوجّهًا إلى منزل الفتاة، ليصطحبها معه... فاعتقله رجال المخابرات العربيّة بعد إعلام النيابة العامّة، واقتيد إلى المحكمة العسكريّة ليحاكم على ما ارتكبه من خيانة وتجسّس بحقّ وطنه، وقد نُسبت إليه الجرائم التالية:

١ ـ حصوله بصورة غير مشروعة على أسرار عسكريّة وإفشاؤها إلى المخابرات الإسرائيليّة.

٢ ـ التخابر مع العدوّ لمعاونته في الإضرار بمصر حين العمليّات الحربيّة.

٣ ـ تقاضي مبالغ من المال (٧ آلاف دولار) مقابل إفشاء أسرار.

٤ ـ تحريض مواطنة مصريّة على ارتكاب التخابر، والحصول على أسرار هامّة بقصد إفشائها إلى العدوّ.

... المواطنة المصريّة أدّت واجبها كاملاً تجاه وطنها. والمسؤولون في المخابرات لم يبخلوا عليها بالمساعدة لقاء وطنيّتها. فقد عُيّنت في وظيفة تتناسب وثقافتها لتأمين مستقبلها بينما سيّارتها التي اشترتها بواسطة ماريو تعمل "تكسي" كما رغبت، وإيرادها يساعدها على العيش موفورة الكرامة، بينما وقف ماريو أمام المحكمة العسكريّة التي يرأسها العميد "أسعد محمود اسماعيل" وبعضويّة المقدّم "فاروق عبد الستّار خليفة"، والمقدّم "أحمد جمال عيسى غلاّب"، وممثّل النيابة العسكريّة العميد "مكّي"، والمقدّم "عزّ الدين رياض"، كما عُيّن للدفاع عن المتّهم المحامي "علي الرجّال".

كرّر المتّهم ماريو اعترافه أمام المحكمة، فقضى حكمها بإعدامه شنقًا، واكتسب الحكم موافقة رئيس الجمهوريّة لعدم وجود ما يستدعي الرحمة بالمتّهم. ونُفّذ الحكم في أحد السجون بالقاهرة ليضع خاتمة لقصّة ماريو العجيب، الذي سيتذكّره بعض الذين قابلهم في إيطاليا، ولم يخطر في بالهم أنّه جاسوس[١].

١ ـ الجزائري سعيد، المخابرات والعالم، دار الجيل (بيروت،لا.ت.) ١: ٦٠ ـ ٦٥.

خيانة رئيسة مخابرات القنال

في بداية خمسينات القرن العشرين، كان اللواء صلاح الدين متولّي، الضابط السابق في قوى الأمن المصريّة، مديرًا للمباحث العامّة في منطقة القنال بمصر. وكانت القوّات البريطانيّة موجودة في تلك المنطقة، أيّ أنّ الاستعمار البريطانيّ كان لا يزال يتحكم بمصير الشعب المصريّ. وكانت المقاومة الشعبيّة المصريّة في ذلك الوقت على أشدّها للعمل على إخراج هذا المستعمر من أرض مصر، وتسعى جهدها إلى إقلاق أفراد هذه القوّات وبثّ الذعر في نفوسهم حتّى يفكّروا تفكيرًا جدّيًّا في عدم الانتظار ليغادروا مصر إلى غير رجعة.

كانت المعسكرات البريطانيّة على امتداد قنال السويس من بور سعيد والاسماعيليّة حتّى السويس، وكان لهم في هذه المناطق كلّ شيء: محلاّت السوبرماركت، النوادي، المسابح، المساكن، المستشفيات... منتشرة على ضفاف البحيرات وكافّة سبل المواصلات. وبذلك كانوا يشكّلون مملكة داخل مملكة، وكأنّهم يعيشون في بريطانيا نفسها، والفارق هو جمال جوّ مدن القنال المصريّة.

وقد اتّحد الشعب المصريّ في كفاحه ضدّ المستعمر... فقد امتنع التجّار في منطقة القنال عن البيع إلى الأجانب في المنطقة سواء كانوا من العاملين في القوّات البريطانيّة أو في شركة القنال من الفرنسيّين. وبدأ اللواء متولّي بتنظيم المقاومة الشعبيّة.

عرف متولّي أن الأغذية كانت تُستورد لهم من الخارج، إلاّ أنّهم كانوا بحاجة ماسّة إلى الألبان ومشتقّاتها، ومنتجات الطيور، وجميع أصناف الخضروات والفواكه،

واللحوم الطازجة. وبدأ اللواء متولّي بالإشراف على أفراد المقاومة الشعبيّة... فكان يتمّ القبض على أيّ شخص وطنيّ يتعامل مع الإنكليز سواء بالمساعدة أو الاتّجار... وقد تمكّن مع المقاومة الشعبيّة من الاستيلاء على الكثير ممّا كان يرسَل لهم من الخارج من معدّات وأغذية، فبدأوا يشعرون بالحصار الوطنيّ المدبّر. وكانوا في البداية يتعاملون مع متعهّدين للحوم والخضروات والفاكهة ومنتجات الألبان، ويعتمدون على مقاولين محليّين في كلّ شيء. وبدأت المقاومة الشعبيّة المصريّة في قطع ذلك عنهم تدريجًا.

كان رجال المخابرات البريطانيّة ينشطون للحصول على تحرّكات المقاومة المصريّة وما ترمي إليه. وكان اللواء متولّي معروفًا منهم بالطبع بأنّه يوجّه ويقود الحركة ضدّهم، وعلى ذلك كان اللواء متولّي نصب أعينهم، وكان يعاونه بعض الضبّاط وضبّاط الصفّ والعساكر وبعض المرشدين...

فقد درج البوليس المصري على الاستعانة بالمرشدين لكشف العصابات والأعمال المخلّة بالأمن، ويسمّى هؤلاء في بعض البلدان العربيّة المخبرون، وتستعملهم المخابرات أيضًا بكثرة...

كان المرشدون الذين جنّدهم اللواء متولّي موثوقًا بهم، وكان يستعين بهم في مجال الاطّلاع على أعمال ومؤامرات البريطانيّين، وقد ذُهل البريطانيّون من نشاط المقاومة المصريّة رغم قدرة مخابراتهم التي اشتهروا بها.

في تلك الحقبة الحرجة، دخل أحد الضبّاط المرموقين، وكان موضوع ثقة اللواء متولّي، إلى مكتبه، وبعد التحيّة، طلب الإذن في الجلوس لسرد قصّة عجيبة على السيّد اللواء، فسمح له لأنّه كان في حالة يرثى لها وفاقدًا أعصابه... وقد طلب له اللواء متولّي القهوة واستمع إليه حيث قال:

"عندي موضوع خطير جدًّا وهو أنّي وقعت فريسة المخابرات البريطانيّة".

طمأنه اللواء متولّي حالاً بأنّه لن يُمَسّ بأيّ أذى أو ضرر طالما صرّح بما وقع به من الخطأ قبل إتمامه عملاً بالمادّة ٨٤/أ من قانون عقوبات مصر العربيّة أوّلاً، وثانيًا لأنّ وضع قوّات الأمن المصريّة في حينه كان يسمح بمثل حالات التسامح هذه. وطلب منه أن يصارحه ويكاشفه بالخطأ الذي أوقعه فريسة المخابرات البريطانيّة بكلّ أمانة وصدق، فقال الضابط:

"يا أفندم، منذ حوالى شهر تقريبًا وعند عودتي إلى منزلي، شعرت بأحد داخل المنزل... ولمّا دخلت الصالون المعدّ لجلوس الضيوف، وجدت سيّدة أجنبيّة جميلة جدًّا، استقبلتني بالأحضان... وهنا كانت المفاجأة، حيث صرّحت لي بأنّها زوجة أحد مديري شركة القنال الأجانب، وقد اختارتني أنا شخصيًّا لتكون صديقة لي، باعتباري عازبًا، وأنّه سيكسب كلّ منّا الآخر متعة لا حدّ لها... وفي الواقع، أنا لا أنكر أنّني وجدت فيها وفي جمالها فرصة العمر، لأنّها امرأة أجنبيّة، وفي منتهى الجمال والأنوثة، ويتمنّاها أيّ رجل، خاصّة وقد حضرت بنفسها إلى منزلي... فجلست إلى جانبها أسألها عن حياتها مع زوجها، وكيف عرفتني وعرفت مسكني، وكيف دخلت المنزل... وهنا كانت المفاجأة... فقد اعترفت لي بأنّها تعمل في فرع مخابرات القنال البريطانيّ، وأنّها كانت مكلّفة بتعقّب حركاتي حتّى جمعت عنّي كلّ المعلومات، وعرفت أنّي أعزب، وليس لي علاقات نسائيّة مع أحد، وأنّها رأتني عدّة مرّات بالعين المجرّدة وأعجبت بي... خارج نطاق مهمّتها. ونظرًا لأنّها تميل إلى العلاقات الجنسيّة لدرجة الشبق، بسبب انشغال زوجها عنها، لذلك فكّرت وتجرّأت وقرّرت أن تقيم معي أنا علاقات جنسيّة، إضافة إلى طلبها قيام تعاون مخابراتيّ بيننا... والمنفعة متبادلة... فهي تزوّدني بمعلومات تنفع في عملي، وأنا أزوّدها بمعلومات تعزّز مركزها في فرع

المخابرات البريطانيّ!... وفي الحقيقة، وافقت بتأثير من سحرها وحديثها العذب، وخاصّة لأنّي كنت متشوقًا لأيّ امرأة لكوني أعزب وأشاهد الكثير من النساء الأجنبيّات الجميلات مثلها. وقد لعب الشيطان برأسي، فوافقت واعتبرتها صيدًا ثمينًا وابتدأت معها الجنس المحرّم... كانت تحضر إلى منزلي كلّ يومين مرّة حيث نمضي الليل سويًّا حتّى تطوّرت العلاقة وأصبحت أتمنّى لقاءها أكثر فأكثر، كما لمست منها ذلك أيضًا... واليوم، كاشفتني بصراحة عن طلب خطير للمخابرات البريطانيّة التي تبارك علاقتها الجنسيّة معي خدمة لمخابرات صاحبة الجلالة، وطلبها أن أعطيها نسخة طبق الأصل عن تقاريرك التي ترسلها إلى وزارة الداخليّة عن أعمال المقاومة وما سيقومون به مستقبليًّا من العمليّات أولاً بأوّل. وتركتني على أن تعود بعد يومين كعادتها، وبعد انصرافها وجدت أنّها تركت في درج مكتبي أثناء وجودي في الحمّام مبلغ خمسة آلاف جنيه مصري، ولم تكن قد ذكرت لي شيئًا عن هذا المبلغ... هذا كلّ شيء عنها يا سيادة اللواء، وهذه صورتها وها هو المبلغ تحت تصرّفكم"...

عندما انتهى الضابط من روايته عن الجاسوسة البريطانيّة كان اللواء متولّي رئيسه المباشر قد فهم وفكّر بكلّ حرف وكلمة حكاها الضابط، وبالإجراء الذي سيتّخذه. فخطر على باله أن يستغلّ ميل المرأة الجنسيّ نحو الضابط فقال له:

"أنت تأخذ الفلوس ديّه... أي الخمسة آلاف جنيه، وتقوم بإجازة إلى بلدك، ولا تعود إلاّ عندما أطلب منك ذلك".

وقام اللواء متولّي بتحرير كلّ ذلك على محضر رسميّ أرسله للرئاسة.

مرّت ثلاثة أيّام، وإذا بزوجة اللواء متولّي تتّصل به من المنزل لتخطره بوجود سيّدة أجنبيّة تودّ لقاءه! كان يعرف من هي ومن تكون، فطلب من زوجته أن تستقبلها وتكرّمها إلى حين حضوره.

توجّه اللواء متولّي إلى منزله فورًا، وكانت زوجته قد سمحت للسيّدة الأجنبيّة بالدخول، وقدّمت لها الشراب... وقد انتاب زوجة اللواء متولّي الشكّ بزوجها عندما سلّم على السيّدة الأجنبيّة وأدخلها إلى صالونه وطلب من زوجته أن ينفرد بها، فتركته على مضض...

قالت المرأة للواء متولّي بصراحة:

"أنا جئتك لنعقد صفقة، وهي أن تترك لي الضابط، وأنا مستعدّة للقيام بأيّ عمل تكلّفني به... ولن أخفي عليك بأنّني أصبحت رئيسة فرع مخابرات المنطقة... كامرأة لن أقوى على فراق الضابط"...

...وبكت وتوسّلت إلى اللواء متولّي أن يعيد لها صديقها وحبّها.

شعر اللواء بأنّ أنوثة المرأة وحبّها للجنس تغلّبا على إخلاصها للوظيفة الهامّة التي تتمتّع بها في المخابرات البريطانيّة. أو أنّها وعدت رؤساءها بأنّها ستفعل المستحيل لإعادة الضابط لها، ولهم، فهي تشبع نهمها الجنسيّ أوّلاً، وثانيًا تستمرّ في اصطياد المعلومات الهامّة منه أثناء ساعات الصفاء.

تعلّم اللواء متولّي من هذا الحديث على الفور الطريقة التي تتّبعها المخابرات البريطانيّة، فقال في نفسه:

"لماذا لا نحاربهم بشيء من طرقهم"؟ وقال للسيّدة الأجنبيّة:

"أنا موافق على طلبك، ولكن لا بدّ لي من أن أطّلع على دليل عن إخلاصك لنا، وإلاّ لن تنالي من الضابط شيئًا".

فقالت: "إنّ عندي التقرير اليوميّ عن أعمالنا والذي يرسل إلى الرئاسة، وأنا على استعداد لأن أحضره لك يوميًّا قبل إرساله ولمدّة نصف ساعة فقط"...

وكانت النصف ساعة كافية لتصوير التقرير وإعادته لها... وهكذا خرجت من منزل اللواء متولّي تحت نظرات زوجته المحرجة، ولكنّه أفهم زوجته في ما بعد سبب زيارتها بشكل مختصر.

أصبحت البريطانيّة ترسل التقرير اليوميّ حسب الاتّفاق يوميًّا... وأعيد الضابط المصريّ إلى عمله وإلى علاقاته معها... وكان اللواء متولّي يتأكّد من صحّة التقرير لما يحدث من جانب القوّات البريطانيّة في الأيّام التالية... وفي الوقت نفسه كان الضابط المصريّ يطلعها على أسرار مفتعلة ومهيّأة وغير صحيحة عن نشاط المقاومة الشعبيّة المصريّة. وتأكّدوا من ردود فعل التقارير المصريّة المزيّفة بأن أعلمها مرّة بأنّ المقاومة الشعبيّة ستهاجم معسكر الجيش البريطانيّ في منطقة فايد بمنطقة القنال، وفي اليوم التالي كانت جميع قوّات الشرطة العسكريّة تحاصر المعسكر وتتحقّق من هويّات الداخلين والخارجين، فتأكّدوا أنّ لهذه المرأة فعاليّة ومركز مرموق في المخابرات البريطانيّة...

كان الضابط "حسن" العنصر الهامّ في الإبقاء على الحصول على المعلومات الهامّة من رئيسة فرع مخابرات القنال التي باعت نفسها في سبيل شهوتها الجنسيّة.

دائمًا الطبيعة تتغلّب على كلّ شيء، فهي لم تخرج من أن تكون امرأة تسعد بلقاء الرجل الذي تتمنّاه أيّ امرأة أيضًا... كانت هذه المرأة نموذجًا للطرق التي تستخدمها المخابرات للوصول إلى مآربها وغاياتها من الوصول إلى الأسرار الدفينة نتيجة الإغراء، سواء بالنساء أو بالأموال أو العطايا... وتعلّم اللواء متولّي من هذه الواقعة أن يحارب الإنسان سواء كان ضابط مخابرات أو ضابط مباحث جنائيّة الداء بالداء نفسه. فالأمراض المستعصية يعدّون لها أمصالاً من نفس نوع الميكروب الذي أحدث المرض، ويكون المصل كفيلاً بالقضاء على المرض نفسه بنفسه.

أمّا نهاية القصّة، فمفادها أنّ السيّدة "كلير غودن"، وهو الإسم الحقيقيّ للسيّدة البريطانيّة، قد رحلت فجأة مع زوجها. وقد علم اللواء متولّي أنّه صدرت لهما الأوامر بالانتقال من منطقة القنال مع طلب التحقيق معهما في لندن. وذلك لأنّ رئاسة المخابرات كشفت أنّها أصبحت عديمة الفائدة، لأنّ التقارير التي كانت تقدّمها نتيجة الموافقة لها على التضحية بنفسها وبسمعة الإنتلّجانس سرفيس، كانت مفتعلة وكاذبة... لأنّ الضابط المصريّ كان يعطيها معلومات عن هجوم في مكان وساعة محدّدين، فيستعدّون له، بينما تضرب المقاومة في مكان آخر، لم يكونوا هم قد استعدّوا فيه. وبذلك ارتبكوا ارتباكًا كاملاً.

أمّا نتيجة أعمال المقاومة المصريّة المنظّمة في القنال والمناطق المصريّة الأخرى مع اندلاع ثورة تمّوز - يوليو ١٩٥٢، بقيادة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ورفاقه الضبّاط الأحرار، فكانت إغلاق قناة السويس وتأميمها ثمّ خروج المستعمر البريطانيّ من مصر نهائيًّا بعد ذلك[١]...

---

١ - الجزائري سعيد، المخابرات والعالم، دار الجيل (بيروت،١٩٨٩) ٣: ٤٢٧ - ٤٣٤.

تانيَا راديونسكَا: الجاسُوسَة السوفياتيَّة في لندُن

قدّرت المخابرات السوفياتيّة أنّ المواطنة السوفياتيّة "تانيَـا راديونسكَا"، وهـي ابنـة عقيد في الشرطة السريّة السوفياتيّة، ومن مواليد سنة ١٩٢٤، قد أهّلتها بيئتها لأنّ تكون مرشّحة للعمل في المخابرات عندما بلغت الواحدة والعشرين من عمرها، فأرسلتها إلى معهد التدريب على الجاسوسيّة، ثمّ انتقلت إلى مدرسة "غاكزينا" لتنهي تدريبها الأكاديمي على أعمال الجاسوسيّة العالميّة حيث تمّ اختيارها للتدرّب على الدخول إلى بريطانيا والإقامة فيها، وأُعطيت إسم "ألين وِندسور".

بدأت تانيا دراستها تحت رقم ٠٤/٤٨٠٨٢٢ ـ ج، وحصلت على تدريب أكاديميّ جيّد جعلها مثل النساء البريطانيّات. ثمّ مُنحت جواز سفر بريطانيّ مزيّف باسمها الجديد، وعليه تأشيرة دخول إلى هونغ كونغ. وقام الفرع الثالث بالمخابرات السوفياتيّة بتأمين إدخالها إلى هونغ كونغ لتخرج منها "سيّدة بريطانيّة" بامتياز، تحمل جواز السفر رقم ٣٥٢٨٧٤/ن الصادر عن السفارة البريطانيّة في طوكيو حيث حجزت محلاً على طائرة الخطوط الجويّة البريطانيّة المتوجّهة إلى لندن في ١٢ أيّار ـ مايو ١٩٥٨. وبعد وصولها إلى العاصمة البريطانيّة، انتقلت، حسب التعليمات، إلى منطقة "كاربيل" واستأجرت غرفة مفروشة مع آخرين بعد أن ادّعت أنّها تبحث عن عمل...

مكثت "ألين وِندسور" تسعة أيّام في كاربيل ثمّ عادت إلى لندن بعد أن تعوّدت على ظروف الحياة في المملكة المتّحدة، وفي لندن سكنت منطقة "كنفر كروس" مع آخرين

أيضًا مدّعية أنّها تبحث عن عمل في متجر. ورغم أنّها كانت تبدو وكأنّها تفعل المستحيل لتحصل على وظيفة ملائمة، كانت تعود كلّ يوم إلى مسكنها قائلة إنّها لم تستطع الحصول على عمل.

كان كلّ هذا مجرّد استعداد لمشاريعها في المستقبل... فقد أرسلت لها القيادة من موسكو أوامر بالبقاء في لندن دون القيام بأيّ نشاط تجسّسيّ والتحضير للسفر إلى كندا، فادّعت للجيران أنّها فشلت في إيجاد وظيفة تلائمها في لندن لتبرّر عزمها على السفر إلى كندا. ففي مناسبات عديدة كانت تقول لصاحبة المنزل وللذين يشاركونها السكن إنّها قد ضجرت من البقاء عاطلة عن العمل وإنّها لا تستطيع إنفاق جميع مدّخراتها... وعندما أعربت عن عزمها على الهجرة إلى كندا شجّعها البعض على تحقيق ذلك بمن فيهم صاحبة المنزل قائلين إنّ الحياة هناك أحسن ممّا هي عليه في إنكلترا.

ساعدها مكوثها بدون عمل في لندن من عدّة نواح. ففي خلال أشهر إقامتها في عاصمة الضباب، أصبحت إنكليزيّة أكثر من أيّ فتاة مولودة في إنكلترا، وأنشأت صداقات مع فتيّات يعملن في المخازن والمكاتب، وكانت تلك الفتيّات يشفقن عليها ويدعونها إلى منازلهنّ، لكنّ هذه الدعوات لم تتكرّر من أيّ منهنّ، لأنّ ألين كانت مزعجة وأفسدت أكثر تلك الدعوات...

كانت كلّ تصرّفاتها عبارة عن مجموعة تمثيليّات تلعبها وتؤدّيها بإتقان شديد، وكان من شأن كبار الممثّلين أن يحسدوها على هذه الموهبة...

في خلال ذلك، كانت تعدّ الخطوات للسفر إلى كندا. فقد وصلها خطاب من الفرع الثالث في المخابرات السوفياتيّة يتضمّن أسماء "أقارب" و"أصدقاء" كنديّين... فاحتفظت بالأسماء وتركت الأمور تأخذ مجراها الطبيعيّ طالما أنّ موسكو مصرّة على عدم

التسرّع، حتّى لا تثير من حولها الشبهات... إلى أن جاء يوم وصلتها فيه رسالة تضمّن تعليمات السفر، فتركت "مسقط رأسها" الوهميّ، وانتقلت إلى كندا في آذار ـ مارس ١٩٥٩.

في مونتريال، وبعد وصولها كمهاجرة، لم تكن بحاجة لأن تتأقلم، فلأنّها مهاجرة إلى كندا، يُفترض فيها أن تكون غريبة عن الحياة الكنديّة، فاستأجرت لنفسها غرفة مفروشة ومكست ستّة أسابيع تنتظر التعليمات، عملت في خلالها بائعة في مخبز، لتعطي الانطباع عن نفسها بأنّها مهاجرة عاديّة.

وصلتها الأوامر الجديدة بالانتقال من مونتريال إلى أوتاوا. وعندما علمت صاحبة المخبز بعزمها على السفر إلى أوتاوا، حاولت إقناعها بالبقاء في مخبزها وهي على استعداد لزيادة معاشها، ولكنّها ادّعت بأنّ عمّتها في أوتاوا قد أصيبت بمرض مفاجئ، وهي بحاجة إليها.

وهكذا سافرت إلى أوتاوا، وكعادتها، استأجرت شقّة مفروشة ولكن في أرقى أحياء أوتاوا، مدّعية بأنّ عمّتها قد توفّيت وأورثتها مبلغًا كبيرًا من المال...

بعد استقرارها في أوتاوا، أخذت ألين تتناول الطعام في مطعم مجاور لمسكنها، حيث تعرّفت إلى شابّ اكتشفت بعد أوّل كلمات تبادلتها معه أنّه يحبّ الاجتماع مع أناس قدموا حديثًا من إنكلترا، فقرّرت أن تستغلّه، وطلبت منه أن تستقبل رسائلها في عنوانه، ولم يجد الشابّ أيّ غريب في طلبها فوافق على الفور. ومنذ ذلك الحين أخذت الرسائل تصلها من موسكو أو غيرها من عناوين المخابرات السوفياتيّة إلى صندوق بريد ذلك الشاب، وذلك بعد أن حصلت على موافقة رؤسائها على هذه الخطوة.

أخذت ألين تغدق الهدايا على الشابّ بدون أن تطلب منه أيّ نشاط جاسوسيّ، لأنّها كانت لا تزال بعدها مراقبة، ووجدت أنّه لا يستطيع أن يأتي بأيّ معلومات سريّة من

مؤسّسته، وهي لا تستطيع أن تكلّفه بمهامّ اتّصال، لأنّ ذلك يعتبر عملاً انتحاريًّا وغاية في السذاجة، ولا بدّ لصديقها من أن يثير المخابرات الكنديّة إذا كلّف بأيّ مهمّة، لذلك فضّلت إبقاءه كـ"صندوق بريد" فقط، دون أن يعلم أنّه أصبح حلقة الوصل بينها وبين رؤسائها في المخابرات السوفياتيّة.

اختارت ألين أن تلعب دور امرأة في منتصف الثلاثينات من عمرها... وفي خلال أربعة أشهر من إقامتها في أوتاوا، استطاعت هذه السيّدة الإنكليزيّة الهادئة التي أحبّها الجميع أن تصبح "جاسوسة رئيسيّة"، أضيفت إلى أعمالها الجاسوسيّة أعمال إجراميّة... أمّا ظاهرها فكان أنّها سيّدة كثيرة الاهتمام بالأعمال الخيريّة، وهي على استعداد دائمًا لمساعدة أيّ محتاج.

تعرّفت ألين إلى مهندس إلكتروني من أصل ألمانيّ، يعمل في مصنع لتجميع الطائرات في كندا، وبعد عدّة مقابلات كتبت إلى رؤسائها عنه، فاعتبروه صالحًا للعمل معها كمخبر لاطّلاعه الوثيق على إنتاج وتطوّر المصنع الذي يعمل فيه... إلاّ أنّها لمّا طلبت منه الحصول على بعض الأسرار عن عمله لقاء آلاف الدولارات، رفض طلبها وهدّدها بإطلاع السلطات على نشاطها رغم تهديدها إيّاه بأنّ أقاربه الذين ما زالوا في ألمانيا الشرقيّة سوف "يُعتنى بهم" إذا هو رفض التعاوت معها. عند ذلك أظهرت له مزيدًا من الودّ، بعد أن قرّرت التخلّص منه. فقد دبّرت عمليّة تخديره أثناء تناول الغداء معها، ثمّ قامت بنقله إلى خارج المدينة بمساعدة العملاء السوفيات، وهناك أوقفت سيّارته ووضع بها ومُسحت البصمات بإتقان تامّ من على جميع الأشياء التي لُمست، وأُطلقت النار على رقبته من مسدّسه ومن مسافة قريبة جدًّا، فظهرت الوفاة وكأنّها ناجمة عن انتحار، كما جاء في صحف أوتاوا في اليوم التالي.

استمرّت "تانيا راديونسكا" في عملها كجاسوسة وامرأة ناعمة باسم "ألين وندسور"، تقيم علاقات اجتماعيّة وغراميّة، واستطاعت أن تتعرّف إلى مهاجر سلافيّ يعمل في نفس مصنع الطائرات كرسّام في مكتب تصاميم الطائرات. وما أن طلبت منه تزويدها بصور عن نماذج الطائرات التي يقرّر المصنع إنتاجها حتّى هدّدها بأنّه سيبلّغ السلطات عنها، وسرعان ما اختطف الرسّام من قبَل عملاء سوفيات ونُقل إلى منزل مهجور في ريف أوتاوا مستأجر لمزرعة دواجن، ولمثل هذه الحالات... وعندما توفّرت أساليب إخراجه من كندا بواسطة الفرع الثالث في المخابرات السوفياتيّة، جرى حقنه بالمخدّر وجرى تهريبه بواسطة سفينة روسيّة وبوثائق تفيد عن أنّه مريض...

لم يمض العام الأوّل على وجود ألين في أوتاوا حتّى كانت ارتكبت العديد من أعمال القتل والخطف لكلّ من كان يشكّل خطرًا على الشبكة، ما اضطُرّ موسكو إلى الطلب إليها بوقف نشاطها الإجراميّ، لأنّ هذه الطريقة ستكشفها عاجلاً أم آجلاً، وبالتالي ستفضح نشاطها... ولكي تتأكّد المخابرات السوفياتيّة من أنّ ألين أوقفت نشاطها ونفّذت الأوامر المرسلة إليها، أوكلت إلى عميل آخر يقيم في أوتاوا مراقبة أعمالها وإرسال تقارير دوريّة عنها.

أطاعت ألين الأوامر كما دُرّبت في معهد الجاسوسيّة وامتنعت عن القيام بأيّ نشاط رغم جهلها بأنّها مراقبة. وبعد مضيّ وقت قصير عادت إلى نشاطها في استعمال التهديد بالفضح لمن تحتفظ لهم بوسائل تدينهم، وفي استعمال القوّة مع من لا يرضخ لطلبها من المخبرين والعملاء، ولم تتدخّل موسكو في هذا النشاط لأنّها كانت ترسل تقارير ومعلومات بالشيفرة تفوق قيمتها أيّ تقارير أخرى يرسلها الجواسيس الآخرون المقيمون في أوتاوا، فوافق رؤساؤها على إعادة إطلاق يدها بالعمل "لخدمة المصلحة العامّة".

كلّ هذه النشاطات والأعمال أدّتها ألين وهي تعمل كبائعة في متجر للألبسة النسائيّة في أوتاوا. ومع الأيّام وجدت أنّ التزامها بهذا العمل لا يترك لها وقتًا كافيًا للانصراف إلى نشاط الجاسوسيّة المتزايد باستمرار، فتركت عملها وهي تدرك أنّها بحاجة إلى واجهة تخفي وراءها عملها الحقيقيّ في التجسّس، فقرّرت أن تفتح متجرًا بنفسها لتزاول فيه بيع الألبسة النسائيّة الذي تعلّمته في خلال عملها السابق. وقد وجدت متجرًا بمساعدة أحد العملاء السوفيات المقيمين في أوتاوا وبدأت العمل فيه، ولكنّها خلافًا لأغلب الجواسيس الروس الآخرين، لم تستعمل متجرها كمكز التقاء لعملائها، فقد كانت تعمل على ملاقاتهم في الأماكن العامّة.

في عطلة عيد الميلاد عام ١٩٥٩، وأثناء وجودها في المتجر لصفّ الألبسة الحديثة وتجهيزها، دخل إلى المتجر شابّ وسيم باحثًا عن بطاقة هويّة لوالدته فقدتها أثناء تبضّعها بعض الألبسة من محلّ ألين، فأعجب الشاب بالفتاة الجاسوسة على أنّها ناضجة ومهذّبة، واستطاع أن يقنعها بالخروج معه... وللمرّة الأولى في عملها كجاسوسة قبل قلبها أن تتخلّى عن الإنطباع الذي أعطته عن نفسها بأنّها لا تخرج مع أحد... ورغم أنّها كانت أذكى الجواسيس السوفيات وأكثرهم حزمًا، فقد وقعت في الحبّ، وأقامت علاقة مع ذلك الشابّ استمرّت حتّى أواخر عام ١٩٦٠ حيث اكتشفت أنّه ضابط في الشرطة الكنديّة، فأبلغت موسكو بالأمر لأنّ الضابط عرض عليها الزواج... فتلقّت الجواب بالاستمرار بصداقتها مع الضابط الشاب طالما لم يحاول معرفة عملها الحقيقيّ، ومحاولة استشفاف ما لديه من معلومات حولما يعرفه البوليس الكنديّ عن الجاسوسيّة السوفياتيّة في كندا، وذهب رؤساؤها إلى أبعد من ذلك حين اقترحوا عليها أن تقبل عرض الزواج إذا وجدت أنّ ذلك يناسبها...

استطاعت ألين بأنوثتها وطرقها الخاصّة أن تحصل من خطيبها الضابط على معلومات مفيدة عن الأوضاع العامّة في البلاد، كما حدّثها تلقائيًا عن اللاجئ السياسيّ السوفياتي "إيغور غوزنكو"، موظّف الشيفرة السابق في السفارة السوفياتيّة القائمة في شارع "شارلوت" في أوتاوا الذي فضّل الحريّة وسلّم نفسه للسلطات الكنديّة. وكان غوزنكو يعتبر في هذه الحالة تلقائيًا من أهداف أيّ جاسوس سوفياتيّ لمعاقبته بالتصفية، وهذا العمل معروف عن المخابرات السوفياتيّة.

كان إيغور غوزنكو من الأرمن السوفيات، يعمل موظّفًا على الشيفرة في السفارة الروسيّة في أوتاوا، وكان بينه وبين نفسه قد قرّر الهرب إلى الغرب لأسباب كامنة في نفسه، وأخذت هذه الفكرة تراوده منذ مدّة، فراح يتّخذ احتياطات كثيرة وبعيدة المدى لقطع علاقته نهائيًا مع السوفيات، لذلك اختار مجموعة كاملة من وثائق السفارة تثبت أنّ عشرات من الدبلوماسيّين الروس في أوتاوا وغيرها من المدن الكنديّة الأخرى يقومون بنشاط هو أبعد ما يكون عن العمل الدبلوماسيّ، مع أنّه شخصيًا كان قد تلقّى تدريبًا قصيرًا ومفيدًا في المخابرات السوفياتيّة قبل التحاقه بالعمل الدبلوماسي، وكان عليه أن يثبت حسن نيّته للكنديّين للحصول على حقّ اللجوء السياسيّ لديهم، فترك وثائق السفارة البالغة الأهميّة في مكانها خشية تعرّضها للتفتيش من قبل المسؤولين في السفارة، وبينما كان يقوم بالتحضير للهرب، وضع إشارة على كلّ وثيقة يحتاجها ليسهل عليه أخذها في اللحظة الأخيرة قبل هربه. وفي ساعات الدوام الأولى من صباح ٥ تشرين الأوّل - أكتوبر ١٩٥٤، قرّر غوزنكو أنّ "ساعة الصفر" قد حانت، فترك السفارة حاملاً معه الوثائق التي اختارها منذ مدّة وفيها معلومات كافية لوضع اثني عشر جاسوسًا ودبلوماسيًا في السجن، وتوجّه إلى مكاتب جريدة "كندا نيوز"، وعرض ما يحمل على رئيس التحرير، الذي لم يقتنع بأنّ الوثائق التي يحملها غوزنكو

حقيقيّة، فتخلّص منه بطريقة لبقة مدّعيًا أنّه بحاجة إلى التفكير في الأمر، وعرض عليه أن يصوّر الوثائق ويدع لديه النسخ ويعود إليه في ما بعد. غير أنّ غوزنكو قد أدرك أنّ عليه التصرّف بسرعة قبل أن يشعر موظّفو السفارة بفعلته، فيعيدوه وتكون نهايته... فتوجّه إلى وزارة الداخليّة الكنديّة، التي كان جواب موظّفيها كجواب رئيس تحرير الصحيفة. وفي النهاية ساعدت السفارة السوفياتيّة غوزنكو من حيث لا تدري، فقد علم ضابط أمن السفارة باختفاء موظّف الشيفرة غوزنكو، وقرّر اتّخاذ الخطوات اللازمة لإعادته... فاصطحب عددًا من موظّفي السفارة وتوجّهوا إلى منزل غوزنكو حيث كسروا الباب وقلبوا حوائج المنزل رأسًا على عقب أمام الجيران الذين اتّصلوا بالشرطة... عندها تأكّد المسؤولون الكنديّون من أنّ غوزنكو هارب حقيقيّ، فاستقبلوه ومنحوه الحماية فورًا. وعندما روى للمخابرات الكنديّة قصّته، وأثبت صحّة أقواله بتسليمه الوثائق الهامّة، تغيّرت معاملته، وصدّقوه. وفي اليوم التالي مُنح اللجوء السياسيّ في كندا. أمّا السفارة السوفياتيّة فقد أرسلت تطلب استرداده بواسطة وزارة الخارجيّة الكنديّة مدّعية أنّه سيحاكم بتهم خطيرة نظرًا لسرقته أموال السفارة... وطبعًا رُفض هذا الطلب لأنّ السلطات الكنديّة تعرف أنّ هذه التهم ملفّقة ضدّ غوزنكو.

عندما سمعت ألين هذه القصّة من خطيبها الضابط، قالت له إنّها تستغرب كيف يصدّقون الروس الفارّين... وانتقدت المخابرات الكنديّة لقلّة يقظتها... وقد قالت ذلك لتعرف من خطيبها أيّ شيء عن تعقّب الجواسيس السوفيات... وهل هي من المشكوك فيهم مثلاً... وكانت النتيجة أنّ خطيبها لا يعرف شيئًا عن هذا الأمر، وهو حذر جدًّا بأجوبته لها...

كان من المفروض أن تكتب ألين عن كلّ ذلك إلى رؤسائها، وتترك تقدير النتائج لهم، غير أنّها لم تفعل... وقد استمرّت في عملها إلى نهاية سنة ١٩٦١، حيث تلقّت

الأوامر من رؤسائها بمغادرة كندا... وقد أرسل لها الفرع الثالث في المخابرات السوفياتيّة، وهو فرع التزوير الرسميّ، رسائل من إنكلترا تقول إنّ عمّها على فراش الموت ويطلب عودتها فورًا...

كانت قصّة الجاسوسة السوفياتيّة مع الرسائل مقنعة جدًّا إلى درجة أنّ خطيبها الضابط لم يشكّ بشيء، بل شجّعها على السفر بأسرع وقت...

غادرت ألين أوتاوا، ثمّ كندا، كما دخلتها، بعد أن قدّمت للمخابرات السوفياتيّة الخدمات الجليلة في كندا. ويبدو أنّ "تانيا ماركوفنا راديونسكا" قد عادت إلى موسكو لتستريح لبعض الوقت، ثمّ لتُزرع في بلد آخر وباسم جديد...

---

١ ـ الجزائري سعيد، المخابرات والعالم، دار الجيل (بيروت،١٩٨٨) ٢: ٣٩٣ ـ ٣٩٩.

مَاري ليبك: الجَاسوسة السويديَّة الإسرائيليَّة في مصر

عندما تأكّدت المخابرات الإسرائيليّة أنّها سيطرت على المخابرات السويديّة بعد عدّة عمليّات مشتركة بين الجهازين، أخذت المخابرات الإسرائيليّة تسخّر المخابرات السويديّة لتحقيق مآربها التجسّسيّة التي لا تقدر على تنفيذها، ومن هذا القبيل طلبت المخابرات الإسرائيليّة من المخابرات السويديّة تأمين سيّدة ليتمّ إرسالها بمهمّة تجسّسيّة إلى القاهرة في سبعينات القرن العشرين، فاختارت لها السيّدة "ماري ليبك" الهنغاريّة الأصل، والمقيمة في السويد كلاجئة سياسيّة منذ عام ١٩٥١، وهي من أعضاء الحزب الاشتراكيّ الديمقراطيّ السويديّ الذي حكم السويد أكثر من ٤٠ سنة، وهذه السيّدة كانت تتجسّس على الدول الاشتراكيّة حتّى عام ١٩٧٠.

وصلت ماري ليبك إلى القاهرة وبدأت مهمّتها التجسّسيّة في الاختلاط بالمجتمع المصريّ، وجرى الترحيب بها كسيّدة مجتمع سويديّة تستغلّ ما للسويد من مكانة وقيمة دوليّتين نتيجة الحياد الذي تنتهجه الدولة، ثمّ بدأت تتعامل مع ضعاف النفوس من بعض المصريّين الذين أمدّوها بمعلومات عن المطارات العسكريّة السريّة، وعن أماكن تمركز وحدات الصواريخ الروسيّة والقواعد المدرّعة... وأهمّ عمل قامت به هذه الجاسوسة هو حصولها على خرائط تبيّن مناطق تخزين البترول وطرق إمداد الجيش المصريّ به، وهذه المناطق ضُربت فعلاً في ما بعد من قبل الطيران الحربيّ الإسرائيليّ بدقّة متناهية حيث كانت الطائرات تضرب خزّان البنزين وتترك خزّان المازوت الذي يجاوره...

كـانت مـاري ترسـل المعلومـات بوسـائل تكتبهـا بـالحبر السـرّي إلـى المخـابرات السويديّة، التي كـانت تحـوّل هـذه التقـارير إلـى المخـابرات الإسـرائيليّة. وبهـذا أثبتـت المخابرات الإسرائيليّة عدم تركها أيّ وسيلة للنفاذ بواسطتها إلى الأسـرار العربيّـة[١]... ويبدو أنّ مَاري ليبك قد نجحت في مهمّتها وعادت إلى بلادها سالمة تمامًا.

١ ـ الجزائري سعيد، المخابرات والعالم، دار الجيل (بيروت،١٩٨٨) ٢: ٤٥٩ ـ ٤٦٠.

هبة سليم: الجاسوسة المبهورة بإسرائيل

لم تدخر المخابرات الإسرائيلية وسيلة عند تجنيدها للجواسيس إلا وجربتها، وأيضًا - لم تعتمد على فئة معينة من الخونة.. بل جندت كل من صادفها منهم واستسهل بيع الوطن بثمن بخس وبأموال.. حرام، وأشهر هؤلاء على الإطلاق، "هبة عبد الرحمن سليم عامر"، وخطيبها المقدم فاروق عبد الحميد الفقي.

إنها إحدى أشرس المعارك بين المخابرات الحربية والمخابرات الإسرائيلية. معركة أديرت بذكاء شديد وبسرية مطلقة، انتصرت فيها المخابرات المصرية في النهاية. وأفقدت العدو توازنه، وبرهنت على يقظة هؤلاء الأبطال الذين يحاربون في الخفاء من أجل الحفاظ على أمن الوطن وسلامته.

لقد بكت جولدا مائير حزنًا على مصير هبة التي وصفتها بأنها "قدمت لإسرائيل أكثر مما قدم زعماء إسرائيل". وعندما جاء هنري كيسنجر وزير الخارجية الأميركي ليرجو السادات تخفيف الحكم عليها.. كانت هبة تقبع في زنزانة انفرادية لا تعلم أن نهايتها قد حانت بزيارة الوزير الأميركي.

لقد تنبه السادات فجأة إلى أنها قد تصبح عقبة كبيرة في طريق السلام، فأمر بإعدامها فورًا، ليسدل الستار على قصة الجاسوسة التي باعت مصر ليس من أجل المال أو الجنس أو العقيدة.. إنما لأجل الوهم الذي سيطر على عقلها وصور لها بأن إسرائيل دولة عظمى لن يقهرها العرب. وجيشها من المستحيل زحزحته عن شبر

واحد من سيناء، وذلك لأن العرب أمة متكاسلة أدمنت الذل والفشل. فتفرّقت صفوفهم ووهنت قوتهم.. إلى الأبد.

آمنت هبة بكل هذه الخرافات، ولم يستطع والدها، وكيل الوزارة بالتربية والتعليم، أن يمحو أوهامها أو يصحح لها خطأ هذه المفاهيم.

ولأنها تعيش في حي المهندسين الراقي وتحمل "بطاقة" عضوية في نادي "الجزيرة"، أشهر نوادي القاهرة، فقد اندمجت في وسط شبابي لا تتقل عقله سوى أحاديث الموضة والمغامرات، وبرغم هزيمة ١٩٧٦ الفادحة والمؤلمة للجميع.. إلا أن هبة انخرطت في "شلّة" من أولاد الذوات تسعى خلف أخبار الـ"هيبيز"، وملابس الـ"كاوبوي" وأغاني "إلفيس بريسلي".

وعندما حصلت على الثانوية العامة ألحت على والدها للسفر إلى باريس لإكمال تعليمها الجامعي. فالغالبية العظمى من شباب النادي أبناء الـ"هاي لايف"، لا يدخلون الجامعات المصرية ويفضلون جامعات أوروبا المتحضرة.

وأمام ضغوط الفتاة الجميلة وحبات لؤلؤ مترقرقة سقطت على خديها، وافق الأب وهو يلعن هذا الوسط الاجتماعي الذي يعش فيه ولا بد من مسايرة عاداته وتقاليده..

وفي باريس لم تنبهر الفتاة كثيرًا. فالحرية المطلقة التي اعتادتها في مصر كانت مقدمة ممتازة للحياة وللتحرّر في عاصمة النور.

ولأنها درست الفرنسية منذ طفولتها فقد كان من السهل عليها أيضًا أن تتأقلم بسرعة مع هذا الخليط العجيب من البشر. ففي الجامعة كانت تختلف كل الصور عما يرسب بمخيلتها.. إنها الحرية بمعناها الحقيقي، الحرية في القول والتعبير.. وفي اختيار المواد الدراسية.. بل وفي مواعيد الامتحان أيضًا، فضلاً عن حرية العلاقة بين

الجنسين التي عادة لا تقتصر على الحياة الجامعية فحسب.. بل تمتد خارجها في شمولية ممتزجة باندفاع الشباب والاحتفاء بالحياة.

جمعتها مدرجات الجامعة بفتاة يهودية من أصول بولندية دعتها ذات يوم لسهرة بمنزلها، وهناك التقت بلفيف من الشباب اليهود الذي تعجب لكونها مصرية جريئة لا تلتفت إلى الخلف، وتنطلق في شراهة تمتص رحيق الحرية.. ولا تهتم بحالة الحرب التي تخيم على بلدها، وتهيمن على الحياة بها.

لقد أعلنت صراحة في شقة البولندية أنها تكره الحرب، وتتمنى لو أن السلام عم المنطقة. وفي زيارة أخرى أطلعتها زميلتها على فيلم يصور الحياة الاجتماعية في إسرائيل، وأسلوب الحياة في"الكيبوتز" وأخذت تصف لها كيف أنهم ليسوا وحوشًا آدمية كما يصورهم الإعلام العربي، بل هم أناس على درجة عالية من التحضر والديمقراطية.

وعلى مدار لقاءات طويلة مع الشباب اليهودي والامتزاج بهم بدعوى الحرية التي تشمل الفكر والسلوك.. استطاعت هبة أن تستخلص عدة نتائج تشكلت لديها كحقائق ثابتة لا تقبل السخرية. أهم هذه النتائج أن إسرائيل قوية جدًا وأقوى من كل العرب. وأن أميركا لن تسمح بهزيمة إسرائيل في يوم من الأيام بالسلاح الشرقي. ففي ذلك هزيمة لها. و آمنت هبة أيضًا بأن العرب يتكلمون أكثر مما يعملون. وقادتها هذه النتائج إلى حقد دفين على العرب الذين لا يريدون استغلال فرصة وجود إسرائيل بينهم ليتعلموا كيفية اختزال الشعارات إلى فعل حقيقي. وأول ما يبدأون به هو نبذ نظم الحكم التي تقوم على ديمقراطية كاذبة وعبادة للحاكم.

وثقت هبة أيضًا في أحاديث ضابط الموساد الذي التقت به في شقة صديقتها.. وأوهمها باستحالة أن ينتصر العرب على إسرائيل وهم على خلاف دائم

وتمزق خطير، في حين تلقى إسرائيل الدعم اللازم في جميع المجالات من أوروبا وأميركا.

هكذا تجمعت لديها رؤية أيديولوجية باهتة، تشكلت بمقتضاها اعتقاداتها الخاطئة، التي قذفت بها إلى الهاوية.

كانت هذه الأفكار والمعتقدات التي اقتنعت بها الفتاة سببًا رئيسيًا لتجنيدها للعمل لصالح الموساد.. دون إغراءات مادية أو عاطفية أثرت فيها، مع ثقة أكيدة في قدرة إسرائيل على حماية "أصدقائها" وإنقاذهم من أي خطر يتعرضون له في أي مكان من العالم.

هكذا عاشت الفتاة أحلام الوهم والبطولة. وأرادت أن تقدم خدماتها لإسرائيل طواعية ولكن.. كيف؟ الحياة في أوروبا أنستها هواء الوطن.. وأغاني عبد الحليم حافظ الوطنية.. وبرج القاهرة الذي بناه عبد الناصر من أموال المخابرات الأميركية التي سخرتها لاغتياله.

فقط تذكرت فجأة المقدم فاروق الفقي الذي كان يطاردها في نادي الجزيرة، ولا يكف عن تحين الفرصة للانفراد بها.. وإظهار إعجابه الشديد ورغبته الملحة في الارتباط بها. لقد ملت كثيرًا مطارداته لها من قبل في النادي وخارج النادي، وكادت يومًا ما أن تنفجر فيه غيظًا في التليفون.. وذلك عندما تلاحقت أنفاسه اضطرابًا وهو يرجوها أن تحس به. مئات المرات قال لها: "أعبدك.. أحبك.. أهواك يا صغيرتي".. ولكنها كانت قاسية عنيفة في صدّه. تذكرت هبة هذا الضابط الولهان، وتذكرت وظيفته الهامة في مكان حساس في القوات المسلحة المصرية، وعندما أخبرت الموساد عنه.. كاد أن يطير بها فرحًا، ورسم لها خطة اصطياده.

وفي أول اجازة لها بمصر.. كانت مهمتها الأساسية تنحصر في تجنيده.. وبأي ثمن. وكان الثمن خطبتها له. وفرح الضابط العاشق بعروسه الرائعة التي فاز بها أخيرًا. وبدأت تدريجيًا تسأله عن بعض المعلومات والأسرار الحربية.. وبالذات مواقع الصواريخ الجديدة التي وصلت من روسيا.. فكان يتباهى أمامها بأهميته ويتكلم في أدق الأسرار العسكرية، ويجيء لها بالخرائط زيادة في شرح التفاصيل.

أرسلت هبة سليم على الفور بعدة خطابات إلى باريس تحمل ما لديها من معلومات.. ولما تبين الإسرائيليّون خطورة وصحة ما تبلغه هذه الفتاة لهم.. اهتموا بها اهتمامًا فوق الوصف، وبدأوا في توجيهها إلى الأهم في موضوع تسليح ومواقع القوات المسلحة.. وبالذات قواعد الصواريخ والخطط المستقبلية لإقامتها، والمواقع التبادلية المقترحة.

وسافرت هبة إلى باريس مرة ثانية تحمل بحقيبتها عدة صفحات.. دونت بها معلومات غاية في السرية والأهمية للدرجة التي حيرت المخابرات الإسرائيلية. فماذا سيقدمون مكافأة للفتاة الصديقة؟

سؤال كانت إجابته عشرة آلاف فرنك فرنسي حملها ضابط الموساد إلى الفتاة.. مع وعد بمبالغ أكبر وهدايا وحياة راغدة في باريس. رفضت هبة النقود بشدة وقبلت فقط السفر إلى القاهرة على نفقة الموساد بعد ثلاثة أشهر من إقامتها بباريس. كانت الوعود البراقة تنتظرها في حالة ما إذا جندت خطيبها ليمدهم بالأسرار العسكرية التي تمكنهم من اكتشاف نوايا المصريين تجاههم.

لم يكن المقدم فاروق بحاجة إلى التفكير في التراجع. إذ إن الحبيبة الرائعة هبة كانت تعشش بقلبه وتستحوذ على عقله.. ولم يعد يملك عقلاً ليفكر، بل يملك طاعة عمياء سخرها لخدمة إرادة حبيبته.

وعندما أخذها في سيارته الفيات ١٢٤ إلى صحراء الهرم.. كان خجولاً لفرط جرأتها معه، وادّعت بين ذراعيه أنها لم تصادف رجلاً قبله أبدًا. وأبدت رغبتها في قضاء يوم كامل معه في شقته. ولم يصدق أذنيه. فهو قد ألح عليها كثيرًا من قبل لكنها كانت ترفض بشدة. الآن تعرض عليه ذلك بحجة سفرها. وفي شقته بالدقّي تركت لعابه يسيل. وجعلته يلهث ضعفًا وتذللاً..

ولما ضمها إلى صدره في نهم ورغبة واقتربت شفتاه منها.. صدته في تمنع كاذب. فاندفع إليها بشوق أكثر، ولملم جرأته كلها وأطبق على شفتيها يروي ظمأ ملهوفًا تلسعه موجات من صد أنوثتها. فأذاقته قبلة طويلة غُمست بلذائذ من النشوة، وحمم من الرغبات، فطار عقله وبدا كطفل تشبث بأمه في لحظة الجوع، لكنها.. هيهات أن تمنحه كل ما يريد. فقد حجبت عنه رعشة الوطر وأحكمت قيدها حول رقبته فمشى يتبعها أينما سارت..

وسقط ضابط الجيش المصري في بئر الشهوة ووقَّع وثيقة خيانته عاريًا على صدرها، ليصير في النهاية عميلاً للموساد تمكن من تسريب وثائق وخرائط عسكرية.. موضحًا عليها منصّات الصواريخ "سام ٦" المضادة للطائرات.. التي كانت القوات المسلحة تسعى ليل نهار لنصبها لحماية مصر من غارات العمق الإسرائيلية.

لقد لاحظت القيادة العامة للقوات المسلحة وجهازا المخابرات العامة والحربية، أن مواقع الصواريخ الجديدة تدمر أولاً بأول بواسطة الطيران الإسرائيلي.. حتى قبل أن يجف الإسمنت المسلح بها، وحدثت خسائر جسيمة في الأرواح، وتعطّل تقدم العمل وإنجاز الخطة التي وضعت لإقامة حائط الصواريخ المضادة للطائرات.

تزامنت الأحداث مع وصول معلومات لرجال المخابرات المصرية.. بوجود عميل "عسكري" قام بتسريب معلومات سرية جدًا إلى إسرائيل. وبدأ شك مجنون في كل شخص ذي أهمية في القوات المسلحة، وفي مثل هذه الحالات لا يستثنى أحد بالمرة بدءًا من وزير الدفاع.

يقول السفير "عيسى سراج الدين" سفير مصر في كوبنهاغن.. ووكيل وزارة الخارجية بعد ذلك:

"اتسعت دائرة الرقابة التليفزيونية والبريدية لتشمل دولاً كثيرة أخرى، مع رفع نسبة المراجعة والرقابة إلى مائة في المائة من الخطابات وغيرها، كل ذلك لمحاولة كشف الكيفية التي تصل بها هذه المعلومات إلى الخارج. كما بدأت رقابة قوية وصارمة على حياة وتصرفات كل من تتداول أيديهم هذه المعلومات من القادة، وكانت رقابة لصيقة وكاملة. وقد تبينت طهارتهم ونقاءهم. ثم أدخل موظفو مكاتبهم في دائرة الرقابة.. ومساعدوهم ومديرو مكاتبهم.. وكل من يحيط بهم مهما صغرت أو كبرت رتبته".

في تلك الأثناء كانت هبة سليم تعيش حياتها بالطول وبالعرض في باريس. عرفت الخمر والتدخين وعاشت الحياة الأوروبية بكل تفاصيلها. وكانت تشعر في قرارة نفسها بأنها خلقت لتعيش في أوروبا. وتكره مجرد مرور خاطرة سريعة تذكرها بمصريتها. لقد نزفت عروبتها نزفًا من شرايين حياتها، وتهللت بشرًا عندما عرض عليها ضابط الموساد زيارة إسرائيل، فلم تكن لتصدق أبدًا أنها مهمة إلى هذه الدرجة. ووصفت هي بنفسها تلك الرحلة قائلة: طائرتان حربيتان رافقتا طائرتي كحرس شرف وتحية لي. وهذه إجراءات تكريمية لا تقدم أبدًا إلا لرؤوساء وملوك الدول الزائرين.. حيث تقوم المقاتلات بمرافقة طائرة الضيف حتى مطار الوصول.

وفي مطـار تـل أبيـب كـان ينتظرنـي عـدد مـن الضبـاط اصطفوا بجوار سيارة ليموزين سوداء تقف أسفل جناح الطائرة، وعندمـا أدوا التحيـة العسـكرية لـي تملكنـي شعور قوي بالزهو. واستقبلني بمكتبه "مائير عاميت" رئيس جهاز الموساد، وأقام لـي حفل استقبال ضخمًا ضم نخبة من كبار ضباط الموساد علـى رأسـهم "مـايك هـراري" الأسطورة، وعندما عرضوا تلبية كل "أوامري".. طلبـت مقابلـة غولـدا مـائير رئيسـة الوزراء التي هزمت العرب ومرغت كرامتهم. ووجدت على مدخل مكتبها صفًا من عشرة جنرالات إسرائيليين أدوا لي التحية العسـكرية.. وقـابلتني مسـز مـائير ببشاشـة ورقة وقدمتني إليهم قائلة: "إن هذه الأنسة قدمت لإسرائيل خدمات أكثر مما قدمتم لهـا جميًا مجتمعين".

وبعـد عدة أيـام عـدت إلـى بـاريس.. وكنـت لا أصـدق أن هـذه الجنـة "إسـرائيل" يتربص بها العرب ليدمروها!!.

وفي القاهرة.. كان البحـث لا يـزال جاريًـا علـى أوسـع نطـاق، والشـكوك تحـوم حـول الجميـع، إلـى أن اكتشـف أحـد مراقبـي الخطابــات الأذكيــاء "مــن المخــابرات الحربية" خطابًا عاديًا مرسلاً إلى فتاة مصرية في بـاريس سـطوره تفيـض بـالعواطف من حبيبها.

لكن الذي لفت انتباه المراقب الذكي عبارة كتبهـا مرسـل الخطـاب تقـول إنـه قـام بتركيب "هوائيّ" الراديو الذي عنده، ذلك أن عصـر "الهوائيّ" للراديو قد انتهى. إذن.. فالهوائيّ يخص جهازًا لاسلكيًا للإرسال والاستقبال.

وانقلبت الدنيا في جهازي المخابرات الحربيـة والمخـابرات العامـة وعنـد ضبـاط البوليس الحربي، وتشكلت عدة لجان من أمهر رجال المخابرات، ومع كل لجنة وكيـل نيابة ليصدر الأمر القانوني بفتح أي مسكن وتفتيشه. وكانت الأعصـاب مشـدودة حتـى

أعلى المستويات في انتظار نتائج اللجان، حتى عثروا على الهوائي فوق إحدى العمارات.. واتصل الضابط في الحال باللواء فؤاد نصار مدير المخابرات وأبلغه باسم صاحب الشقة.. فقام بإبلاغ الفريق أول أحمد إسماعيل وزير الدفاع "قبل أن يصبح مشيرًا" الذي قام بدوره بإبلاغ الرئيس السادات.

تبين أن الشقة تخص المقدم فاروق الفقي، وكان يعمل وقتها مديرًا لمكتب أحد القيادات الهامة في الجيش، وكان بحكم موقعه مطلعًا على أدق الأسرار العسكرية، فضلاً عن دوره الحيوي في "منظمة سيناء" التي كانت تضم عناصر مدنية من سكان سيناء، تتكفل المخابرات الحربية بتدريبهم على أعمال القتال والنسف والرصد خلف خطوط العدو في سيناء بعد حرب ١٩٦٧، وكان يتم الدفع بهم من الضفة الغربية إلى الضفة الشرقية بالأسلحة المختلفة، للقيام بعمليات محددة، وبتعاون وثيق من أعضاء المنظمة من البدو المقيمين. وكان لهذه العمليات الأثر الكبير في رفع معنويات الجيش المصري بعد الهزيمة التي مني بها.

كان الضابط الجاسوس أثناء ذلك في مهمة عسكرية بعيدًا عن القاهرة.

وعندما اجتمع اللواء فؤاد نصار بقائد الضابط الخائن.. "قيل بعد ذلك إنه ضابط كبير له دور معروف في حرب تشرين الأول - أكتوبر، واشتهر بخلافه مع الرئيس السادات حول الثغرة".. رفض القائد أن يتصور حدوث خيانة بين أحد ضباط مكتبه، خاصة وأن المقدم فاروق يعمل معه منذ تسع سنوات، بل وقرر أن يستقيل من منصبه إذا ما ظهر أن رئيس مكتبه جاسوس للموساد.

عندما دخل الخائن إلى مكتبه.. كان اللواء حسن عبد الغني نائب مدير المخابرات الحربية ينتظره جالسًا خلف مكتبه بوجه صارم وعينين قاسيتين، فارتجف رعبًا وقد جحظت عيناه وقال في الحال "هو أنتم عرفتوا؟؟".

وعندما ألقي القبض عليه استقال قائده على الفور، ولزم بيتـه حزينًـا علـى خيانـة فاروق والمعلومات الثمينة التي قدمها للعدو.

وفي التحقيق اعترف الضابط الخائن تفصيليًّا بأن خطيبته جندتـه بعد قضـاء ليلـة حمراء معها.. وأنه رغم إطلاعها على أسرار عسكرية كثيرة إلا أنه لم يكن يعلم أنهـا ستفيد العدو.

وعند تفتيش شقته أمكن العثور علـى جهـاز اللاسلكي المتطـور الـذي يبث مـن خلاله رسائله، وكذا جهاز الراديو ونوتة الشيفرة، والحبر السري الـذي كـان بزجاجـة دواء للسعال. ضبطت أيضًا عدة صفحات تشـكل مسـودة بمعلومـات هامـة جدًا معدة للبث، ووجدت خرائط عسـكرية بالغـة السرية لأحشـاء الجيش المصـري وشـرايينه، تضم مواقع القواعد الجوية والممـرات والـرادارات والصواريـخ ومرابـض الدفاعـات الهامة.

وفـي سـرية تامـة.. قُدّم سريعًا للمحاكمـة العسـكرية التـي أدانتـه بـالإعدام رميًـا بالرصاص.. واستولى عليه ندم شديد عندما أخبروه بأنه تسبب فـي مقتـل العديد مـن العسكريين من زملائه من جراء الغارات الإسرائيلية. وأخذوه في جولـة لـيرى بعينـه نتائج تجسسه. فأبدى استعداده مرات عديدة لأن يقوم بأي عمل يأمرونه به. ووجدوا - بعد دراسة الأمر بعناية - أن يستفيدوا من المركز الكبير والثقـة الكاملـة التـي يضعهـا الإسرائيليون في هذا الثنائي، وذلك بأن يستمر في نشاطه كالمعتـاد خاصـة وأنّ الفتـاة لم تعلم بعد بأمر القبض عليه والحكم بإعدامه.

وفي خطة بارعة من المخابرات الحربية، أخذوه إلى فيلا محاطة بحراسة مشددة، وبداخلها نخبة من أذكى وألمع رجـال المخـابرات المصريـة تتولـى "إدارة" الجاسـوس وتوجيهه، وإرسال الرسائل بواسطة جهاز اللاسلكي الذي أحضرتـه لـه الفتـاة ودربتـه

عليه. وكانت المعلومات التي ترسل هي بالطبع من صنع المخابرات الحربية، وتم توظيفها بدقة متناهية في تحقيق المخطط للخداع، حيث كانت حرب أكتوبر قد اقتربت، وهذه هي إحدى العمليات الرئيسية للخداع التي ستترتب عليها أمور استراتيجية مهمة بعد ذلك.

لقد كان من الضروري الإبقاء على هبة في باريس والتعامل معها بواسطة الضابط العاشق. واستمر الاتصال معها بعد القبض عليه لمدة شهرين، ولما استشعرت القيادة العامة أن الأمر أخذ كفايته.. وأن القيادة الإسرائيلية قد وثقت بخطة الخداع المصرية وابتلعت الطعم، تقرر استدراج الفتاة إلى القاهرة بهدوء.. لكي لا تهرب إلى إسرائيل إذا ما اكتشف أمر خطيبها المعتقل.

وفي اجتماع موسع.. وضعت خطة القبض على هبة.. وعهد إلى اللواء حسن عبد الغني ومعه ضابط آخر بالتوجه إلى ليبيا لمقابلة والدها في طرابلس حيث كان يشغل وظيفة كبيرة هناك. وعرّفاه على شخصيتيهما وشرحا له أن ابنته هبة التي تدرس في باريس تورطت في عملية اختطاف طائرة مع منظمة فلسطينية، وأن الشرطة الفرنسية على وشك القبض عليها.. وما يهم هو ضرورة هروبها من فرنسا لعدم تورطها، ولمنع الزج باسم مصر في مثل هذه العمليات الإرهابية. وطلبا منه أن يساعدهما بأن يطلبها للحضور لرؤيته بحجّة أنّه مصاب بذبحة صدرية.

أرسل الوالد برقية عاجلة لابنته.. فجاء ردها سريعًا ببرقية تطلب منه أن يغادر طرابلس إلى باريس.. حيث حجزت له مكانًا في أكبر المستشفيات هناك وأنها ستنتظره بسيارة إسعاف في المطار.. وأن جميع الترتيبات للمحافظة على صحته قد تم اتخاذها.

ولكي لا تترك المخابرات المصرية ثغرة واحدة قد تكشف الخطة بأكملها.. فقد تم إبلاغ السلطات الليبية بالقصة الحقيقية، فتعاونت بإخلاص مع الضابطين من أجل اعتقال الجاسوسة المصرية. وتم حجز غرفة في مستشفى طرابلس وإفهام الأطباء المسؤولين مهمتهم وما سيقومون به بالضبط.

وبعدما أرسل والدها ردًا بعدم استطاعته السفر إلى باريس لصعوبة حالته.. صح ما توقعه الضابطان، إذ حضر شخصان من باريس للتأكد من صحة البرقية وخطورة المرض، وسارت الخطة كما هو مرسوم لها، وذهب الإسرائيليان إلى المستشفى وتأكدا من الخبر، فاتصلا في الحال بالفتاة التي ركبت الطائرة الليبية في اليوم التالي إلى طرابلس.

وعلى سلم الطائرة عندما نزلت هبة درجات كان الضابطان المصريان في انتظارها، وصحباها إلى حيث تقف الطائرة المصرية على بعد عدة أمتار من الطائرة الليبية.. فسألتهما: "إحنا رايحين فين؟"

فرد أحدهما: "المقدم فاروق عايز يشوفك".

فقالت: "هو فين".

فقال لها: "في القاهرة".

صمتت برهة ثم سألت: "أمال إنتم مين؟".

فقال اللواء حسن عبد الغني: "إحنا المخابرات المصرية".

وعندما أوشكت أن تسقط على الأرض.. أمسكا بها وحملاها حملاً إلى الطائرة التي أقلعت في الحال، بعد أن تأخرت ساعة عن موعد إقلاعها في انتظار الطائرة القادمة من باريس بالهدية الغالية.

لقد تعاونت شرطة المطار الليبي في تـأمين انتقـال الفتـاة لعدة أمتـار حيث تقف الطائرة المصرية.. وذلك تحسبًا من وجود مراقب أو أكثر صاحب الفتاة فـي رحلتهـا بالطائرة من باريس.. قد يقدم على قتل الفتاة قبل أن تكشف أسرار علاقتها بالموساد.

وبـلا شـك.. فاعتقـال الفتـاة بهـذا الأسـلوب المـاهر جعلهـا تتسـاءل عـن القيمـة الحقيقيـة للوهـم الـذي عاشـته مـع الإسـرائيليين. فقـد تـأكدت أنهـم غيـر قـادرين علـى حمايتهـا أو إنقاذهـا مـن حبـل المشـنقة. وهـذا مـا جعلهـا تعـترف بكـل شـيء بسـهولة بالتفصيل.. منذ أن بدأ التحقيق معها في الطائرة بعد إقلاعها مباشرة. وبعد أيـام قليلـة من اعتقالها تبين لها وللجميـع عجـز الإسـرائيليين عـن حمايـة إسـرائيل نفسـها وعـدم قدرتهم على إنقاذها.

فقد جاءت حرب تشرين الأول ـ أكتوبر وتدمير خط بارليف بمثابة الصدمة التـي أذهلت أميركا قبل إسرائيل. فـالخداع المصـري كـان علـى أعلـى مسـتوى مـن الدقـة والذكـاء. وكـانت الضربـة صائبـة إذ أربكـت العـدو وشـلته.. لـولا المـدد العسـكري الأمـيركي.. والأسـلحة المتطـورة.. والصـواريـخ السـرية.. والمعونـات.. وإرسـال الطيارين والفنيين الأميركان كمتطوعين.

لقد خسرت إسرائيل في ذلك الوقت من المعركة حوالي مائتي طائرة حربية. ولـم تكن تلك الخسارة تهم القيادة الإسرائيلية بقدر ما خسرته من طيارين ذوي كفاءة عالية قتلوا في طائراتهم، أو انهارت أعصـاب بعضـهم ولـم يعـودوا صـالحين للقتـال. ولقد سبب سقوط الطائرات الإسرائيلية بالعشرات حالة من الرعب بعد عدة أيـام مـن بـدء المعركة.. إلى أن وصلت المعونـات الأميركيـة لإسـرائيل فـي شكل طيـارين وفنيين ووسائل إعاقة وتشويش حديثة.

تبخرت أوهام الجاسوسة هبة سليم.. وايقنت أنها كانت ضحية الوهم الذي سيطر على فكرها وسرى بشرايينها لمدة طويلة للدرجة التي ظنت أنها تعيش الواقع من خلاله.. لكن ها هي الحقائق تتضح بلا أكاذيب.

لقد حُكم عليها بالإعدام شنقًا بعد محاكمة منصفة اعترفت صراحة أمامها بجريمتها.. وأبدت ندمًا كبيرًا على خيانتها. وتقدمت بالتماس لرئيس الجمهورية لتخفيف العقوبة لكن التماسها رفض.

وكانت تعيش أحلك أيامها بالسجن تنتظر تنفيذ الحكم.. عندما وصل هنري كيسنجر وزير الخارجية الأميركي لمقابلة الرئيس السادات في أسوان في أول زيارة له إلى مصر بعد حرب أكتوبر.. وحمّلته غولدا مائير رسالة إلى السادات ترجوه تخفيف الحكم على الفتاة. ومن المؤكد أن كيسنجر كان على استعداد لوضع ثقله كله وثقل دولته خلف هذا الطلب. وتنبه الرئيس السادات الذي يعلم بتفاصيل التحقيقات مع الفتاة وصدور الحكم بإعدامها.. إلى أنها ستصبح مشكلة كبيرة في طريق السلام. فنظر إلى كيسنجر قائلاً:

"تخفيف حكم؟.. ولكنها أعدمت..!!"

دهش كيسجنر وسأل الرئيس:

"متى"..؟

ودون أن ينظر لمدير المخابرات الحربية قال السادات كلمة واحدة:

"النهار ده". وفعلاً.. تم تنفيذ حكم الإعدام شنقًا في هبة سليم في اليوم نفسه في أحد سجون القاهرة.

أما الضابط العاشق - المقدم فاروق عبد الحميد الفقي - فقد استقال قائده من منصبه لأنه اعتبر نفسه مسؤولاً عنه بالكامل. وعندما طلبت منه القيادة العامة سحب استقالته.. رفض بشدة، وأمام إصرار القيادة على ضرورة سحب استقالته.. خاصة والحرب وشيكة.. اشترط القائد للموافقة على ذلك أن يقوم هو بتنفيذ حكم الإعدام في الضابط الخائن. ولما كان هذا الشرط لا يتفق والتقاليد العسكرية.. وما يتبع في مثل الأحوال.. فقد رفع طلبه إلى وزير الدفاع "الحربية" الذي عرض الأمر على الرئيس السادات "القائد الأعلى للقوات المسلحة" فوافق فورًا ودون تردد.

وعندما جاء وقت تنفيذ حكم الإعدام رميًا بالرصاص في الضابط الخائن.. لا أحد يعرف ماذا كان شعور قائده وهو يتقدم ببطء.. يسترجع في شريط سريع تسع سنوات مرت عليهما في مكتب واحد.. تسع سنوات كان بعضها في سواد الليل.. وبعضها تتلألأ خلاله ومضات الأمل قادمة من بعيد.. الأمل في الانتصار على اليهود السفاحين.. وبينما كان يخطط لحرب أكتوبر كان بمكتبه هذا الخائن الذي باع الوطن والأمن وقتل بخيانته أبرياء..

لا أحد يعرف ماذا قال القائد له. وماذا كان رد الضابط عليه.. لا أحد يعرف.

هل طلب منه أن ينطق بالشهادتين. وأن يطلب المغفرة من الله؟.. لا أحد يعرف.

لكن المؤكد أنه أخرج مسدسه من جرابه.. وصوبه على رأس الضابط وأطلق طلقتين عليه كما تقضي التعليمات العسكرية في حالة إعدام الخونة[1]..

---

١ - الفالوجي فريد، جواسيس الموساد العرب (مكتبة مدبولي،٢٠٠٣) ص١٩١ - ٢٠٤.

أمينة المفتي

ولدت "أمينة داود المفتي" في العاصمة الأردنيّة عمّان عام ١٩٣٥، وقيل عام ١٩٣٦، لأسرة شركسيّة مسلمة. حصلت على الثانويّة العامّة بدرجة جيّد، وكانت تميل أثناء دراستها إلى علم النفس، فسافرت إلى النمسا، ودرست في جامعتها هذا الاختصاص، وحصّلت فيه درجة دكتوراه. وحين عادت إلى عمّان بعد حرب حزيران - يونيو ١٩٦٧، عملت على استئجار بناء جعلته مستشفى للمعاقين جسديًا وعقليًا، ثمّ ما لبثت أن اختلفت مع وزير الصحّة في حينه الذي اتّهمها بالاختلاس، وفسخ عقدها مع الوزارة بعدما تبيّن له أنّ شهادة العلم النفسيّ التي تحملها لا تخوّلها التطبيب. وبعد تصفية مستشفاها حقدت على وزير الصحّة وعلى جميع العرب، حسب ادّعائها في ما بعد. وما لبثت أن عادت إلى النمسا للعمل هناك.

وفيما يقول بعض المراجع أنّها تعرّفت في النمسا على طيّار نمساويّ يهوديّ سرعان ما تزوّجت منه برضا أهله ومعارضة أهلها، وانطلاقًا من حقدها على العرب، شجّعت زوجها على الالتحاق بالطيران الإسرائيليّ... تقول مراجع أخرى إنّ ذلك الطيّار كان إسرائيليًّا يزور النمسا. ومن المرجّح أنّ الطيّار الإسرائيليّ كان في مهمّة للعثور على عميل عربيّ له قيمته. وبدت أمينة كما لو كانت اختيارًا موفّقًا وله جاذبيّته. فالشراكسة في إسرائيل كانوا يتعاونون بالفعل مع مؤسّسة المخابرات في الدولة اليهوديّة عن طريق اختراقهم للمجتمع العربيّ. وتمّ تجنيد أمينة المفتي من قبل

الموساد في فيينّا عام ١٩٧٢. وقد جاءت موافقة أمينة المفتي على القيام بمهمّتها بسبب كراهيّتها لمنظّمة التحرير الفلسطينيّة، وإلقائها اللوم على المتطرّفين لعملهم على إطالة أمد الصراع في الشرق الأوسط. وكان عليها أن تنتقل إلى بيروت في بداية عام ١٩٧٣، وأن تلتقي بأكبر عدد من الفلسطينيّين.

كانت أمينة المفتي قد تلقّت بالفعل قسطًا من التعليم الطبّي، وساعدها الإسرائيليّون على افتتاح عيادة لها. وأصبحت مشغولة للغاية بعد اندلاع الحرب الداخليّة في لبنان عام ١٩٧٥، وقيامها بمعالجة الجرحى من الفلسطينيّين الذين كانوا يقاتلون في تلك الحرب. ومن سخريات القدر، أصبحت الموساد تموّل إجراءات الرعاية الطبيّة لمنظّمة التحرير الفلسطينيّة في بيروت.

صادقت أمينة المفتي كبار ضبّاط منظّمة التحرير الفلسطينيّة، وعندما كانت تخلو إلى نفسها في المساء، كانت تكتب وقائع مطوّلة لكلّ ما شاهدته أو سمعته خلال النهار. وهي لم تلتق أبدًا بأيّ مسؤول اتّصال للموساد في لبنان، لأنّها كانت تترك تقاريرها والصور التي تلتقطها في صناديق بريد عامّة في بيروت، مثل تلك الموجودة في ممرّات الفنادق أو استراحات المطاعم، حيث يتمّ إلقاء مظروف صغير يلتقطه بعد ذلك شخص مجهول. كما كانت تنقل المعلومات العاجلة إلى إسرائيل بواسطة جهاز تكنولوجي مفضّل لدى الموساد، وهو عبارة عن جهاز لاسلكيّ صغير.

توقّف سيل المعلومات التي كانت ترسلها أمينة المفتي إلى إسرائيل فجأة سنة ١٩٧٥. وتبيّن إثر ذلك أنّ الفلسطينيّين قد ألقوا القبض على أمينة. وقام الراديكاليّون في المنظّمة بتعذيبها، كما استجوبها عملاء المخابرات السوفياتيّة، وعملاء مخابرات ألمانيا الشرقيّة في خلال الأعوام الخمسة التي أمضتها سجينة في كهف بالقرب من ميناء صيدا اللبنانيّ. وقد رتّبت إسرائيل عن طريق الصليب الأحمر الدوليّ عمليّة

لتبادل الأسرى أطلقت بموجبها سراح اثنين من فدائيّي منظّمة التحرير الفلسطينيّة في مقابل الإفراج عن أمينة. وبعد أن قام الصليب الأحمر بتسليمها إلى فريق الموساد في قبرص، انتحلت شخصيّة جديدة وشغلت وظيفة طبيّة في شمال إسرائيل[1].

١ ـ راجع: رافيف دان، وميلمان يوسي، كلّ جاسوس أمير، تعريب ممدوح لطفي، دار الكتاب العربي (دمشق،١٩٩١) ص٢٦٦ ـ ٢٦٨؛ زهر الدين د. صالح، ملفّ الاستخبارات الإسرائيليّة، في موسوعة الأمن والاستخبارات في العالم، المركز الثقافي اللبناني (بيروت،٢٠٠٣) ص١٥١ ـ ١٥٨.

إنشراح موسى . . لماذا أنقذها السادات من الإعدام؟

في مدينة المِنْيَا بصعيد مصر، ولدت "إنشـراح علـي موسـى" عـام ١٩٣٧ لأسـرة متوسطة الحال.. وبرغـم التقـاليد المتزمتـة فـي ذلـك الوقـت، دخلـت الفتـاة الصعيديـة المدرسة وواصلت تعليمها حتى حصلت على الشهادة الإعدادية عام ١٩٥١.

وبعد نجاحها بأيام قليلة أراد والدها مكافأتها فاصطحبها معه إلى القاهرة لحضـور حفل عرس أحد أقاربه.

كانت إنشراح ذات وجه مليح وعينين نجلاويـن.. وجسـد دبـت بـه معـالم الأنوثـة وخرطته خرطًا.. فبدت أكبر مـن سـنها.. ممـا لفـت الأنظـار إليهـا واخترقتهـا سـهام الباحثين عن الجمال.. فكانت تقابل تلك النظـرات بحيـاء فطـري غلـف ملامحهـا ممـا زادها جمالاً فوق جمال.

وفي حفل العرس اصطدمت نظراتهـا البريئـة بنظراتـه.. فتملكهـا الخجـل وتـورد خدّاها للسع لذيذ أحست به يجتاح مشاعرها.. فيوقظها من رقدتهـا.. معلنًـا عـن مولـد مشاعر جديدة غزت عقلها وقلبها لأول مرة.

كان فتاها الذي حرك فيها دماء الأنثى هو "إبراهيـم سـعيد شـاهين" ابـن العريـش المولود عام ١٩٢٩.. الذي ما غـادر الحفل إلا وعـرف عنهـا كـل شـيء. وبعـد أيـام قلائل فوجئت به يطرق باب بيتها في المنيا برفقة والده.. طارت انشراح من السـعادة وحلقت بين السحب بخيالها تستطلع مستقبلها الهنيء.. فمنـذ رأتـه فـي الحفـل انغـرس

حبه بصدرها.. وباتت تحلم به وتترقب الليل لتسرح معه طويلاً.. وتطوف مع نظراته الحانية في عوالم الأمل.. والحبور..

وانزعجت الفتاة الصغيرة عندما اعترضت والدتها في أمر زواجها منه.. متحججة ببعد المسافة بين المنيا والعريش.. وبكت بحرقة وهي ترى أحلامها الوردية تكاد أن تتحقق.. ثم سرعان ما تنهار في ذات الوقت.. دون أن تقدر على عمل شيء..

وأمام دموعها الصامتة.. سألها أبوها: ـ أتوافقين عليه يا ابنتي..؟

فكان صمتها إجابتها.. وأُعلنت الخطبة..

وفي أول حديث مع خطيبها صارحته بأنها أعجبت به مذ رأته في حفل القاهرة.. وازداد إعجابها به حينما سعى وراءها حتى المنيا ليطلب يدها.

وأكد لها الشاب الولهان أنه تمناها زوجة له منذ النظرة الأولى.. ويومها دعا ربه ألا تضيع منه أبدًا.

وفي حفل أكثر من رائع انتقلت انشراح إلى بيت الزوجية في العريش.. تحفّها السعادة بحبيبها الذي أيقظ فيها مشاعر دفينة لم تكن تدركها.. وأرسل إلى قلبها سهام الحب فأسلمت إليه نفسها.. وتدفقت موجات متلاحقة من الحب مع كل نبضة من نبضات قلبها الصغير.

كان إبراهيم شاهين يعمل كاتب حسابات بمكتب مديرية العمل بالعريش.. وهو أيضًا لم يحصل سوى على الإعدادية مثلها.. لذلك.. اتفق وانشراح على أن يواصلا تعليم أولادهما حتى أعلى الشهادات العلمية.. وأصبح هذا الأمل هو هدفهماالذي يسعيان إليه ويعملان على تحقيقه مهما كانت الظروف.

ومرت بهما الشهور حلوة هنيئة تحفل بالبشاشة والانسجام.. فلم يكن إبراهيم يرى في الدنيا زهرة أجمل من وجه حبيبته.. ولايسمع صوتًا أرق من صوتها.. ولا يظل عقله بمكانه كلما انفرد بها وهي ترقص له بملابسها الشفافة.. فهي تحب الرقص ويستهويها الجنس.. وهو يعشق هذا الجسد الذي يتلوى وينثني أمامه.. وبنظراتها فوران من الرغبة كالجحيم.. وكانا إذا ما أظلمتهما سحابة حزن فسريعًا ما تتقشع.. حتى اشتهر حبهما بين الأهل والأقارب وبدا قويًا عتيًا لا يقطعه الملل أو يضعفه الكلل.

في أواخر عام ١٩٥٥ رزقا بمولودهما الأول "نبيل".. ثم جاء المولود الثاني محمد عام ١٩٥٦، ثم عادل في ١٩٥٨، فعظم حبه لها لأنها ملأت عليه الدنيا بهجة.. وملأت بيته بضجيج الأبناء الثلاثة.. وهكذا سارت بهما الحياة ترفل في أهازيج الفرح وأغاريد الوئام.

في عام ١٩٦٣ ـ وكما اتفقا من قبل ـ أرسلا بأولادهما إلى عمهم بالقاهرة ليواصلوا الدراسة هناك.. وليعيشوا حياة رغدة بعيدًا عن مظاهر البداوة وظروف الحياة الأقل حظًّا من العاصمة.. وفي أكتوبر ١٩٦٦ ضبط إبراهيم بتلقي الرشوة وحبس ثلاثة أشهر.. خرج بعدها ليكتشف مدى قسوة الظروف التي تمر به.. والمعاناة الشديدة في السعي نحو تحقيق آماله في الارتقاء والثراء.

وذات يوم من أيام التاريخ المكفهرة ـ اجتاحت إسرائيل سيناء واحتلتها في حزيران ـ يونيو ١٩٦٧.. وأغلقت فجأة أبواب السبل أمام السفر إلى القاهرة.. فتأزمت انشراح نفسيًا قلقًا على أولادها.. وكانت كلما نامت تراهم في المنام يستغيثون بها فتصرخ وتستيقظ.. ويحتضنها الزوج الملتاع في حنان ويهدئ من روعها.. وإن كان هو الآخر لايقل عنها قلقًا واشتياقًا لهم.

هكذا تظل انشراح تبكي معظم الليل والنهار حتى قارب عودها على الذبول.. وأوشك جمالها أن ينطفئ. ووجد إبراهيم أن الحياة في العريش كما لو كانت في الأسر.. فالحزن يخيم على البيت الذي ماعرف إلا الضحك والفرح.. والمعيشة أضحت في أسوأ حال.. فمنذ الغزو وهو عاطل عن العمل لايملك المال الذي يشتري به أبسط الأشياء..كالشاي.. والشاي عند البدوي يعد من الضروريات الأساسية في حياته.. فاستعاض عنه إبراهيم بعشب بري يعرف باسم "المرمرية" له مذاق طيب.. وأصبحت المرمرية مشروبًا مستقلاً في بيته بعدما كانت وريقاتها تضاف إلى الشاي كالنعناع.

وسط هذا المناخ كانت المخابرات الإسرائيلية تعمل بنشاط زائد.. وتسعى لتصيد العملاء بسبب الضغوط المعيشية الصعبة وظروف الاحتلال.. فالاحتلال الفجائي لسيناء وقع على سكانها كالصاعقة، فاختنقت نفوس الأهالي برغم اتساع مساحات الأرض والجبال.. ولكونهم ذوي تقاليد بدوية ومحبين للحركة والتجوال والتنقل، أحسوا بثقل الأمر ولم يطيقوه.. لكن الظروف التي وضعوا فيها اضطرتهم إلى محاولة تحملها لثقتهم بأنها أزمة لن تطول. لكن ما كان يحز في نفوسهم هو تضييق الخناق عليهم في المعيشة والتنقل.. فكانت التصاريح التي يمنحها الحاكم العسكري الإسرائيلي لا تتم بسهولة.. وأصبح السفر إلى القاهرة يحتاج لمعجزة من السماء.. فالتعنّت في منح التصاريح بلغ منتهاه.. واشتدت عضات الغضب في الصدور.. إلى جانب آلام الجوع التي تنهش الأبدان وتجتث الصبر والقوة.

ضاقت الحياة باتساعها على إبراهيم وانشراح في العريش.. وخلا البيت من الطعام والشراب والسرور.. وخيمت قتامة سوداوية على نفسيهما.. فازدادا يأسًا وشوقًا إلى الأبناء في العاصمة.. وأمام البكاء المستمر الذي تورمت له عينا انشراح..

اندفع إبراهيم إلى مكتب الحاكم العسكري يطلب تصريحًا له ولزوجته بالسفر إلى القاهرة.

ولما ماطلوه كثيرًا بوعود كاذبة.. صرخ في وجه الضابط الإسرائيلي قائلاً إنه فقد عمله ودخله ولا يملك قوت يومه.. فطمأنه الضابط "أبو نعيم" ووعده بالنظر في أمر التصريح في أسرع وقت.. وبعد حديث طويل بينهما حاول إبراهيم خلاله التقرب إليه لإنجاز التصريح.. أمر له أبو نعيم بكيس من الدقيق وبعض أكياس الشاي والسكر.. فحملها فرحًا إلى زوجته وهو يزف إليها السفر إلى القاهرة عما قريب.

استبشرت انشراح خيرًا وغمرتها السعادة بما جاءها به، وغاصت في أحلامها وتخيلاتها باللقاء الحميم مع فلذات أكبادها. لكن الأيام تمر وأبو نعيم لا ينفذ وعده.. ويعود إبراهيم في كل مرة محبطًا.. لكنه كان يحمل معه دائمًا أكياس المواد التموينية التي أصبحت هي المصدر الوحيد للإعاشة.. ولولاها لمات جوعًا هو وزوجته.

وذات صباح فوجئ بمن يستدعيه لمكتب أبو نعيم.. فذهب إليه في الحال وقدم له الشكر على الإعانة الدورية التي يمنحها له.. فأخبره الضابط بأن الحاكم العسكري وافق على منحه تصريح السفر هو وزوجته..

تهلل وجه إبراهيم بشرًا وقبل ظهر يده شكرًا لله.. فباغته أبو نعيم وقال له بأن موافقة الحاكم العسكري جاءت بشرط أن يكون متعاونًا ويأتيه بأسعار الفاكهة والخضروات في مصر.. والحالة الاقتصادية للبلد بواسطة أخيه الذي يعمل بالاستيراد والتصدير.

أجاب إبراهيم على الفور أن الشرط بسيط للغاية.. فبإمكانه القيام بهذه المسألة خير قيام.. وأضاف بأنه سيأتيهم بأسعار السلع الاستهلاكية والبقالة والسمك أيضًا..

ولو أنهم أرادوا أكثر من ذلك لفعل. عندئذ.. وضحت الرؤية للضابط الإسرائيلي.. فقد نجح إبراهيم شاهين في الاختبار الأول.. وكان عليه أن يتصرف معه حسبما هو متبع.. ويحيله إلى الضابط المختص لإكمال المهمة.. فدوره ينحصر فقط في "الفرز" لا أكثر.

وبينما إبراهيم وانشراح يحتفلان بالأمل الجديد الذي راودهما طويلاً.. توقفت سيارة جيب أمام المنزل، وطلب منه جندي أن يرافقه إلى مكتب الأمن.. وهناك كان ينتظره ضابط يدعى "أبو يعقوب" بالغ في الاحتفاء به بدعوى أن أبا نعيم أوصاه به خيرًا. فشكره إبراهيم وأثنى على أبو نعيم وامتد بينهما الحوار لوقت طويل.. استشف أبو يعقوب بحاسته أن إبراهيم يدرك ما يبتغيه منه.. فطلب منه أن يذهب إلى بئر سبع.. حيث المكتب الرئيسي للأمن المختص بالتعامل مع أبناء سيناء.

وفي بئر سبع استضافوه وأكرموه بكل السبل، ولوحوا له بإغراءات ما كان يحلم بمثلها يومًا.. ونظير إغراقه بالنقود وتأمين حياته وذويه في العريش وافق إبراهيم على التعاون مع الإسرائيليين في جمع المعلومات عن مصر.. وتسلم ـ كدفعة أولى ـ ألف دولار في الوقت الذي لم يكن يملك فيه ثمن علبة سجائر.

لم تكن تلك الإغراءات أو التهديدات المغلفة هي وحدها السبب الأول في سقوطه.. لكن تشريح شخصيته يعطينا مؤشرًا عن استعداده الفطري للخيانة.. فلا يمكن لشخص سوِيّ أن يستسهل بيع نفسه ووطنه هكذا بسهولة.. لمجرد منفعة مادية موقتة.. فالمؤكد أن خلايا الخيانة كانت قابعة بين أنسجته منذ ولادته.. وكان يجاهد كثيرًا حتى وجد لها منفذًا فأخرجها.

ففي بئر سبع تغير المشهد.. إذ تحول إبراهيم شاهين من مواطن يسعى للحصول على تصريح بالسفر إلى القاهرة.. إلى جاسوس لإسرائيل وعينًا لها على وطنه.

تناقض شاسع بين الحالين يدعونا للبحث في تقلبات النفس البشرية التي لا يعلم سرها إلا خالقها..

أخضع الجاسوس الجديد لدورة تدريبية مكثفة تعلم أثناءها الكتابة بالحبر السري وتظهير الرسائل.. ووسائل جمع المعلومات من الأهل والأصدقاء.. درب أيضًا على كيفية التمييز بين الطائرات والأسلحة المختلفة.. واجتاز العميل الدورة بنجاح أذهل مدربيه.. فأثنوا عليه ووعدوه بالثراء وبالمستقبل الرائع.. وبحمايته في القاهرة حتى وهو بين ذويه.. فعيونهم في كل مكان لا تكل.

دربوه أيضًا على كيفية بث الإشاعات وإطلاق النكات السياسية التي تسخر من الجيش والقيادة.. إلى جانب الاحتراز وامتلاك الحس الأمني العالي، ولقنوه شكل الاستجواب الذي سيتعرض له حال وصوله القاهرة من قبل أجهزة الأمن. وكيف ستكون إجاباته التي لا تثير الشكوك من حوله.

وعندما رجع إلى بيته محملاً بالهدايا لزوجته وأولاده.. دهشت انشراح وسألته عن مصدر النقود.. فهمس لها بأنه أرشد اليهود عن مخبأ فدائي مصري فكافأوه بألف دولار.. ووعدوه بمنحه التصريح خلال أيام.

بهتت الزوجة البائسة لأول وهلة.. ثم سرعان ما عانقت زوجها سعيدة بما جلبه لها.. وقالت له في امتنان:

ـ كانوا سيمسكونه لا محالة.. إن عاجلاً أو آجلاً..

فسألها في خبث:

ـ ألا يُعد ذلك خيانة..؟

فغرت فاهها وارتفع حاجباها في استنكار ودهشة وأجابته:

- مستحيل.. كان غيرك سيبلغ عنه ويأخذ الألف دولار.. أنت ما فعلت إلا الصح.

غمغم إبراهيم كأنه مستاء مما فعل وأضاف:

- لقد عاملوني بكرم شديد.. ووعدوني بالكثير بسبب إخلاصي.. وتعهدوا بحماية أهلي وأقاربي إذا ما تعاونت معهم في القاهرة..

صرخت انشراح في هلع:

- تعاونت معهم في القاهرة..؟ يا نهار إسود يا إبراهيم.. كيف..؟

وهو يغلق فمها بيده:

- طلبوا مني موافاتهم بأسعار الخضر والفاكهة في مصر نظير ٢٠٠ دولار لكل خطاب.

أذهلها المبلغ فسرحت بخيالها وألجمها الصمت ثم قالت له فيما يشبه الهمس:

- أنا خائفة.

جذبها إلى صدره واحتضنها بقوة وأخذ يردد:

- أنا لا أملك عملاً الآن وليس لي مورد رزق.. وبالمعلومات التافهة التي طلبوها سآخذ الكثير وسنعيش في مأمن من الفقر.. ثم إنني لست عسكريًا حتى أخاف على نفسي.. ولأنني رجل مدني فمعلوماتي ستكون هزيلة ولن تفيدهم بشيء.

وظل الثعبان ينفث السم الزعاف في أذني زوجته حتى هدأت.. وشمل المنزل سكون لا يقطعه إلا صوت ارتطام الرغبة.. وتصادم جسدان يلهثان بفعل رعشات الشوق وحرارة اللقاء.

وبعدما هدأت الأنفاس وجف العرق.. وارتمت الأعضاء تتوسل الراحة.. لامست بخدها خدَّه.. ولفح وجهه شعرها الكث الناعم الرطب.. وأعلنت المفاجأة التي شلت تفكيره.. وتركيزه أيضًا..

قالت له إنها لكي لا تكون قلقة خائفة.. يجب أن يطلعها على رسائله أولاً بأول.. وأن تقوم بشطب أيّ معلومات لا داع لإرسالها لهم.

ولما وافقها إبراهيم على الشرط النهائي لموافقتها.. نامت قريرة العين تتوسد ذراعه.. واستغرق هو في تفكير عميق.. بينما أنفاسها المنتظمة الرتيبة تشبه فحيح أفعى تتربص بفريستها.

في ١٩ تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٦٧ وصل إبراهيم وانشراح إلى القاهرة بواسطة الصليب الأحمر الدولي.. فمنح مسكنًا مجانيًّا موقتًا في حيّ المطرية.. ثم أعيد إلى وظيفته من جديد بعدما نقلت محافظة سيناء مكاتبها من العريش إلى القاهرة.

بعدما استقرت الأمور قليلاً.. انتقل إبراهيم إلى حي الأميرية المزدحم.. ومن خلال المحيطين به في العمل والمسكن.. بدأ في جمع المعلومات وتصنيفها.. وكانت زوجته تساعده بتهيئة الجو الآمن لكتابة رسائله بالحبر السري.. وكثيرًا ما كانت تعيد صياغة بعض الجمل بأسلوب أفضل.. وتكتب أيضًا تحياتها إلى الموساد على أنها شريكة في العمل.. واعتاد إبراهيم أن يختتم رسائله بعبارة: "تحيا إسرائيل العظمى... موسى".

ولأجل التغطية اتجه إلى تجارة الملابس والأدوات الكهربائية.. وبواسطة المال والهدايا كان يتغيب كثيرًا عن العمل غالبية أيام الأسبوع. ولشهور عديدة تواصلت الرسائل إلى روما مزدحمة بالأخبار.. مما حدا برجال الموساد إلى دعوته إلى روما

لاستثمار هذا الثنائي الرائع في مهام أكثر أهمية.. وفي آب ـ أغسطس ١٩٦٨ وتحت ستار التجارة لا أكثر.. أبحر الزوجان إلى لبنان.. ومنها طارا إلى روما حيث التقيا بمندوب الموساد الذي سلمهما وثيقتي سفر إسرائيليتين باسم موسى عمر ودينا عمر.. وعلى طائرة شركة العال الإسرائيلية طارا إلى مطار اللد..

كان استقبالهما في إسرائيل بالغ الحفاوة والترحيب.. إذ عوملا معاملة كبار الزوار.. وأنزلا بفيلا خيالية في تل أبيب مكثا بها ثمانية أيام.. حصلا خلالها على دورة تدريبية مكثفة في تحديد أنواع الطائرات والأسلحة.. والتصوير الفوتوغرافي.. وجمع المعلومات.. ومنح إبراهيم رتبة عقيد في الجيش الإسرائيلي باسم موسى. أما انشراح فقد منحت رتبة ملازم أول باسم دينا.

وفي مقابلة مع أحدى القيادات العليا في الموساد.. أكدت انشراح على ضرورة زيادة المكافآت لاشتراكها في العمل يدًا بيد مع إبراهيم.. ووصفت صعوبة جمع المعلومات ما لم يشتركا معًا في جمعها وتصنيفها.. وأفاضت في سرد العديد من الحيل التي تقوم بها لانتزاع المعلومات من العسكريين الذين صادقهم زوجها ويجيئون لمنزلهما.. ومن ذلك أنها تعلن بمرارة مدى كراهيتها للإسرائيليين وتنتظر يوم الانتقام منهم.. ولأنهم يتحدثون مع امرأة جميلة سرعان ما تنفك عقدة ألسنتهم.. وتخرج الأسرار منهم بسهولة.. خاصة والخمر تدغدغ الأعصاب وتذهب بالعقل.

ونظرًا لأهمية المعلومات التي حصلوا عليها من خلال الجاسوس وزوجته.. فقد قرروا لهما مكافأة سخية وأغدقوا عليهما بآلاف الدولارات التي عادا بها إلى القاهرة.. حيث استغلاّ وجودهما وسط حي شعبي فقير في عمل الصداقات مع ذوي المراكز الحساسة من سكان الحي.. وإرسال كل ما يصل إليهما من معلومات إلى الموساد فورًا..

لقد برعا خلال حرب الاستنزاف (١٩٦٧ ـ ١٩٧٠) في التحليل والتصنيف، وتصوير المنشآت العسكرية أثناء رحلات بالسيارة الجديدة فيات ١٢٤.

يقول الابن الأصغر عادل في حديث نشرته جريدة معاريف الإسرائيلية عام ١٩٩٧:

"لن أنسى ذلك اليوم الملعون من صيف ١٩٦٩ طيلة حياتي.. فقد استيقظت مبكرًا على صوت همسات تنبعث من حجرة نوم والدي. كان أبي وأمي مستغرقين في نقاش غريب.. وكانت أمي تمسك في يدها حقيبة جلدية بينما كان أبي يحاول إدخال كاميرا إلى داخلها لم أر مثلها من قبل في ذلك الحين.

"كانت أمي غاية في العصبية وقالت له: لا ليس كذلك.. هكذا سيرون الكاميرا. فأخرج أبي الكاميرا وأدخلها مرات ومرات إلى الحقيبة.. فجلست أنظر إليهما وهما يتناقشان.. ثم قال لي أبي: نحن ذاهبون في رحلة إلى الإسكندرية.

"وخلافًا لنا نحن الأولاد الذين سعدنا جدًا بالقيام بهذه الرحلة.. كان الوالد والوالدة غاية في القلق.. ولم أرهما متوترين إلى هذا الحد من قبل.

"أخذ أبي يتصبب عرقًا كلما ابتعدناعن القاهرة، إلى أن بلل قميصه تمامًا كلما ابتعدنا أكثر وأكثر من القاهرة. وكان يتبادل الكلمات مع أمي بصعوبة. وصمتنا نحن أيضًا لشعورنا أن هذه الرحلة ليست ككل رحلة.

"وفي تلك الفترة كانت هناك قواعد عسكرية ومصانع حربية كثيرة متناثرة حول الطرق الرئيسية في مصر. لم تخف السلطات شيئًا. ربما كنوع من استعراض القوة. وعندما بدأنا في الاقتراب من إحدى القواعد العسكرية أخرجت أمي الكاميرا وأمرها أبي قائلاً: صَوِّري.. ياللاّ صَوِّري.. صَوِّري.

"فقالت له وأصابعها ترتعش: سنذهب إلى الجحيم بسببك.

"وحركت أمي الجاكيت المعلق على النافذة وبدأت في التصوير. وامتلأت السيارة الصغيرة بصرخاتها الممزوجة بالخوف. فأجابها أبي بنفس اللهجة: هذه نهايتنا.

"واستمرت أمي في احتجاجها قائلة: سنذهب إلى السجن.

"وفي النهاية نظر أبي إليها بعيون متوسلة: عدة صور أخرى.. فقط عدة صور أخرى.

"وحاول "محمد" أن يسأل ما الذي يحدث لكن الرد الذي تلقاه كان "اسكت" فلم نسأل أية أسئلة أخرى بعد لك.

"عدنا للبيت سعداء في ذلك اليوم. وعلى الفور أغلق أبي حجرته على نفسه وبعد فترة طويلة خرج وعانق أمي وقال لها: "يا حبيبتي لقد قمت بالتقاط صور رائعة للغاية"..

"وبكت أمي وقالت له: إلى هنا يجب أن نشرح الأمر للأولاد.

"وكنا مازلنا في صدمة وغير مدركين لهذه الجلبة التي تحدث.

"وتحولت الرحلات الأسرية في أنحاء مصر إلى روتين.. وكنا نخرج في نهاية كل أسبوع وكنا نسافر إلى الأقصر، وأسوان، ليس هناك مكان لم نذهب إليه.. وأحياناً كان أبي يحصل على اجازة في وسط الأسبوع وكنا نسافر لعدة أيام.. وقد صَوَّرت قواعد ومنشآت عسكرية في مصر.. وكان أبي يُسجِّل عدد الكيلومترات في الطريق.. وبذلك يحدد موقع المصانع والقواعد العسكرية.. وكنا نحن الأولاد أفضل تغطية".

تعددت زيارات إبراهيم وانشراح إلى روما.. بعضها كان باستدعاء من الموساد.. والبعض الآخر كانت لاستثمار عشرات الآلاف من الدولارات التي حصلوا

عليها من جراء عملهما في التجسس. وفي إحدى هذه الزيارات.. قررا إشراك ولديهما لزيادة الدخل بتوسع حجم النشاط.. ولم يكن من الصعب عليهما تنفيذ ما اتفقا عليه..

يقول الابن عادل في حديثه المنشور بجريدة معاريف:

"عاد أبي وأمي ذات مساء من روما يحملان لنا الملابس الأنيقة والهدايا..

"وأحسست من خلال نظراتهما لبعضيهما أن هناك أمرًا ما يجري الترتيب له. وعرفت الحقيقة المرة عندما أجلسني أبي قبالته أنا وأخويَّ وقال في حزم:

"مررنا كثيرًا بظروف سيئة.. لم نكن نملك أثناءها ثمن رغيف الخبز.. أو حفنة من الملح. والآن نعيش جميعًا في رغد من العيش.. ويسكن حوالينا أولاد في عمركم يحيون جوعى كالعبيد.. أما أنتم فتتنعّمون بكل شيء كالملوك. ولم تسألوني يومًا من أين جئت بكل هذا..؟

"إن عملي في الحكومة.. وتجارتي أنا وأمكم وشقائي طوال تلك السنوات لم يكن هو سبب النعيم الذي نحن فيه جميعًا الآن.. والحقيقة.. أن هناك أناسًا يحبوننا للغاية.. وهم هؤلاء الذين يرسلون لنا الهدايا والمال.. وبفضلهم لدينا طعام طيب وملابس جميلة.. إنهم الإسرائيليون.. وهم الذين أنقذوا حياتنا من الجوع والضياع.. وأمَّنُوا مستقبلاً مضمونًا يحسدنا عليه كل من نعرفهم..

"حدث ذلك في صيف ١٩٧١، وكنت وقتها في الثالثة عشر من عمري، وكان أخي نبيل يكبرني بعامين تقريبًا وأخي محمّد بعام واحد.

"وكطفل.. لم أعر الأمر أهمية خاصة.. لحقيقة أن أبي "يعمل" مع الإسرائيليين. ومثل كل الأولاد.. كنت قد كبرت وتربيت على كراهية اليهود.. لكن في البيت تلقيت

تربية أخرى.. فقد عرفت أن الإسرائيليين هم المسؤولون عن الطعام الذي آكله.. وعن الملابس الجديدة التي أرتديها.. وعن الهدايا التي أتلقاها.. لذلك.. سعدت لأنني كنت محظوظًا.

"وكلما كبرت.. بدأت أدرك معنى "عمل" أبي.. وبدأ الخوف ينخر أكثر وأكثر في عظامي.. فقد كانت كماشة من الموت تطبق علينا.. وكفتى بالغ أدركت أنهم لو ضبطونا سيتم شنقنا.. من ناحية أخرى كان الخوف من حياة الفقر يصيبني بالشلل.. فقد كنت ملكًا لديه كل شيء".

هكذا انخرطت الأسرة كلها في التجسس.. وأصرت انشراح على الانتقال من الحي الشعبي الفقير إلى آخر أكثر رقيّ وثراء.. وعندما عارض زوجها قالت له:

دعنا نستمتع بالحياة فربما ضبطونا.

وفي النهاية انتقلوا إلى فيلا فاخرة بمدينة نصر.. ونقل نبيل ومحمد وعادل مدارسهم إلى الحي الراقي الجديد.

احتفظ إبراهيم شاهين بعلاقاته القديمة وأقام أخرى جديدة، وامتلأ البيت مرة أخرى بالأصدقاء من رجال الجيش والطيارين، وتحول أولاده إلى جواسيس صغار يتنافسون على جلب المعلومات من زملائهم أبناء الضباط في المدرسة والشارع، ومناوبة الحراسة ريثما ينتهي أبواهم من تحميض الأفلام، فكان نبيل يتولى المراقبة من الخارج.. وعادل من داخل البيت.. وحصل نبيل على أدوار أكثر جدية.. فكان أبوه يسمح له بكتابة الرسائل بالحبر السري وتظهيرها.. وصياغة التقارير وتحميض الصور. وذات مساء بينما هم جميعًا أمام التليفزيون.. عرض فجأة فيلم تسجيلي عن أحد الجواسيس الذي انتهى الأمر بإعدامه شنقًا.. وطوال وقت عرض الفيلم انتابتهم

حالة صمت تضج بالرعب والفزع.. واستمروا على تلك الحال لأسابيع طويلة.. امتنعوا خلالها عن كتابة التقارير أو الرسائل.. حتى تضخم لديهم الخوف وأصيبوا بالصداع المستمر.. ومرض إبراهيم فاضطرت انشراح للسفر وحدها إلى روما تحمل العديد من الأفلام.. خبأتها داخل مشغولات خشبية.

كانت الرحلة إلى روما منفذًا ضروريًا للخروج من أزمتها النفسية السيئة.. وفي الوقت نفسه لتطلب من رجال الموساد السماح لهم بالتوقف عن العمل.. فلما التقت بأبي يعقوب ضابط الموساد الداهية.. قصت عليه معاناتهم جميعًا ومدى الخوف الذي يسيطر على أعصابهم.. فطمأنها الضابط ووعدها بعرض الأمر على الرئاسة في تل أبيب.. وصحبها إلى ناد ليليّ فرقصت وشربت لتنسى همومها.. وعادت معه آخر الليل ثملة لا تعي ما حولها.. وفي الصباح وجدت نفسها عارية بين أحضانه فبكت.. ومع أحضانه الدفيئة تكرر المشهد وهي بكامل وعيها.. فذاقت للجنس طعمًا جديدًا لا تعرفه.. ولم تتذوقه مع زوجها الذي انشغل عنها ولم يعد يهتم بها.. بعدها عادت إلى القاهرة تحمل آلاف الدولارات. وكانت قبلما يفترقا في روما قد طلبت من أبي يعقوب أن يرسل في طلبها بمفردها في المرات القادمة..

هكذا.. لقد نسَت انشراح رغبتها في اعتزال الجاسوسية.. واستمرأت مذاقات اللذة الجامحة مع ضابط الموساد الذي لم يبخل عليها بفحولته المغلفة بالحنان.. وبالرغم من أن ما حدث يخالف وظيفة ضابط المخابرات ومهامه.. إلا أنه ما لجأ إلى ذلك سوى لرغبته في احتوائها.. وضمان ولائها لإسرائيل.

وفي آخر أيلول ـ سبتمبر ١٩٧٣ كانت انشراح بمفردها في رحلة أخرى إلى روما.. فاستقبلها أبو يعقوب المسؤول عن توجيهها واستلام التقارير والأفلام منها. لذلك فقد كان عليه أن يسارع بمغادرة بئر السبع إلى اللد ثم روما في كل مرة تطير

فيها انشراح خارج القاهرة. وفي ذات الوقت كان الضابط الإسرائيلي مكلفًا بألاّ يتعدى أيّ حدود مع الجاسوسة المصرية طالما رغبت هي في ذلك.. لكن ولأن انشراح كانت من النوع الحار لم تجد غضاضة في أن تنغمس في بحور اللذة لا تريد الطفو على السطح أبدًا.. حتى فاجأها أبو يعقوب بنبأ هجوم الجيش المصري والسوري على إسرائيل.. وأن احتمال القضاء على دولة اليهود أصبح وشيكًا. كان يقول لها ذلك وهو يبكي ويرتعد جسده انفعالاً.. فأخذت تواسيه وتبكي لأجله ولأجل إسرائيل.. الدولة الصغيرة التي يسعى العرب لتدميرها!!.

وفي نيسان ـ أبريل ١٩٧٤ اقترحت إنشراح على زوجها سفر العائلة إلى تركيا للسياحة.. وبينما هم في أنقرة اتصل بهم أبو يعقوب وطلب من إبراهيم أن يسافر إلى أثينا لمقابلته. ومن هناك سافر إلى إسرائيل. وفي مبنى المخابرات الإسرائيلية سألوه:

كيف لم تتبين الاستعدادات للحرب في مصر؟

فأجابهم: ـــ لم يكن هناك إنسان قط يستطيع أن يتبين أيّ استعدادات. فبعض معارفي وأقاربي من ضباط القوات المسلحة تقدموا بطلبات لزيارة الكعبة للعمرة.

وأضاف إبراهيم:

في حالة ما إذا كنت قد علمت بنية الحرب فكيف أتصل بكم..؟ فالخطابات تأخذ وقتًا طويلاً وهي وسيلة الاتصال الوحيدة المتاحة.

وبعد اجتماع مطول قرر قادة الموساد تسليم إبراهيم أحدث جهاز إرسال لاسلكي في العالم يتعدى ثمنه المائة ألف دولار. فلقد كانت لديهم مخاوف تجاه الفريق سعد الدين الشاذلي الذي يريد تصعيد الحرب.. والوصول إلى أبعد مدى في سيناء مهما كانت النتائج.. عكس السادات الذي كان يريدها حربًا محدودة..

دُرِّب إبراهيم لمدة ثلاثة أيام علـى كيفية استخدام الجهـاز.. وعندمـا تخـوف مـن حمله معه إلـى القـاهرة.. عرضـوا عليـه أن يذهـب إلـى الكيلـو ١٠٨ طريـق القـاهرة السويس الصحـراوي.. وهنـاك سـيجد فنطـاس ميـاه كبـير مثقوبًـا وغـير صـالح للاستخدام.. وخلفه جدار إسمنتي مهدم عليه أن يحفر في منتصفه لمسافة نصف المتر ليجد الجهاز مدفونًا. وأخبره ضـابط الموسـاد الكبـير أن راتبـه قـد تضـاعف. وأن لـه مكافأة مليون دولار إذا أرسل للإسرائيليين عن يقين بميعاد حرب قادمة.

عـاد إبراهيـم إلـى أثينـا ثـم أنقـرة حيـث تنتظـره الأسـرة.. فقضـوا أوقاتًـا جميلـة يستمتعون بالمال الحرام وبثمن خيانتهم.

عندما رجعوا إلـى القـاهرة استقلوا السـيارة إلـى الكيلـو ١٠٨ وغـادرت انشـراح السيارة وبيدها معول صغير.. وظلت تحفـر إلـى أن أخرجـت الجهـاز.. فنـادت علـى ابنها عادل الذي عاونها وحمله إلى السيارة ملفوفًا في عدة أكياس بلاستيكية.. وعندمـا ذهبوا بالجهاز إلىالمنزل أراد إبراهيم تجربته بإرسـال أولـى برقياتـه فلـم يتمكـن مـن إكمال رسالته.. بعدما تبين له أن مفتـاح التشـغيل أصيـب بعطـل (ربمـا نتيجـة الحفـر بالمعول).

حزن الجميع.. لكـن انشـراح عرضـت السـفر لإسـرائيل لإحضـار مفتـاح جديـد. وسـافرت بـالفعل يـوم ٢٦ تمّـوز – يوليـو ١٩٧٤ ففوجـئ بهـا أبـو يعقـوب ودهـش لجرأتهـا.. وأراد الاحتفـاء بهـا فأقـام حفـلاً صاخبًـا ماجنًـا علـى شـرفها انتهـى بليلـة حمراء.. ومنحها مكافأة لها ٢,٥٠٠ دولار مع زيادة الراتب للمرة الثالثة إلى ١,٥٠٠ دولار شهريًا (كان مرتب الموظف الجامعي حينذاك حوالي ١٧ جنيهًا).

وأثناء وجود انشراح في إسرائيل تائهة بين أحضان ضابط الموساد، كانت هنـاك مفاجأة خطيرة تنتظرها في القاهرة، فعندما كان إبراهيم يحـاول إرسـال أولـى برقياتـه

إلى إسرائيل بواسطة الجهاز، استطاعت المخابرات المصرية التقاط ذبذبات الجهاز بواسطة اختراع سوفياتي متطور جدًا اسمه "صائد الموجات"، وقامت القوات بتمشيط المنطقة بالكامل بحثًا عن هذا الجاسوس. ومع محاولة تجربة الجهاز للمرة الثانية أمكن الوصول لإبراهيم بسهولة.

وفي فجر ٥ آب - أغسطس ١٩٧٤ كانت قوة من جهاز المخابرات المصرية تقف على رأس إبراهيم النائم في سريره. استيقظ مذعورًا وفي الحال دون أن توجه إليه كلمة واحدة صاح في هلع:

أنا غلطان.. أنا ندمان.. الجوع كان السبب.. النكسة كانت السبب.. اليهود جوّعوني واشتروني بالدقيق والشاي.

ولما فتشوا البيت عثروا على جهاز اللاسلكي ونوتة الشيفرة.. والتزم إبراهيم الصمت.. وكان بدنه كله يرتجف. سحبوه في هدوء للتحقيق معه في مبنى المخابرات العامة، بينما بقيت قوة من رجال المخابرات في المنزل مع أولاده الثلاثة تنتظر وصول انشراح. تأكل وتشرب وتنام دون أن يحس بأفرادها أحد.

وعلى طائرة أليطاليا رحلة ٧٩١ في ٢٤ آب - أغسطس ١٩٧٤، وصلت انشراح إلى مطار القاهرة الدولي قادمة من روما بعد شهر كامل بعيدًا عن مصر، تدفع أمامها عربة تزدحم بحقائب الملابس والهدايا. ونظرت حولها تبحث عن زوجها فلم تجده، فاستقلت التاكسي إلى المنزل وهي في قمة الغيظ.. وعندما همت بفتح الباب اقشعر جسدها فجأة، فدفعت بالباب لا تكترث.. لكنها وقفت بلا حراك.. وبالت على نفسها عندما تقدم أحدهم.. وأمسك بحقيبة يدها وأخرج منها مفتاحين للجهاز اللاسلكي بدلاً من مفتاح واحد. وكانت بالحقيبة عدة آلاف من الدولارات دسها الضابط فيها.. وتناول القيد الحديدي من زميله وانخرست الكلمات على لسانها فكانت تتمتم وتهذي

بكلمات غير مفهومة.. وقادوها مع ولديها إلى مبنى المخابرات وهناك جرى التحقيق مع الأسرة كلها.

ولما كانت المخابرات الإسرائيلية لا تعلم بأمر القبض على أسرة الجواسيس.. وتنتظر في ذات الوقت الرسالة التي سيبعث بها إبراهيم ليطمئنوا على كفاءه عمل الجهاز.. فوجئت الموساد بالرسالة.. لم تكن بالطبع من إبراهيم بل أرسلتها المخابرات المصرية..

"أوقفوا رسائلكم مساء كل أحد.. لقد سقط جاسوسكم وزوجته وأولاده. وقد وصلتنا آخر رسائلكم بالجهاز في الساعة السابعة مساء الأربعاء الماضي".

وفي ٢٥ تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٧٤ صدر الحكم بإعدام انشراح وزوجها شنقًا. والسجن ٥ سنوات للابن نبيل وتحويل محمد وعادل لمحكمة الأحداث.

وفي ١٦ كانون الثاني - يناير ١٩٧٧ سيق إبراهيم إلى سجن الاستئناف بالقاهرة لتنفيذ الحكم. كان لا يقوى على المشي.. وإلى حجرة الإعدام كان يجره اثنان من الجنود وساقاه تزحفان خلفه بينما هو يضحك في هستيريا ثم يبكي.. وبعدما تيقن من أنه سوف يُعدم أخذ يردد آيات من القرآن الكريم بكلمات غير مفهومة ثم صاح في انهيار: سامحني يا رب.. وتلا عليه مأمور السجن منطوق الحكم.. ثمّ ردَّد الشهادتين وراء واعظ السجن.. عندئذ عرضوا عليه آخر طلب له قبل إعدامه فطلب سيجارة.. وبعد أن انتهى من تدخينها جرُّوه جرًا إلى داخل غرفة الإعدام.. فقام عشماوي بتقييد يديه خلف ظهره.. ثم ألبسه الكيس الأسود ووضع الحبل في رقبته.. وشد ذراعًا فانفتحت طاقة جهنم تحت قدميه.. وظل الجسد معلقًا في الهواء يتأرجح إلى أن همد وسكن.. واستمر النبض ثلاث دقائق وعشر ثوان بعد التنفيذ.. حتى أعلن طبيب السجن وفاة الجاسوس الذي يتعامل مع الموساد طوال سبع سنوات.

أما انشراح فقد ترددت الأنباء في حينه عن شنقها هي الأخرى.. ولكن في ٢٦ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٨٩ نشرت صحيفة "حدا شوت" الإسرائيلية قصة تجسس إبراهيم على صفحاتها الأولى.. وذكرت الصحيفة أن ضغوطًا مورست على الرئيس السادات لتأجيل إعدام انشراح بأمر شخصي منه.. ثم أصدر بعد ذلك عفوًا رئاسيًا عنها.. وتمكنت انشراح (في صفقة لم تعلن بعد تفاصيلها) من دخول إسرائيل مع أولادها الثلاثة.. حيث حصلوا جميعًا على الجنسية الإسرائيلية... وبدلوا اسم شاهين إلى "بن ديفيد" واسم انشراح إلى "دينا بن ديفيد" وعادل إلى "رافي" ونبيل إلى "يوسي" ومحمد إلى "حاييم"..!!

وعن اللحظات الأخيرة التي وضعت نهاية أسرة الجواسيس.. يقول أصغر الأبناء، عادل، في حديثه لصحيفة معاريف الإسرائيلية، الذي نشرته جريدة "العربي" القاهرية في تشرين الأول ـ نوفمبر ١٩٩٧:

بعد حرب ٧٣ قرر والدي نهائيًا أن تكون هذه السنة الأخيرة لهم في أعمال التجسس. وكانت الخطة تقضي ببيع البيت والممتلكات والسفر إلى الولايات المتحدة.. وأنا كنت في الخامسة عشرة من عمري أنذاك.. ووعدني والدي بإرسالي للدراسة في أفضل كلية هناك. وبعد أن اتخذوا قرارًا بأن تكون هذه هي السنة الأخيرة لنا في مصر شعرنا أننا أكثر راحة وأزيح حجر ثقيل من على صدورنا.

لكن كان هناك حادثان في تلك السنة هزا ثقتنا. فقد أراد والدي تجنيد شقيقه أيضًا. وأتذكر النقاشات التي دارت بين أمي وأبي حول ذلك.. فقد خافت أمي من أن يسلمنا شقيق والدي.. وحتى اليوم لست أعرف هل عرف بذلك الأمر أم لا؟

والحادث الآخر كان بعد الحرب عندما قمنا بزيارة الأخوال.. وتشاجرت شقيقة أمي "فتحية" مع ابنتها نجوى.. وكانت هناك صرخات عالية في البيت وحاول أبي

التدخل.. فأغلقت نجوى باب دورة المياه عليها وصرخت بأبي: "لماذا تتدخل؟ فالجميع يعرف أنك تعمل مع الإسرائيليين".

فدخل أبي وراءها وصفعها، وحتى اليوم لاأعرف من أين عرفت.. وشعرنا أن الأمور خرجت عن السيطرة.

وفي إحدى المرات التي سافرت فيها أمي إلى روما كي تحصل على قطع غيار لجهاز البث الذي عطب.. عاد أبي من العمل شاحبًا، وجلس على أحد المقاعد ونظر لي وهمس:

"أعتقد أنهم قد تمكنوا مني".

وصمتنا، وأضاف:

"لقد سألوا عني في العمل".

فبعد سبع سنوات من التجسس كان لأبي حواس حادة، وعندما قال لنا أنهم قد تمكنوا منه كان قد عرف ذلك عن يقين.

كان لدينا في البيت حوالي ٦ شرائط أفلام، وبدأ أبي في تمزيقها وحرقها وحرق الخطابات.. وأدركنا أن الحكاية قد انتهت.. وحتى اليوم لست أدري لماذا لم يأخذنا أبي ويهرب ولماذا لم نطلب منه الهرب؟! وأنا أسترجع تلك الأيام في مخي حتى اليوم لا أفهم لماذا ظلّينا في البيت؟

وفي صباح أحد الأيام استيقظنا على صوت طرقات قوية على الباب، وفي المدخل وقف ثلاثة من الرجال وسألوا أين أبي؟ فقلت لهم إنه في العمل، فدخلوا وطلبوا انتظاره. جلس اثنان منهم في الصالون والآخر أخذ مقعدًا وجلس بجانب الباب.. وقلت له:

"سيدي من فضلك أدخل إلى الصالون".

فأجابني قائلاً:

"أشعر بالراحة هنا" فتبادلت أنا وأخي نظرات فزعة، وحاول نبيل الدخول إلى حجرة أبي كي يدمر الوثائق التي كانت هناك.. لكن الأدراج كانت مقفلة وكانت المفاتيح مع أبي، فتابدلنا نظرات يائسة ولم نعرف ما يمكن أن نفعله.

مرت ساعة بدت كأنها الدهر ثم سمعنا أصوات سيارات. واقترب من البيت موكب يتكون من عشر سيارات وكانت سيارة أبي تسير ببطء في المنتصف، وتوقفوا أمام المنزل، واقتحم البيت عشرات الجنود ورجال المخابرات وأدخلوا أبي معهم.. وبدأوا في قلب البيت.. ولا يمكن وصف صرخات الفرحة التي خرجت من الجنود عندما وجدوا جهاز الإرسال وهنأوا بعضهم قائلين "مبروك"، وأحنى أبي رأسه وهمس لنا: "آسف يا أولادي".

ويكمل عادل الذي غير اسمه إلى "رافي بن ديفيد" حسب الرواية الإسرائيلية:

بعد القبض على والدي تركتنا السلطات المصرية وكنا في حالة يرثى لها.. وأردت البكاء والصراخ ولم أستطع.. فقد انتهى العالم بالنسبة لي.. وبعد ساعات تحدث أخي محمد للمرة الأولى "ماذا عن أمي؟" يجب أن نحكي لها ما حدث.

وفي الرابع والعشرين من آب ـ أغسطس عام ١٩٧٤، في ساعات الصباح المبكر، وصلت أمي إلى البيت، وفي جيب سري بالحقيبة كانت تخفي قطع غيار الجهاز.. وكانت قد اندهشت من عدم انتظار أبي لها في المطار، وسألت عند دخولها: "أين أبوكم؟" وكان العناق بيننا باردًا فقلت لقد سافر أبي إلى الريف، فهكذا طلب منا رجال المخابرات المصرية إخبارها.

وفهمت أمي على الفور فلا يمكن الكذب على من يحيا في ظل الموت، فاقتحمت حجرة النوم للبحث عن الجهاز هناك ولم يكن الجهاز موجودًا، فجرت نحو الحمام كي تتخلص من المواد التي تحملها. لكن كان قد فات أوان ذلك. فقد اقتحم البيت اثنان من رجال المخابرات، قال لها أحدهما:

"حمدًا لله على سلامتك يا دينا" فتظاهرت أمي بالبراءة وقالت:

"من هي دينا؟" أنا انشراح..

قالت ذلك بثقة فابتسم رجل المخابرات في رضا: "لقد اعترف زوجك بكل شيء".

ذهبنا إلى مبنى المخابرات وأمام المبنى الذي كنت أعرفه جيدًا "فقد التقطنا له بعض الصور" استقبلني رئيس النيابة العسكرية محمد السبكي وقال لي:

"سترى أبويك قريبًا".

وفي التحقيق الأول معي أنكرت وقلت إنني لا أعرف شيئًا فأخذني المحقق إلىالفناء.

بدأت المحاكمة واحتفلت وسائل الإعلام بضبط شبكة التجسس العائلية.. واليوم الذي نشرت فيه القصة كان يوم عيد قومي في مصر، ونقلت أمي إلى سجن القناطر للنساء ونقلنا نحن للسجن الحربي في القاهرة.. وقال أبي في كل مناسبة: "إن الإسرائيليين سوف ينقذوننا ويخلصوننا بعملية خاصة"، وحرص على أن يُسمع الضابط المصريين أن أصدقاءنا لن يتركونا.

أدخل أبي إلى فرع المحكوم عليهم بالإعدام، ونبيل الذي كان يبلغ ١٨ عامًا إلى الفرع الحربي.. وتم إدخال محمد إلى فرع ثالث به أشخاص ينتظرون عقوبتهم.. وأدخلوني أنا ـ وكنت في السادسة عشرة ـ إلى فرع القتلة المحكوم عليهم بالإعدام..

أدركت أنها النهاية. ولم أبك فكنت في حالة من اللامبالاة، وبعد شهر تم إخراجي لأول مرة، واقتُدت إلى المحاكمة وكان والدي وإخوتي هناك.. وانقض المصورون علينا وكان المشهد فظيعًا.

وفي الخامس والعشرين من تشرين الثاني – نوفمبر صدر الحكم.. وتم اتهامنا بخيانة الوطن والتجسس لحساب إسرائيل.. وحكم على والديّ بالإعدام، وعلى نبيل خمس سنوات أشغال شاقة، وتم إعادتي وأخي محمد إلى السجن إلى اليوم الذي يصدّق فيه الرئيس أنور السادات على حكم الإعدام.

في ذات يوم ودّعنا والدينا، وأدركت أن الأسوأ من كل شيء قد حدث.. وعدت إلى زنزانتي وأردت بالفعل الخروج للحرية.. لكني صليت من أجل ألا يوقّع الرئيس السادات على قرار الحكم.. لأنه في نفس اليوم الذي سأخرج فيه سيتدلى والدي من حبل المشنقة، وتتحول الأيام إلى أسابيع والأسابيع لشهور.. وظللت هكذا لمدة عامين في السجن.. وكل فترة كان مدير السجن يسمح لنا بلقاء أبي لكنها كانت لقاءات قصيرة ومؤثرة، وكان أبي المرتدي ملابس الإعدام الحمراء يقول لنا عن الإسرائيليين: "عندما أموت ويتم إطلاق سراحكم سافروا إلى إسرائيل.. إلى أصدقائي".

بعد عامين من رؤيتنا إياه للمرة الأخيرة.. ودون إعداد مسبق.. أخذوني وأخي محمد إلى سجن النساء للقاء أمي.. واستمر اللقاء عشرين دقيقة، وأدركنا أن نهايتها قد اقتربت فمنح مثل هذا التصريح يشير إلى أنه سيتم إعدام أمي في الأيام القريبة.

وتم إعادتنا للسجن الحربي.. وبعد عدة أيام جاء لزيارتنا بشكل مفاجئ شقيق أمي.. وتوقعت أنا وأخي محمد أنباء سيئة إلا أنه كان سعيدًا.. وبشرنا قائلاً إنه تم إطلاق سراحكم وسراح أمكم.

بعد ذلك بأسبوع صدق الرئيس السادات على إعدام أبي لكنه عفا عن أمي.

وللتمهيد أمام الرأي العام في الشوارع لعملية إطلاق سراح انشراح.. خرجت الصحف اليومية المصرية بتحقيقات عن تحول أمي إلى قديسة.. ومرورها بفترة من الاعتراف بالإثم، وذلك بعد عامين من إعلان هذه الصحف أن أمي خائنة تستحق الموت. ولم يقبل الشعب المصري قصة انشراح القديسة، وكثيرًا ما مررنا بالشوارع وبصق علينا الناس وسبُّونا.. وعدنا إلى الوراء عشر سنوات.. إلى الفقر والجوع.. وفي البداية أقمنا عند شقيقة والدتي.. وبعد ذلك انتقلنا للإقامة في الجيزة.. وعملت أنا ومحمد في أعمال موقتة، ومَن اكتشف من أصحاب الأعمال من نحن سارع بفصلنا على الفور، وفي النهاية بدأنا المتاجرة في الملابس وأدوات المطبخ، وكنا نعطي ما نكسبه لأمي ونبيل اللذين كانا لا يزالان في السجن، وفي لقاءتنا القصيرة مع أبي كان ينصحنا بالسفر لإسرائيل، لكن كنا لا نزال تحت مراقبة المخابرات طوال الوقت.

وفي ١٦ كانون الثاني - يناير ١٩٧٧ عندما وصلنا أنا وأخي إلى البيت، وجدنا أمي منخرطة في البكاء.. فقد كانوا قد أخبروها قبل ذلك بقليل أنه تم إعدام أبي في الصباح.. ولم نتمكن من رؤيته أو رؤية جثته. وفي اليوم التالي فقط نشرت صورته في كل الصحف وهو يدخن السيجارة الأخيرة قبل الإعدام.

وأدركت فجأة بعد ذلك أنه ليس لدي ما أبحث عنه في مصر، وفي هذا العام رأيت القدس لأول مرة في التليفزيون، حين تم نقل زيارة الرئيس السادات للقدس. وأخبرت أمي أنني أنوي الهرب من مصر إلى إسرائيل، وكانت الخطة هي التطوع في منظمة التحرير الفلسطينية، فقد عرفت أنهم يرسلون رجالاً من لبنان إلى إسرائيل.. واعتقدت أنه ربما يكون ذلك هو أضمن طريق للوصول إلى هناك، وجندت في المنظمة واستقبلني "الإرهابيون" بأذرع مفتوحة، وصدقوا قصة الشاب

المحبط الذي يريد الانتقام من إسرائيل على ما فعلته بأبيه، وعندما أدركت أنهم لا ينوون إرسالي لإسرائيل وإنما للتدريبات في أفريقيا تركت المنظمة.

وفي عام ١٩٨٠ قررت محاولة الوصول إلى إسرائيل عن طريق العريش التي كانت قد أعيدت لمصر، وسافرت أنا ومحمد إلى العريش كي نعبر الحدود، وخاف محمد وعاد للقاهرة وتصادقت أنا مع فتى بدوي وظلّيت مع أسرته لمدة ثلاثة أيام.. وبعد ذلك قام الفتى بتهريبي إلى إسرائيل عبر الحدود.

وبعد وصولي بشهور معدودة، نجح إخوتي أيضًا في التسلل ودخول إسرائيل.. وفي البداية تم تسكيننا في منزل للمتعاونين في قلقيلية على حدود كفار - يابا... وبعد سنة انتقلنا إلى مركز للاستيعاب.. وحصلنا على وثائق هوية إسرائيلية وعادت الحياة لتصبح جميلة.. ومن هناك أكملنا إلى حيفا وهناك اجتزنا "كورس" في الخدمة بالمطاعم والفنادق كي نحصل على مهنة.

تحولت لرافي وتحول محمد إلى حاييم ونبيل إلى يوسي.. وأحيانًا اعتقد العرب الذين عملوا معنا أننا من المتعاونين ودخلوا في شجار معنا. واليهود من الناحية الأخرى أيضًا لم يفهمونا.. فقد تحولنا إلى إسرائيليين فجأة، وكان هذا سريعًا جدًا بالنسبة لنا ربما أسرع من اللازم.. وانتقلنا إلى بئر سبع وتهودنا تمامًا وأصبحنا يهودًا. ورغم ما حصلنا عليه من أموال.. إلا أن مذاقًا مرًا بقي في فمنا.. وطوال سنوات حاولت أن أفهم كيف تم القبض علينا؟ في إسرائيل اتهموا والدي بأنه لم يكن حذرًا بما يكفي، وأحيانًا أعتقد أن يدًا مجهولة.. تحديدًا في جهاز الأمن هنا في إسرائيل.. أرادت أن يتم ضبطنا بعد تقصير حرب أكتوبر.. وإلا فكيف نفسر جهاز الإرسال العطب الذي أرسلوه لنا؟ وكيف نفسر حقيقة أنه عندما كانت أمي في روما لم تعرف المخابرات الإسرائيلية أن أبي قد ضبط وأرسلوا أمي ثانية إلى مصر؟

وقد انجذبت إلى القاهرة كما تنجذب الفراشة إلى النار، وحاولت الهرب إلى القاهرة ثماني مرات.. ومنذ عدة سنوات ضبطوني على الحدود وأخذوني في أوتوبيس لتل أبيب وهناك تم التحقيق معي لفترة طويلة.

مر عشرون عامًا منذ ذلك اليوم الذي تم فيه إعدام أبي، وقد أطلقت على ابني اسم موشيه - أي موسى.. وهو الاسم الكودي الذي حمله أبي الكولونيل موسى، واليوم أيضًا فإن الأشخاص الذين يلتقون معي للمرة الأولى لا يعرفون كيف يحددون من أنا.. هل أناعربي؟ أم يهودي؟ ويسألونني هل أنت عربي..؟ وأرد بأدب شارحًا لهم أنني مصري قد تهوّد، ومن يبدي اهتمامًا أكثر أروي له قصة حياتي فيقولون لي.. أحسنت "ويربتون على كتفي"، وعندما يبتعدون أدرك تمامًا في ما يفكرون ويعتقدون: "إن الخائن يظل خائنًا لا يغير من الأمر أين يكون فهو أسوأ البشر". وأنا إلى الآن ما زلت أعيش في الماضي.. ولم أنجح في التخلص منه.. وقد تورطت في أعمال فاشلة وأنا عاطل وغارق في ديون ثقيلة، وطلقت زوجتي، لكن جذوري الآن في إسرائيل، ابني هنا، وجاء إخوتي ورائي وأمي أيضًا، واسم أمي على نفس الاسم الكودي الذي أعطي لها دينا، وأخي يوسى عانى كثيرًا في السجن وهو لا يتحدث عن الماضي، ويعيش منذ سنوات مع زوجته في البرازيل، ويعمل حاييم في مصنع للمعادن في وسط إسرائيل.. وكلنا آباء لأطفال فماذا سنروي لأولادنا؟ سنقول لهم إن جدكم كان بطلاً وكان يسمى إبراهيم شاهين.. لكنه كان أكثر صهيونية من أي صهيوني آخر تعرفونه.. لكن جثته لا تزال في مصر.. ولا يوجد في إسرائيل نصب تذكاري لذكراه ولا شارع يحمل اسمه.. وفي ذكراه لا يوجد قبر نذهب لزيارته؟!!.

وأمي اليوم في الستين، وتمر بها موجة من الحنين، وتود العودة إلى مصر، فهي تريد رؤية إخوتها والشارع الذي سكنت فيه، وطبعًا لا تسمح لها

السلطات المصرية بذلك.. وفي السنوات التـي عاشـتها هنـا كـانت تعمـل كطاهيـة فـي المطاعم.

إن بداخلي غضب لا يمكن إغفاله، فأنا أشعر أنني مـا زلـت أدفـع ثمنًـا غاليًـا لمـا فعله أبي وأمي وما فعله الإسرائيليون.. ما فعلـه الجميـع.. ورغـم الـ ١٧ عامًـا التـي عشتها في إسرائيل، يبدو لي أنني لم أسر في الطريق الصحيح بعد.. وأحيانًا أفكر لـو لم يحدث كل هذا أين كنت الآن؟

تلك هي النهاية.. ولا يوجد أي تعليق عليها سوى العذاب الذي يعيشـه ابـن الخـائن وإخوته؟! علَّ الخونة يتعظون[١].!!

---

١ ـ الفالوجي فريد، جواسيس الموساد العرب، ص١٦٧ ـ ١٩٠.

رُونَا رِيتْشِي ورُومِيُو النِّيل

كانت "رونا ريتشي" دبلوماسيّة بريطانيّة ممشوقة القوام وجذَابة، تحطَّم مستقبلها بسبب وقوعها في الغرام بدبلوماسي مصريّ بينما كانت تعمل في تلّ أبيب.

التحقت رونا ريتشي بوزارة الخارجيّة البريطانيّة في آب ـ أغسطس ١٩٧٩، بعد أن وجدت الوظيفة المثاليّة لاسكتلنديّة تجيد لغات عديدة. وتمّ تدريبها في لندن على فنّ الدبلوماسيّة، وجاء أوّل تعيين خارجيّ لها في تمّوز ـ يوليو ١٩٨١، عندما تمّ إلحاقها بالسفارة البريطانيّة في تلّ أبيب كملحقة صحافيّة.

بعد ثلاثة أسابيع من تاريخ تعيينها، دعيت رونا ريتشي إلى حفل كوكتيل دبلوماسي في السفارة المصريّة التي افتتحت بعد معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل عام ١٩٧٩. وأدّت مصافحة بسيطة مع شابّ وسيم أسمر إلى وضع المستقبل العمليّ لرونا ريتشي على منحدر ينزلق إلى درك الفضيحة. فقد وقعت في حبّ "رفعت الأنصاري"، السكرتير الثاني للقنصليّة المصريّة، من أوّل نظرة.

لم تضطرّ المخابرات الاسرائيليّة لبذل مجهود كبير لاكتشاف الروابط بينهما. فالعاشقان لم يحاولا حتّى إخفاء علاقتهما. كانا يظهران معًا في عشرات من حفلات الاستقبال الدبلوماسيّة، أو يختلسان القبل على ضوء الشموع في المطاعم الصغيرة من شارع "بير مياهو" في شمال تلّ أبيب.

ربّما أفقد صيف البحر الأبيض المتوسّط الحار الرطب والإحساس المسكر للحريّة، والبعد عن مناخ اسكتلندا المخيف، الدبلوماسيّة البريطانيّة صوابها.

لم تستسلم الدبلوماسيّة لمحاولات تودّد عشيقها المصري فحسب، لكنّها رضخت أيضًا لطلباته الحصول على معلومات بشأن الرسائل البرقيّة التي يتمّ إرسالها إلى لندن.

وفي نهاية تشرين الثاني - نوفمبر، سلّمت رونا ريتشي الأنصاري وثيقة باللغة السريّة تكشف تفاصيل الزيارة المزمعة للورد "بيتر كارينغتون" وزير الخارجيّة البريطانيّة إلى الشرق الأوسط. وإذا وصلت هذه المعلومات إلى اليد الخطأ، يمكن أن يتسبّب ذلك في تهديد حياة كارينغتون بالخطر.

كان جهاز المخابرات الإسرائيلي "شين بيت" يراقب الموقف، وقرّر وضع حدّ لهذه العلاقة الرومانسيّة الخطيرة قبل أن يفوت الأوان. فزوّد الإسرائيليّون البريطانيّين بتقرير تفصيليّ حول هذه العلاقة. وسرعان ما تمّ استدعاء رونا ريتشي إلى لندن بحجّة بعض الأعمال، وما أن وصلت إلى الأراضي البريطانيّة حتّى تمّ إلقاء القبض عليها.

إعترفت رونا ريتشي بجريمتها، وأعربت عن ندمها، وتعاونت مع مستجوبيها، وبعد محاكمتها في "أولد بيلي"، صدرت بحقّها عقوبة بالسجن مع إيقاف التنفيذ في ٢٩ تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٨٢.

يقول المدّعي العام، السير "مايكل هافرز":

"ينبغي أن أعترف بأنّ سلوك المتّهمة كان سلوكًا أحمق أكثر من كونه شرّيرًا. فقد سمحت لنفسها بأن تنساق في تورّطها إلى مدى جعلها تكشف لعشيقها عن برقيّات سريّة".

إنهارت حياة رونا ريتشي تمامًا، عندما اكتشفت أنّ عشيقها له زوجة ولديه أطفال تركهم خلفه في القاهرة.

وفي الحقيقة، وكما أبلغ الإسرائيليّون نظرائهم البريطانيّين، فإنّ الأنصاري كان ضابط مخابرات محترفًا يستخدم وسامته لتحقيق غاياته السريّة.

عاشت صحافة الإثارة في بريطانيا يومًا مشهودًا، وخرجت عناوينها الرئيسيّة على غرار:

الدبلوماسيّة العذراء خدعها "روميو" القاهرة و"دون جوان النيل".

وقام المراسلون الإسرائيليّون في لندن، مسحورين بالمزيج المثير للجنس والجاسوسيّة، بحضور محاكمة رونا ريتشي والكتابة عنها بشكل مكثّف[١].

أمّا كيف استأنفت رونا ريتشي حياتها بعد ذلك، فلا تذكر الروايات شيئًا عن تلك المرأة التي انتقلت إلى العيش في الظلّ.

---

١ ـ رافيف دان، وميلمان يوسي، كلّ جاسوس أمير، ص٣٢٨ ـ ٣٣٠.

لي يَانغ سُونغ، أو: ليلي بيتَال

بعد ظهر يوم حارّ من أيّام شهر حزيران - يونيو ١٩٨٣، تلقّى بوليس مدينة نيو يورك مكالمة عن وقوع جريمة قتل. أسرعت الشرطة إلى المطعم الصينيّ المتواضع الذي يقع على رصيف الحيّ السكني الصينيّ في نيو يورك، واسم المطعم "تشوب سوى"، فوجدت منظرًا بشعًا...

بين قطع الأثاث المبعثر في جنبات المطعم والملطّخ بالدم، كانت هناك جثّة امرأة صينيّة جميلة، وبقربها جثّة رجل كهل، وقد طعنا حتّى الموت.

بعد تحقيق دقيق تبيّن أنّ الصينيّة القتيل كانت "لي يان سونغ"، مديرة مطعم تشوب سوى الجميلة، والتي أكسبها جمالها الزبائن الكثر، كما حازت ثقة زبائنها بفضل أطباقها الممتازة. وكانت تُعرف باسم "ليلي بيتال"، وهو إسم كان يجسّد بدقّة مدى جمالها الفتّان.

أمّا الرجل القتيل، فكان يدعى "وانغ إن بينغ""، وهو عمّ لها، كان يساعدها في إدارة أعمالها، وكان محبوبًا للطفه ودماثة خلقه من قبل الكثيرين من زبائنه، حيث كان يبيعهم مأكولات صينيّة معلّبة.

كان تأثّر الجيران بالغًا لتلك الفاجعة...

كان من الواضح أنّ صاحبي المطعم فاجأا لصوصًا يسرقون المطعم... وفي سياق التحقيق قام قسم الجرائم باستشارة فرقة المخدّرات، حسبما يقتضيه عرف التحريّات.

فقد كان من المعتقد أنّ ملفّاتهم قد تدلّ على شخصيّات مشبوهة كانت تتعامل مع تشوب سوى بطريقة ما... وكانت فرقة مكافحة المخدّرات تقوم بين الحين والحين بغارات على مطعم تشوب سوى لملاحقة المخدّرات الممنوعة، ولكنّ ذلك لم يكن غير عاديّ... بل كانت جميع الأماكن على الرصيف موضوعة تحت مراقبة مكافحة المخدّرات... وأثبت جميع تلك الغارات أنّ المطعم كان يحترم القانون بدقّة. وصنّف ضبّاط الأمن ذوو الخبرة تشوب سوى بأنّه "نظيف تمامًا وفوق كلّ شبهة"...

لم يكن لليلي أو عمّها أيّ أعداء... واعتمد البوليس خطّة ملاحقة الأغراض المسروقة لكي يكشف اللصوص. ومضت أسابيع، وأصبح التحقيق روتينيًّا. ومرّت أشهر، وصارت جريمة تشوب سوى مجرّد واحدة من الجرائم التي لم تُحلّ... وكاد ضبّاط التحقيق يتوصّلون إلى كشف جريمة أكبر بكثير من مجرّد جريمة قتل لو لم تعوزهم معرفة حقيقتين: الأولى أنّ المرأة القتيل لم تكن ليلى بيتال الحقيقيّة، وأنّ الرجل القتيل لم يكن عمّها... ولاكتشاف ذلك كان على الضبّاط أن يعودوا بالزمن إلى الوراء ستّة عشر عامًا... فمن المعروف أنّ تشوب سوى كان مقرّ قيادة شبكة التجسّس الصينيّة العاملة في الولايات المتّحدة لأكثر من خمسة عشر عامًا...

ذات ليلة باردة من ليالي تشرين الأوّل - أكتوبر، لأربعين سنة خلت، وداخل الحيّ السكنيّ الصينيّ في شيكاغو، كانت زوجة "هو يانغ سونغ" المراهقة تعاني من آلام الوضع... وعندما هدأت آلامها، انحنت بابتسامة سعيدة نحو وجه مولودها الأنثى التي سُمّيت في ما بعد "لي يان سونغ"، ولكنّ الأمّ الشابّة لم تعش طويلاً لتكحّل عينيها بمرأى "ليلي بيتال"... فبعد بضعة أيّام توفّيت بتأثير حمّى الوضع.

لم تكن حياة الترمّل سهلة بالنسبة إلى هو يانغ سونغ، فلم يكن باستطاعته الحصول على إجازة من عمله للاعتناء بطفلته، فقبل شاكرًا عرض جيران كرماء الاعتناء

بصغيرته لي. فقد أحبّ زوجته بشغف وقصر نفسه على تأمين بيت جيّد لابنته ومستقبل آمن مطمئن... وكان يعمل الساعات الطوال في غسل الثياب لصغيرته عوضًا عن أمّها.

ومضى الزمن، وكانت لي تكبر وجمالها يتفتّح، وكان يرى هو يان سونغ فيها ظلّ زوجته الحبيبة... ومكّنه عمله وحظّه من تحسين مستوى معيشته، فأضحى الحيّ الشعبيّ البائس مجرّد ذكرى غير مستحبّة...

أرهق الرجل نفسه في العمل، فجمع المال بجدّ، واشترى متجرًا، وبنى مصنعًا زاهرًا... وكبرت ثروته... فأصبحت حياته مع لي على ما يرام. وكان سعيدًا بولائه لزوجته المحبوبة التي طال زمن وفاتها. وبقي لديه أمل وحيد يراوده: أن يعود وابنته إلى أرض أجداده وأن يفتّش عمّن تبقّى من عائلته.

عندما بلغت لي الحادية والعشرين من عمرها، كانت هديّة والدها لها خبر سفرهما القريب إلى الشرق الأقصى... وكان مخطّطه أن يقضي ثلاثة أشهر في تلك السفرة على أن يترك أعماله في عهدة صديق وفيّ له.

سافر الإثنان سعيدين، إلى هونغ كونغ، مخاطرَين بإمكان عدم قدرتهما على العودة إلى مسقط رأسيهما... وبعدما قضيا أسبوعًا في هونغ كونغ، أبحرا إلى الأرض الصينيّة، حيث كانا قد أعلما قريبًا لهما بالسفر... لكنّهما ماتا قبل الوصول، ولم يُعرف كيف قضيا... والأمر الوحيد الذي عُرف هو أنّ جثّتيهما التُقطتا من قبل قارب صينيّ شيوعيّ مسلّح، بعد غرق القارب الذي كان يقلّهما.

لم تبلّغ الصين عن الحادث إلى السلطات البريطانيّة في هونغ كونغ. مع أنّ جوازي السفر اللذين وُجدا مع الجثّتين كانا يدلاّن على أنّهما مواطنان أميركيّان بالتجنّس.

قررّت قيادة المخابرات في بكين الاحتفاظ بالجوازين نظرًا لإمكان الاستفادة منهما...

وهكذا أعطيت هويّة "ليلي بيتال" مع أوراق شخصيّة أخرى إلى عميلة صينيّة للتجسّس، رائعة التدريب، ومعدّة للعمل في الولايات المتّحدة، وتدعى "مين شيو سين". ولكن ما أقلق مدير مراقبة التجسّس في الولايات المتّحدة الأميركيّة، الفوارق الفيزيولوجيّة بين الإمرأتين... فقد كانت مين تكبر ليلي بخمس سنوات، كما أنّها أطول منها بسنتيمترين، ولكن ما طمأنه هو أنّ ليلي كانت لا تزال فتيّة وكان من المعقول أن يزيد طولها قليلاً، كما أنّ مين كانت تبدو أصغر من عمرها الحقيقيّ، وهكذا فباستطاعتها أن تمرّ...

دخلت ليلي بيتال إلى الولايات المتّحدة دون أيّ مشكلة، ولكنّها لم تجرؤ على الرجوع إلى شيكاغو، إذ إنّ مقرّ قيادة المخابرات في بكين لم يستطع الحصول على أيّ معلومات عن بيئة الميت "سونغ" في شيكاغو. فإذا ما عادت "ليلي بيتال" إلى متجر والدها، ربّما تمكّن أحد الأصدقاء المقرّبين أو أحد الأقارب من اكتشاف تقمّصها لشخصيّة ليلي بيتال. فذهبت عوضًا عن ذلك إلى نيو يورك حيث استأجرت شقّة متواضعة واستشارت، بناء على أوامر بكين، محاميًا لاسترجاع ثروة والدها. وأشار المحامي عليها بسفرة إلى شيكاغو لتعمل على نقل ملكيّة التركة إليها، ولكنّ ليلى بيتال عارضت الاقتراح. فادّعت بأنّها لا تستطيع تحمّل الرجوع إلى بيتها الذي كانت تملؤه السعادة والذي يثير فيها ذكريات جارحة عن تلك المأساة القاسية.

وبينما كان المحامي مهتمًّا بنقل ملكيّة كلّ مجموع تركة "هويان سونغ" من مدّخرات وأملاك إلى ابنته، رتّبت بكين لليلي بيتال عمليّة التأقلم المعتادة. وأثناء تلك المدّة لم يكن مسموحًا لها القيام بأيّ نشاطات تجسّسيّة، وبدلاً من ذلك فقد أخذت تعوّد

نفسها على الحياة في نيو يورك. وبقيت ليلي تنتظر في نيو يورك إلى أن أنهى المحامي بيع أملاك والدها بمبالغ جيّدة سلّمها لها بعد أن اقتطع حوالى خمس هذه المبالغ بدل أتعاب له حسب الأصول المتّبعة لتحصيل أتعاب المحامين في أميركا. وبعد استلامها هذه المبالغ أمّنت لنفسها أموالاً شرعيّة تستطيع استثمارها... وهكذا بدأت بشراء مطعم "تشوب سوى" الصينيّ...

كانت بكين قد زوّدت ليلي بيتال بلائحة الأشخاص المرغوب في تجنيدهم، وهم من العقائديّين أو جشعي المال، أو ضحايا الابتزاز... وركّبت في تشوب سوى سرًّا جميع المعدّات التقنيّة اللازمة لإقامة شبكة تجسّس فعّالة، كما وضعت مبالغ طائلة من النقد النادر تحت تصرّف ليلى بيتال... وعيّنت ضابط التجسّس المجرّب "وانغ ان تونغ" كمساعد لها، متمتّعًا بستار مزيّف، على أنّه عمّ ليلي.

سرعان ما جنّدت ليلي بيتال عددًا كبيرًا من العملاء والمخبرين، ولم يكن بينهم آسيويّ واحد، فقد كانت ليلي بيتال من الدهاء بحيث لا تزرع شكوك السلطات بعلاقتها مع الآسيويّين...

كان قسم الغداء في مؤخّر المطعم يشكّل "صندوق بريد" مثاليًّا... فكان العملاء والمخبرون يدسّون نسخ الكربون القيّمة والتقارير السريّة داخل الفناجين والطاسات الفارغة عندما كانت ليلي بيتال تقوم بأخذ الصحون الفارغة. وكان الكونتوار الموجود في الممرّ حيث كان وانغ يبيع المأكولات الصينيّة الجاهزة ضمن علب مختومة، يؤمّن الدفع للعملاء... فبعد تسليمهم الأفلام الميكرو إلى ليلي بيتال، كانوا يتوقّفون عند الكونتوار لشراء المأكولات الصينيّة وإخذها إلى بيوتهم... وداخل العلب المختومة كانت تُدسّ مكافآت الجواسيس، أقلّها ألف دولار بأوراق بنكنوت من الفئات الصغيرة... وهنا يتّضح أنّ المخابرات الصينيّة الشعبيّة كانت سخيّة بالدفع للعملاء

ولشبكات التجسّس في الخارج، لأنّ مبلغ الألف دولار كان من شأنه أن يجعل حامله غنيًا في الصين بكلّ معنى الكلمة...

أحد عملاء المخابرات السوفياتيّة KGB كانت له شهيّة لتذوّق الأطعمة الصينيّة... وفي مطعم المخابرات الصينيّة بالذات... مطعم تشوب سوى لصاحبته ليلي بيتال رئيسة شبكة التجسّس الصينيّة. وبحكم وجوب تمتّع عناصر المخابرات والعملاء باستعمال واستغلال "الحاسّة السادسة" لديهم، كان عميل المخابرات السوفياتيّة قد اكتشف بذكائه وملاحظته أنّ هذا المطعم الصينيّ هو مركز هامّ لشبكة تجسّس صينيّة كبرى، وبحكم واجبه المهنيّ، أبلغ رؤساءه في إدارة المخابرات السوفياتيّة في موسكو بالأمر...

سرعان ما أصدرت المخابرات السوفياتيّة أوامرها إلى عميلها المقيم الدائم في الولايات المتّحدة الأميركيّة الكولونيل "رودولف إيفانوفيتش آبل"، وهو عميل سوفياتيّ من أقدر الجواسيس في تاريخ التجسّس العالميّ، للتدخّل في الموضوع حسب الظروف...

لم يجد الكولونيل رودولف أيّ صعوبة في التعرّف على ليلي بيتال، وإيجاد التعابير لفتح الحوار المهنيّ معها، وهو واثق من نفسه كلّ الثقة، وهي التي لم تجد أيّ حرج في خداع قومها أنفسهم... وهكذا سُمح للكولونيل آبل بالاطّلاع على كافّة الميكرو أفلام والنسخ الكربونيّة والمستندات الحيويّة الأخرى قبل أن تبعث ليلي بتال بها عبر طرقها السريّة الخاصّة إلى مقرّ المخابرات في بكين الخاصّ بـ"الشعبة الأميركيّة". كما حافظ الكولونيل آبل على حصّته من الاتّفاق، وذلك بمدّ ليلي بيتال بالأسرار الحيويّة التي كان يستلمها من عملائه... أي على طريقة "واحدة مقابل واحدة".

كانت بكين شديدة الرضى من المجالات الواسعة لشبكة ليلي بيتال، فكانت غالبًا ما تمتدحها لعملها الممتاز، غير شاكّة على الإطلاق في أنّها كانت عميلة روسيّة ـ صينيّة مزدوجة. كما أنّ الكولونيل آبل كان سعيدًا بالتقدير الروسيّ لنشاطه التجسّسيّ...

كان لشراكة ليلي بيتال السريّة مميّزات أخرى... فقد ساعد الكولونيل آبل ليلي بيتال في اتّباع وسيلة آمنة في اتّصالاتها مع عملائها، بهدف إبعاد شكوك رجال الـFBI عنها في ما لو اعتقلوا أو أوقفوا أحد جواسيسها... وقد شدّد على حماقة احتفاظها بالمعدّات التجسّسيّة التقنيّة، التي تدينها، داخل المطعم... فنقلتها من تشوب سوى إلى مخبإ أمين... ولقد حمتها نصيحة الكولونيل آبل في ما بعد عندما وشى به الكولونيل "رينوها يهمن" وقُبض عليه من قبل الـ FBI، فلم يُكتشف أو يُشَكّ بأيّ خيط يصل مطعم تشوب سوى وبين شبكة الكولونيل آبل على الإطلاق... وهكذا كان باستطاعة ليلي بيتال الاستمرار في نشاطاتها التجسسيّة ذات الفعاليّة العالية لمصلحة قيادة المخابرات في بكين لمدّة عشر سنوات أخرى...

لم تخفّف ليلي بيتال من تدابير الأمان، بل كانت في الواقع تزيدها باستمرار... فلم تمتلك مخابرات الولايات المتّحدة أو الـ FBI أيّ شكوك في وقت من الأوقات بأنّ ليلي بيتال كانت رئيسة شبكة تجسّس... وقد كان من الممكن لتجسّسها الناجح أن يستمرّ لمدّة ستّة عشر عامًا أخرى لو لم تتعرّض لنزوة رجل عجوز لم يُحسب حسابه...

ذات يوم مشمس من أيّار ـ مايو لسنين خلت، دخل رجل صينيّ عجوز مطعم تشوب سوى، وقبل جلوسه، أخذ يجول نظره حوله كمن يأمل في أن يرى شخصًا يعرفه، فأسرعت ليلي بيتال نحوه لتقوم بخدمته. وبادرها العجوز بقوله: "أنا أفتّش عن لي يان سونغ... التي تمتلك هذا المطعم"...

ذلك الشخص لم تحسب المخابرات الصينيّة إمكانيّة ظهوره أو ظهور أمثاله، وهم يبحثون عن "لي يان سونغ" صاحبة المطعم الحقيقيّة لأيّ سبب... ويكون الاستفسار من نفس العميلة البديلة التي زرعتها المخابرات الصينيّة مكان صاحبة الإسم الأصليّة التي غرقت مع عمّها في بحر الصين...

حذّرتها حاستّها السادسة... فسألته بحذر: "ألديك أعمال معها"؟...

قال: "أنا أُدعى تشو هسين فو. ولقد اشتريت أعمال والدها في شيكاغو. إنّها تعرفني جيّدًا. فنحن أصدقاء قدامى"...

كانت لحظة حرجة بالنسبة إلى ليلي بيتال، فهذا الرجل الصينيّ العجوز عرف "هويان سونغ" وابنته معرفة جيّدة، فلم تجرؤ على مخادعته... فاتّخذت قرارًا سريعًا آخر وقالت بنعومة: "أنا آسفة جدًّا. لو سبقت عدّة أيّام لكنت محظوظًا، ولكن لي يان سونغ سافرت في فرصة طويلة.

وسألها تشو هسين ـ فو قلقًا: "متى سترجع"؟...

أجابته: "بعد شهر تقريبًا... وربّما ثلاثة أشهر حتّى... ستُعلمنا بذلك".

بدت على وجه العجوز خيبة أمل، وقال: "لا أستطيع البقاء في نيو يورك كلّ هذا الوقت"...

وتنبّهت ليلي بيتال إلى أنّ زبونًا يجلس إلى طاولة قريبة كان يستمع إلى حديثهما. فالجواسيس هم دائمًا حذرون ضدّ أيّ رجل من المخابرات، كما أنّ ذلك الزبون كان قد بدأ يثير شكوكها. وبسرعة ألحّت على تشو هسين فو في الدخول إلى مكتبها الخاصّ في مؤخّر حجرة الطعام. وقالت للصينيّ العجوز: "يجب أن تكون ضيفي"... سوف أطلب تحضير صحن خصوصيّ لنا.

لم يكن تشو معتادًا على أن تستضيفه سيّدة، فجلس في مكانه محرجًا...

أكّدت له ليلي بيتال "إنّها أقرب صديقة لليلي!"... بديلتها!.

كان باستطاعة ليلي بيتال محو أيّ شكوك راودت العجوز السائل، وعندما ذهب، كانت قد استعادت كامل ثقتها بنفسها. ولكن ليس لأجل طويل... فقد أخبرها وانغ بأنّ زبونًا دائم التردّد على المحلّ ترك لها رسالة بأنّه سوف يتّصل بهل ثانية في تلك الأمسية، وذلك لمناقشة أمر خاصّ. وكان الرجل نفسه الذي كان يستمع إلى محادثتها مع تشو هسين فو... وكان شكّها به في محلّه.

إنّ حياة الجواسيس ليست بالشيّقة... فكلّ حركة يقومون بها محفوفة بالخطر، ولمدّة ستّة عشر عامًا عاشت ليلي بيتال في حالة مستديمة من توتّر الأعصاب... وكان خوفها من أن تُعتقل يحوّل حتّى الأعمال البريئة إلى أخطار تهدّد حياتها وحريّتها. وقد تأكّدت أنّه بعد تلك المدّة الطويلة عثر عليها رجال المخابرات، وارتعبت من أنّها سوف تساق إلى مقرّ المخابرات وسوف يحقّق معها بدقّة... وذُعرت ليلي بيتال... وقرّرت أن تلجأ إلى الاختباء... وبعد ذلك تجد طريقها إلى هونغ كونغ حيث تستطيع بعد ذلك الرجوع إلى مقرّ قيادة المخابرات في بكين. وكانت تحتفظ بجواز سفر معدّ خصيصًا للاستعمال في الحالات الطارئة، وكلّ المال اللازم الذي سوف تحتاج إليه... ولكنّها ارتكبت غلطة مميتة... فقد تنكّرت للمبادئ الواجب اتّباعها والموضوعة من قبل قيادة المخابرات في بكين، وتجاهلت أمر الحصول على إذن رسميّ بترك مركزها، وأخفقت حتّى في تحذير وانغ زميلها من الخطر الداهم... وفرّت بكلّ بساطة.

يرى باحثون أنّه من وقائع القصّة يتبيّن أنّ ليلي بيتال، أو عميلة المخابرات الصينيّة مين شيو سين، قد جرى تدريبها من قبل إدارة المخابرات الصينيّة الشعبيّة في مدرسة المخابرات الصينيّة في بكين، وكان التدريب أقلّ من مستوى تدريب المخابرات

السوفياتيّة، وتدريب المخابرات الأميركيّة، ومع ذلك خدمها الحظّ فقط ستّة عشر عامًا، وهي مدّة بقائها تدير مطعم "تشوب سوى"، وتدير في نفس الوقت أهمّ شبكة تجسّس لصالح المخابرات الصينيّة في قلب الولايات المتّحدة، والحقّ يقال إنّها لا تستحقّ نهايتها.. لولا أنّها "فقدت أعصابها" لدى أوّل تهديد لها بالكشف عن حقيقتها من قبل زبون المطعم "عنصر المخابرات" الذي كان غير متأكّد من شيء لدى طلبه مشاهدتها في نفس الوقت في مطعمها، ولو كان متأكّدًا من كونها جاسوسة لما ترك لها مجالاً للهرب، ولما كان وضع خبرًا شفويًّا مع زميلها بينغ، عمّها في المهمّة، بأنّه سيحضر مساء لمناقشة أمر خاصّ معها... بل لو أنّ عنصر المخابرات، رغم ذكائه، لو أنّه تأكّد ممّا سمعه من حديثها مع الصينيّ الزائر، لكان قد أكّد لرؤسائه عمالتها وتورّطها بالتجسّس، وبالطبع كان رؤساؤه في المخابرات الأميركيّة قد اتّخذوا الإجراءات المناسبة للقبض عليها حالاً... ولكنّه تصرّف من نفسه وترك لها رسالة لتنتظره مساء، وهذا خطأ عنصر المخابرات الأميركيّة أيضًا، لأنّ أيّ منتسب لأجهزة المخابرات في العالم، وليس في أميركا، لا يحقّ له التصرّف بشكل شخصيّ، بل عليه أن يُعلم رؤساءه بكلّ صغيرة وكبيرة يعلم بها أو يشاهدها، ويترك الباقي على عاتق رؤسائه الذين يتصرّفون وفق المصلحة العامّة ويقرّرون مصير أيّ خبر أو خطر أو جاسوس...

أمّا الجاسوسة ليلي بيتال، فقد فقدت أعصابها مرّة واحدة إذ إنّه كان من الممكن أن يقتنع عنصر المخابرات الأميركيّة ببراءة مظهرها أنّها امرأة عاديّة اشترت المطعم مع عمّها لتعيش منه وتشكّل ثروة مثل جميع المغامرين الذين يعيشون في الولايات المتّحدة لطلب الرزق، مثلما تدرّبت قبل زرعها كجاسوسة بهذا الشكل. ولعلّ هذا الموظّف قد تصرّف بهذا الشكل لإعجابه جسديًّا بليلي، وقد كان يضمر في قرارة نفسه إنشاء علاقة

معها لا أكثر ولا أقلّ... لكن لدى حضوره مساء، وهو يمنّي النفس بلقائها، لم يجدها، وصرّح له زميلها بينغ بأنّها اختفت بعد إعلامها بطلبه مشاهدتها... لكنّه مع هذا انتظر الساعات المتبقّية من دوام فتح المطعم... ولم تعد، فشارك زميلها الاستغراب لغيابها بهذا الشكل المفاجئ.

أعطى موظّف المخابرات لنفسه نفسًا طويلاً فانتظر لليوم الثاني حيث عاد باكرًا إلى المطعم، ليجد زميل أو عمّ ليلي هو الآخر مشغول البال على غيابها المفاجئ، فقرّر بعد ذلك إعلام رؤسائه بهذه الحادثة الغريبة، ورجع إلى مركز المخابرات الأميركيّة معلنًا عمّا حدث معه بالضبط، فجرى تأنيبه لتأخّره بإعلام قيادة المخابرات لتتصرّف حسب الصلاحيّات الممنوحة لها من قبل القيادة السياسيّة في البلاد... وصدف، في هذه الأثناء، أن مرّ إلى المطعم مندوب المخابرات الصينيّة الذي كان يشكّل صلة الوصل بينها وبين شبكة ليلي المختفية قبل أن تقوم المخابرات الأميركيّة باتّخاذ أيّ إجراء... ولو كان إجراء هذه المخابرات سريعًا، كما يُفترض في مثل هذه الحالات، من وضع المكان المشبوه فورًا تحت المراقبة التي تشمل الهاتف، لكانت اصطادت سمكتين بصنّارة واحدة:

السمكة الأولى، هي العثور على أجهزة التجسّس والاتّصال التي لم تتمكّن ليلى من أخذها معها وإخفائها؛ والثانية أنّها كانت قبضت على مندوب المخابرات الصينيّة الذي حضر إلى المطعم وغادره بدون أن يتنبّه إليه أحد...

عندما حضر مندوب المخابرات الصينيّة إلى المطعم، وجد بينغ، زميل ليلي، مضطربًا لا يعرف ماذا يفعل، وقصّ على المندوب كيفيّة حضور الزبون المزعج وسؤاله عن ليلي ثمّ اختفاء ليلي الغامض، فاستنتج مندوب المخابرات الصينيّة أنّها المخابرات الأميركيّة... وطلب من بينغ أن يفتح له الباب أو المدخل الخلفيّ للمطعم،

حيث أدار سيّارته بسرعة البرق إلى هناك، ونقل إليها بلحظات وبشكل مطابق للأفلام الجاسوسيّة جميع أدوات التجسّس من المطعم الصينـيّ، وفرّ هاربًا دون أن يترك أيّ أثر...

اتّخذت المخابرات الأميركيّة قرارًا بتفتيش مطعم تشوب سوى، وعمّمت أوصاف صاحبة المطعم على جميع السلطات لإلقاء القبض عليها ومنع مغادرتها الولايات المتّحدة بأيّ شكل برًّا وبحرًا وجوًّا. وعلى الفور، حضرت ليلاً، أي بعد انتهاء العمل في تقديم الطعام، ثلاث سيّارات تحمل عناصر عديدة من المخابرات برئاسة ضابط... فوجد هؤلاء بينغ يشرب الويسكي... وسرعان ما قاموا بتفتيش المطعم وغرفة النوم الملحقة به والتي كانت مملوءة بأجهزة التجسّس... فلم يجدوا شيئًا.

وقد اعتبر باحثون خبراء أنّ حضور المخابرات ليلاً له دلالة مهنيّة، وهي عدم فضح العمليّة للجيران أو بصورة عامّة حتّى استنفاد جميع الوسائل الممكنة لكشف أكبر قدر من المعلومات والمراجعات عن الموضوع.

عند ذلك، أمر الضابط عنصرين من المخابرات بالبقاء مع بينغ في المطعم وفي غرفة النوم بالذات، حتّى يصحو من سكره أوّلاً، وانتظارًا لما يجدّ من الأمور ثانيًا، لعلّ ليلي تعود أو يحضر سواها... وغادر الباقون المطعم بدون أن يشعر بهم أحد من الجيران، خاصّة وأنّ بينغ كان في حالة من السكر الشديد لا تسمح باستجوابه ومعرفة حضور مندوب المخابرات الصينيّة العاملة في الولايات المتّحدة بشكل فعّال وقويّ.

في اليوم التالي، جرى التحقيق مع بينغ الذي أخفى عن المخابرات الأميركيّة كلّ شيء بعد أن وجد أنّه لا دليل لديهم ضدّه، أو حتّى ضد ليلي الغائبة، وخرج من التحقيق مثل خروج الشعرة من العجين، كما يقول المثل العربيّ، وانسحبت عناصر

المخابرات من المطعم، وتُرك بينغ يتابع أعماله في المطعم مع عمّاله وكأنّ شيئًا لم يحدث.

في الطرف الثاني من العمليّة، كانت المخابرات الصينيّة الشعبيّة بكامل قوّتها... فقد نقل مندوب هذه المخابرات لها ما حصل معه لدى زيارته الروتينيّة لمطعم تشوب سوى لاستلام المعلومات المتواصلة من عميلتهم ليلي بيتال رئيسة شبكة الجاسوسيّة للمخابرات الصينيّة، كما أبلغها عن تصرّفه بنقل أجهزة التجسّس من المطعم على مسؤوليّته، ممّا جعل المخابرات الأميركيّة تخفق في معرفة أيّ شيء، جاءه الجواب من شعبة العمليّات في مقرّ المخابرات الصينيّة في بكين مشجّعًا، حيث شكره رؤساؤه على حسن تصرّفه، وطلبوا منه البحث بكلّ جهد مع كافّة أفراد فريق المخابرات الصينيّ العامل معه في الشبكة الرئيسيّة، والاستعانة بفرع مخابرات القنصليّة الصينيّة في مدينة نيو يورك، إذا لزم الأمر، لمعرفة مكان اختفاء ليلي...

بعد ثلاثة أسابيع، عثرت عناصر المخابرات الصينيّة على مخبإ ليلي التي لم تستطع الفرار خارج الحيّ السكنيّ الصينيّ، فنقلوها ثانية إلى مطعم تشوب سوى ليلا، حسب الأوامر التي تلقّوها من شعبة العمليّات، وقتلوها وقتلوا معها زميلها بينغ الذي اعتُبر فاشلاً ومتآمرًا، وعمدوا لجعل هذه الجريمة المزدوجة تبدو وكأنّها اقتُرفت على أيدي لصوص، حيث جرى تكسير بعض ديكور المطعم وغرفة النوم... وفعلاً اعتبرت الشرطة الأميركيّة هذه الجريمة من الجرائم التي لم تُحلّ... وسُجّلت ضدّ مجهول.

وهكذا تنتهي هذه القصّة الحقيقيّة، التي كُشف عنها مؤخّرًا، عن أعمال المخابرات الصينيّة الشيوعيّة الشعبيّة، لتبقى في أرشيف شعبة العمليّات في بكين[1]...

---

١ ـ الجزائري سعيد، المخابرات والعالم، دار الجيل (بيروت،١٩٩٧) ٥: ٩٣ ـ ١٠٧.

سيلفا رافائيل

كانت "سيلفا رافائيل" إحدى أبرز نساء جهاز الموساد. وُلدت في جنوب أفريقيا من والد يهوديّ وأمّ غير يهوديّة، ومارست عملها في المخابرات الإسرائيليّة أكثر من خمسة عشر عامًا، وذهبت فيه إلى النهاية. وكانت تملك شقّة في باريس وأخرى في تلّ أبيب. وقد قُتلت سيلفا رافائيل في مرفأ لارنكا بجزيرة قبرص في ٢٥ أيلول ـ سبتمبر ١٩٨٥ على ظهر يخت إسرائيليّ مع رفيقَين لها هما "زيفين بالزيو" مدير الموساد في أوروبّا، ونائبه "أبراهام أفنيري"[١]. فكانت نهايتها جثّة ممزّقة بالرصاص مرميّة على "درابزون" اليخت الذي كانت تعدّه مصيدة لرجال المقاومة الفلسطينيّة في لارنكا، لكنّها قُتلت برصاص ثلاثة شبّان منهم، سلّموا أنفسهم بعد العمليّة إلى السلطات القبرصيّة. وكان هؤلاء الثلاثة الذين هزّت أصداء عمليّتهم صحافة العالم: "جورج حنّا" (٢٧ عامًا)، "يحيى ناصيف" (٢٤ عامًا)، و"خالد عبدالله" (٢٤ عامًا).

كانت هناك جهتان بالتحديد تعرفان وحدهما على وجه الدقّة خطورة وأهميّة تصفية الإسرائيليّين الثلاثة في ميناء لارنكا. الجهة الأولى

---

١ ـ زهر الدين د. صالح، الموساد بين الإخفاق والاختراق، في موسوعة الأمن والاستخبارات في العالم، المركز الثقافي اللبناني (بيروت،٢٠٠٣) ص٦٩ ـ ٧٠؛ الحاج سالم د. وجيه، وخلف أنور، الوجه الحقيقي للموساد، ص٤٧؛ الخير هاني، أشهر الاغتيالات السياسيّة في العالم، الكتاب العربي (دمشق،١٩٨٨) ص٢١٢ ـ ٢١٣؛ حسن ديب علي، المرأة الصهيونيّة، المكتبة الثقافيّة (بيروت،١٩٩٥) ص١٩٤.

هي الحكومة الإسرائيليّة وجهاز مخابراتها الموساد؛ والجهة الثانية جهاز الأمن الفلسطينيّ.

كانت سيلفا رافائيل هي قائدة هذا الفريق التجسّسي الإسرائيلي، بالرغم من مكانة رفيقيها في جهاز الموساد. وعندما كان من الطبيعيّ أن تقوم إسرائيل بعمليّة انتقام، فقد قامت بالإغارة على مقرّ منظّمة التحرير الفلسطينيّة في "حمّام الشطّ" في تونس[1].

وقد ذكر باحثون أنّ المفاجأة التي أسفرت عنها عمليّة لارنكا واغتيال سيلفا رافائيل، كانت مدويّة للغاية، ذلك أنّ سيلفا رافائيل كانت هي نفسها "إستر يالستر"، وهي نفسها أيضًا "إريكا ماري تشامبرز" التي اغتالت أبو حسن سلامة في بيروت في ٢٢ كانون الثاني - يناير ١٩٨٩، وهي المرأة نفسها التي كانت تنتظر في السيّارة أثناء عمليّة اغتيال "وائل زعيتر" في روما في ١٧ تشؤين الأوّل - أكتوبر ١٩٧٢، كما أنّها المرأة نفسها التي كانت في عمليّة "فردان" بيروت التي اغتيل فيها القادة الفلسطينيّون الثلاثة: "كمال ناصر" وكمال عدوان" و"أبو يوسف النجّار" ليلة ١٠ نيسان – إبريل ١٩٧٣، وكان "أيهود باراك" مشاركًا فيها بلباس وزيّ امرأة. كما أنّ سيلفا رافائيل كانت هي نفسها التي شاركت في عمليّة اغتيال العامل المغربي في النروج "أحمد بوشكي" ظنًّا بأنّه أبو حسن سلامة، وكان ذلك في ٢١ تمّوز - يوليو ١٩٧٣؛ كما أنّها المرأة نفسها التي فُتّشت حقائبها في فندق الـ"إكسلسيور" في بيروت إذ كان مشكوكًا بأمرها كجاسوسة ولم يُسرق شيء من غرفتها ولكنّها غادرت بيروت فورًا؛ وهي المرأة نفسها التي ظهرت في عمّان على أنّها فرنسيّة تدعى "ماغي"... وهي "باتريسيا

---

١ - زهر الدين د. صالح، الموساد بين الإخفاق والاختراق، ص٧٠ - ٧١؛ الخير هاني، أشهر الاغتيالات السياسيّة في العالم، ص٢١٣ - ٢١٤؛ مجلّة "الوطن العربي"، عدد ١٢ كانون الأول ديسمبر ١٩٨٥.

لوكسمبورغ المصوّرة الصحافيّة في الأردنّ في أواخر ستّينات ومطلع سبعينات القرن العشرين[1]... إنّها باختصار سيلفيا رافائيل التي عاشت نجاحات وإخفاقات وفشلاً أيضًا، حيث تُوّجت أعمالها أخيرًا بوقوعها في الفخّ الأمني الفلسطيني في ميناء لارنكا، ما أودى بحياتها ووضع حدًّا لعمليّات القتل التي كانت تمارسها.

وقد ذكرت معلومات أنّ سيلفيا رافائيل كانت رئيسة الشبكة الموساديّة التي قتلت العامل المغربيّ في النروج على أنّه أبو حسن سلامة، كما ذكرنا، وأنّها كانت زوجة محامي المحكمة العليا للنروج، ذي المنصب السامي، ومن خلاله مُنحت الجنسيّة النروجيّة وأصبحت مواطنة نروجيّة منذ العام ١٩٧٩، ولعلّ هذه العلاقة كان لها دورها في إخفاء وتهريب رئيس الموساد "زفي زامير" الذي اشترك شخصيًّا بالعمليّة، ولو أنّه اعتُقل لكانت كارثة وفضيحة كبرى للموساد[2].

وقد اعتبر باحثون أنّ سيلفيا رافائيل تبقى أخطر جاسوسة للموساد في خلال عقد من الزمن، ويصعب على الموساد أن يجد مثيلة لها بسهولة على صعيد العنصر النسائيّ الاستخباريّ والتجسّسيّ.

---

١ ـ الخير هاني، أشهر الاغتيالات السياسيّة في العالم، ص٢١٢؛ العلوي أيمن، الجاسوسيّة الإسرائيليّة تحت المجهر، دار الرافد (لندن،١٩٩٣) ص١٢٩ ـ ١٣٢.

٢ ـ ميخائيلوف فلاديمير، إرهابيّو الموساد، دار التقدّم (موسكو،١٩٨٧) ص١٦٣.

تشيريل بنتوف

كانت "تشيريل بنتوف" مساعدة عميل موساد. وُلدت في "أورلاندو" في "فلوريدا" لعائلة يهوديّة غنيّة، وقد انتهى زواج والديها بطلاق صاخب. ووجدت تشيريل عزاءها في الدراسات الدينيّة التي أدّت بها إلى تمضية ثلاثة أشهر في مزرعة تعاونيّة "كيبوتز" في إسرائيل. وهناك انغمست في درس التاريخ اليهوديّ واللغة العبريّة، فقرّرت البقاء في إسرائيل. وفي الثامنة عشرة من عمرها تعرّفت إلى يهوديّ من مواليد فلسطين يدعى "أوفر بنتوف" وأغرمت به، وكان أوفر يعمل محلّلاً في جهاز الاستخبارات الإسرائيلي العسكري "أمان". وبعد سنة من تعارفهما اقترنا.

كان من كبار المدعوّين إلى حفلة الزفاف عدد من كبار المسؤولين في جهاز الاستخبارات الإسرائيليّة، وكان من بينهم عضو في شعبة التجنيد في الموساد. وسأل تشيريل في خلال الحفلة الأسئلة التي توجَّه إلى أيّ عروس، ومنها هل ستستمرّ في العمل بعد الزواج؟ هل ستُنجب حالاً؟...

كانت تشيريل متأثّرة بالأجواء الاحتفاليّة فقالت إنّ خطّتها الوحيدة هي أن تعمل على إيجاد السبيل لتعيد إلى بلدها قليلاً من الكثير الذي أعطاها إيّاه، مشيرة إلى أنّ إسرائيل هي عائلتها.

بعد شهر من عودتها من شهر العسل، اتّصل بها ضيف حفلة الزفاف هاتفيًّا وقال لها إنّه فكّر بما تحدّثا عنه وهو يظنّ أنّه عثر على الطريقة التي يمكنها بها تقديم

العون. واتّفقا على اللقاء في مقهى في وسط تلّ أبيب، حيث أدهشها الرجل إذ ذكر لها بدقّة متناهية علاماتها المدرسيّة وتاريخ عائلتها وكيف تعرّفت إلى زوجها. فأوضح أنّ كلّ هذه المعلومات مسجّلة في ملفّ زواجها في جهاز "أمان" حيث يعمل زوجها.

كان مسؤول التجنيد يدرك أنّ العلاقة بينه وبين الشخص المرشّح للتجنيد غالبًا ما تتطلّب الحذر، فهي تشبه العلاقة بين مشعوذ ومبتدئ يخضع لعمليّة الإدخال إلى جماعة سريّة لها إشاراتها الخاصّة وتعويذاتها وطقوسها. وبعد اطّلاع تشيريل على هويّة الجهة التي يعمل معها ألقى المسؤول موعظة معدّة سلفًا. فقال إنّ الموساد يبحث دائمًا عن أشخاص يريدون أن يخدموا بلدهم. وأثناء حفلة زفافها، وصفت إسرائيل بأنّها عائلتها، والواقع أنّ هذا حال الموساد. حالما يُقبل طلبك الانضمام تصبحين فردًا من أفراد العائلة التي تحميك وترعاك. وفي المقابل تقومين بخدمة العائلة كما يُطلب منك. فهل يعجبك هذا؟

أعجب هذا تشيريل. وقيل لها إنّها ستخضع لاختبارات أوليّة.

في خلال الأشهر الثلاثة التالية أُجري لها عدد من الامتحانات الكتابيّة والشفويّة في بيوت سريّة مختلفة في أنحاء تلّ أبيب. وقد سجّلت على الدوام معدّل ذكاء هو ١٤٠ في كلّ هذه الاختبارات. وهذا المعدّل العالي، إضافة إلى نشأتها الأميركيّة ومعلوماتها العامّة ومهاراتها الاجتماعيّة، جعلت منها مجنّدة فوق المعدّل الوسطيّ. وقيل لها إنّها تصلح للتدريب.

قبل ذلك كانت لتشيريل جلسة أخرى مع مسؤول التجنيد الذي قال لها إنّها توشك الدخول إلى عالم لن يمكنها أن تتحدّث عن اختباراتها فيه لأحد، ولا حتّى لزوجها. وفي مثل هذا المكان الموحش ستشعر بأنّها عرضة للوقوع في إغراء الثقة المفسِد، ولكن ينبغي ألاّ تثق بأحد سوى زملائها. سوف تتلقّى درسًا في الخديعة، وتتعلّم كيفيّة

استخدام أساليب تتنافى مع كلّ إحساس بالشرف والحشمة. وينبغي أن تقبل الطرق الجديدة لتحقيق المطلوب. وقد تجد بعض ما يُطلب منها القيام به مقيتاً جداً لكن عليها أن تنظر إلى الأمور في ضوء المهمّة التي تقوم بها.

مال مسؤول التجنيد نحوها فوق الطاولة في غرفة المقابلات، وقال إنّه لا يزال في إمكانها أن تغيّر رأيها من دون أن تتعرّض لاتّهامات مضادة. كما لن يكون هناك أيّ إحساس بالتخلّف عن القيام بالواجب من جهتها...

قالت شيريل: "إنّي على استعداد تامّ للخضوع للتدريب"...

خلال السنتَين التاليتين وجدت نفسها في عالم كان حتّى ذلك الوقت جزءاً صغيراً من تسليتها المفضّلة، وهي مشاهدة الأفلام السينمائيّة. علّموها كيف تشهر مسدّساً أثناء جلوسها على كرسيّ، وكيف تتذكّر أكبر عدد ممكن من الأسماء التي تلمع أمامها على الشاشة الصغيرة بسرعة متزايدة. كما علّموها كيف تخبئ مسدّساً من نوع "باريتا" داخل سروالها، على الورك، وكيف تحدث فتحة خفيّة في تنورتها أو فستانها لتسهيل تناول المسدّس...

بين الحين والآخر، كان مجنّدون آخرون من أفراد صفّها يتركون مدرسة التدريب. ولم تكن تلك الحالات موضوع نقاش. أرسلوها في مهامّ للتدرّب منها اقتحام غرفة فندق يقيم فيها أحد النزلاء وسرقة وثائق من أحد المكاتب. وكان مدرّبوها يحلّلون طرقها لساعات طويلة. وكانوا يوقظونها من الفراش في منتصف الليل ويرسلونها في تمارين جديدة مثل التعرّف إلى أحد السيّاح في أحد النوادي الليليّة ثمّ التخلّص منه عند مدخل فندقه. وكان معلّموها يراقبون كلّ خطوة من خطواتها.

وجّهوا إليها أسئلة حميمة عن تجاربها الجنسيّة، كم من الرجال عاشرت قبل زواجها؟ وهل تضاجع رجلاً غريباً إذا استدعت مهمّتها ذلك؟ فأجابت بصدق أنّها لم

تعرف رجلاً قبل زوجها وأنّها إذا تيقّنت تمامًا من أنّ نجاح مهمّتها مرتهن بمضاجعة رجل غريب فستفعل... ويكون ما تفعله عملاً جنسيًّا صرفًا خاليًا من الحبّ. وقد تعلّمت كيف تستخدم الجنس كي تُكره الآخرين على عمل ما وكيف تغريهم وكيف تسيطر عليهم. وأجادت ذلك كلّه إجادة تامّة.

علّموها كيف تفرغ مشط رصاص كاملاً في أحد الأهداف. ودرسة المذاهب الإسلاميّة المختلفة. وكيفيّة صنع صندوق للرسائل الميتة. وأمضت يومًا كاملاً حتى أتقنت تمامًا صنع العوّام، أي لصق قطعة من الميكروفيلم داخل أحد المغلّفات. وخصّصت يومًا آخر كاملاً للتخصّص في حشو القطن بمهارة داخل فمها حتّى تغيّر ملامح وجهها. وتعلّمت سرقة السيّارات، والتظاهر بالسكر، والتحرّش بالرجال...

وفي أحد الأيّام استدعاها رئيس مدرسة التدريب إلى مكتبه وراح ينظر إليها من فوق ومن تحت وكأنّه يتفحّصها ليتأكّد من كلّ بند في لائحة مخزونة في عقله. وأخيرًا قال لها: نجحت.

وعُيّنت تشيريل بنتوف مساعدة عميل في دائرة الموساد المكلّفة التنسيق مع السفارات الإسرائيليّة. كان دورها المحدّد أن تظهر كصديقة أو زوجة لأحد ضبّاط الموساد الفاعلين. وقد عملت في عدد من المدن الأوروبيّة مدّعية أنّها مواطنة أميركيّة، فكان لها عدد من "العشّاق" و"الأزواج"، لكنّها لم تضاجع أيًّا منهم.

من أهمّ العمليّات التي نفّذتها تشيرين للموساد، اختطاف تقني معمل ديمونة النووي المدعو "موردخاي فعنونو"، والذي كان انتقل إلى لندن عبر أستراليا وفاوض جريدة "صانداي تايمز" على نشر وثائق وصور تتعلّق بمفاعل ديمونة، وتؤكّد تورّط الإسرائيليّين في صنع قنابل نوويّة. وكان فعنونو قد ارتدّ عن اليهوديّة واعتنق المسيحيّة وأصبح داعية سلام. وعندما تأكّد للحكومة الاسرائيليّة أن الجريدة اللندنيّة قد

اقتنعت بمعلومات فعنونو، وأنّها ستنشر تلك المعلومات، فوّض رئيس الحكومة شمعون بيريز إلى رئيس الموساد ناحوم عدموني إجراء المقتضى. فتقرّر خطف عدموني إلى إسرائيل.

كان مدير الموساد ناحوم عدموني هو من حدّث تشيريل عن أهميّة مهمّتها الجديدة، فبعدما عُرف مكان إقامة فعنونو سيكون عليها أن تستخدم مواهبها حتّى تغريه بالرحيل عن بريطانيا. وهذه المرّة ستتخفّى وراء زعم بأنّها سائحة أميركيّة تسافر وحيدة في أوروبّا بعد تجربة طلاق مؤلمة. ولتعزيز صدقيّة قصّتها يمكنها استخدام تفاصيل من قصّة انفصال والديها. وكان الجزء الأخير من قصّتها أنّ لها أختًا في روما، وستكون مهمّتها هي أن تصطحب فعنونو إلى هناك.

يوم الثلاثاء في ٢٣ أيلول ـ سبتمبر ١٩٨٦، انضمّت تشيريل بنتوف إلى فريق من تسعة ضبّاط موساد سبقوها إلى لندن. كانوا يعملون بإمرة مدير العمليّات في الموساد "بني زئيفي"، وهو شخص كالح الوجه له أسنان وسخة من أثر التدخين المتواصل.

كان ضبّاط الموساد يقيمون في فنادق تقع بين شارعَي "أكسفورد ستريت" و"ستراند". وكان اثنان منهم ينزلان في فندق "ريجنت بالاس". أمّا تشيريل بنتوف فقد نزلت في فندق "ستراند بالاس" في الغرفة رقم ٣٢٠ باسم مستعار هو "سيندي جونسون". واستأجر زئيفي غرفة في فندق "مونتباتن" على مقربة من الغرفة ١٠٥ التي ينزل فيها فعنونو. ولعلّه كان من بين الناس الذين لاحظوا تقلّب مزاج التقني المنشق، فقد كانت تبدو على فعنونو علائم الإجهاد. كانت لندن بيئة غريبة لشخص نشأ في بلدة "بئر السبع" الصغيرة في فلسطين. وعلى الرغم من جهود مرافقيه من صحيفة "صاندي تايمز"، فقد كان متوحّدًا ومتعطّشًا لصحبة النساء ومضاجعتهنّ. كان علماء النفس في الموساد قد توقّعوا مثل هذا الاحتمال. ويوم الأربعاء ٢٤ أيلول ـ سبتمبر، ألحّ فعنونو

على مرافقيه بأن يدَعوه يخرج بمفرده فوافقوا متردّدين. لكنّ أحد المخبرين الصحافيّين تبعه من دون علمه إلى ساحة "لستر سكوير" حيث رأى فعنونو وقد شرع في التحدّث إلى إحدى النساء. وقد وصفت الصحيفة تلك المرأة في ما بعد بأنّها "في وسط العشرينات من العمر، طولها متر وسبعون سنتيمترًا، ممتلئة الجسم، شعرها أشقر مصبوغ وشفتاها غليظتان وتضع قبّعة بنيّة اللون وترتدي بذّة بسروال من التويد البنّي، وتنتعل حذاءً بكعب عال، وربّما كانت يهوديّة".

وبعد قليل افترقا. وعندما عاد فعنونو إلى الفندق قال لأحد مرافقيه إنّه تعرّف إلى فتاة أميركيّة تدعى سيندي. وقال إنّه يعتزم أن يراها ثانية.

قلق المخبرون الصحافيّون وقال أحدهم إنّ ظهور سيندي في ساحة لستر سكوير قد يكون أكثر من مجرّد صدفة، لكنّ فعنونو رفض مخاوفهم. ومهما يكن ما قالته سيندي له فقد راق له إلى حدّ أنّه يعتزم أن يمضي مزيدًا من الوقت بصحبتها، وليس في لندن بل في شقّة شقيقتها في روما.

سافر بني زئيفي وأربعة ضبّاط موساد على الطائرة نفسها التي حملت تشيريل وفعنونو إلى روما. ولدى وصولهما ركبا سيّارة أجرة إلى شقّة في الحيّ القديم في المدينة. هناك كان ثلاثة من ضبّاط الموساد بالانتظار، فتكاثروا على فعنونو وحقنوه بمخدّر شلّ حركته. وفي وقت لاحق من تلك الليلة وصلت سيّارة إسعاف ونُقل فعنونو على نقّالة من المبنى. وقال ضبّاط الموساد الذين تظاهروا بالقلق للجيران أنّ قريبًا لهم أصيب بوعكة. وصعدت تشيريل إلى سيّارة الإسعاف التي انطلقت بهم.

خرجت سيّارة الاسعاف من روما واتّجهت إلى الساحل. وهناك في نقطة اتُّفق بشأنها من قبل كان زورق سريع بالانتظار، فنقلوا فعنونو إليه. كان الزورق على

موعد مع سفينة شحن ترسو بعيدًا عن الشاطئ، فحملوا فعنونو إليها وسافر بني زئيفي وتشيريل معه. وبعد ثلاثة أيّام، وفي وسط الليل، كانت السفينة ترسو في ميناء حيفا.

أمّا تشيريل بنتوف، فتوارت عن الأنظار وعادت إلى عالمها السرّي.

بعد عشر سنوات، عادت تشيريل إلى أورلندو، وقد أصبحت أسمن، وكان شعرها الذي كانت تهتمّ بتسريحه من قبل يتطاير في نسيم فلوريدا. كانت تزعم أنّها تمضي إجازة في عالم "ولت ديزني" بصحبة ابنتيها الصغيرتين.

في نسان - إبريل ١٩٩٧ واجهها مراسل لصحيفة "صانداي تايمز"، فلم تنكر أنّها لعبت دورًا في عمليّة خطف موردخاي فعنونو. وقالت إنّ مصدر قلقها الوحيد هو أن "يؤذي" النشر "وضعها" في الولايات المتّحدة[١].

---

١ ـ طوماس غوردون، إنحطاط الموساد، إغتيالات وأكاذيب وارتزاق، ترجمة د. محمّد معتوق، دار بيسان (بيروت،٢٠٠٠) ص٢٠٦ ـ ٢١٠.

ليديَا فَان هيردين... الدبلوماسيَّة الجنُوب أفريقيَّة

كانت "ليديا فان هيردين" السكرتيرة الثالثة في البعثة الدبلوماسيّة لحكومة جنوب أفريقيا لدى الأمم المتّحدة، والتي تمثّل رأس الرمح في فضيحة بلادها... قد فُصلت من وظيفتها منذ مدّة عقب اكتشاف علاقتها بأحد أعضاء البعثات الدبلوماسيّة العربيّة في نيو يورك، والتحقيق معها في تسريبها المعلومات والوثائق السريّة في محاولة منها للاحتفاظ بعلاقتها العاطفيّة مع الدبلوماسيّ العربيّ...

فقد طرحت الدوائر الدبلوماسيّة في العواصم الغربيّة آنذاك تساؤلاتها حول شخصيّة الدبلوماسيّ العربيّ الذي فجّر فضيحة التجسّس تلك التي شغلت اهتمام الرأي العامّ في حكومة جنوب أفريقيا، واتّخذت منها صحف المعارضة وحزب أفريكانا في العاصمة بريتوريا مادّة خصبة راحت تلوّح بها لإسقاط الحكومة...

لقد أشارت المصادر الدبلوماسيّة العربيّة في العاصمة البريطانيّة إلى أنّ نشاطات الدبلوماسيّة الجنوب أفريقيّة، التي كانت في سنّ الثانية والثلاثين يومذاك، والتي كانت متّهمة بالتجسّس لحساب صديقها الدبلوماسي العربيّ والعضو السابق في البعثة الدبلوماسيّة المصريّة في الأمم المتّحدة، ظلّت سرًّا مطويًّا طوال مدّة علاقتها به أثناء عملها في مكتب سفير بلادها في نيويورك، إلاّ أنّها عندما تحوّلت إلى عبء على كاهل الدبلوماسيّ المصريّ، بعد أن عاد إلى القاهرة، وأخذت في ملاحقته ومطاردته بزياراتها له في بلاده ومحاولات استثمار علاقتها السابقة به، اضطرّ إلى إبلاغ وزارة

الخارجيّة في حكومة بلادها، وأرفق بلاغه بصورها الخليعة لتفسير سلوكها تجاهه، الأمر الذي أدّى إلى استدعائها إلى عاصمة بلادها وإجراء تحقيق معها أسفر عن فصلها من الخدمة... والتقاط أجهزة الإعلام والصحافة المعارضة وزعماء حزب أفريكانا في بريتوريا تفاصيل الحادثة، وتحويلها إلى فضيحة مثيرة طالبوا من خلالها بإسقاط الحكومة برمّتها.

غير أنّ الدبلوماسيّة المتّهمة "ليديا فان هيردن"، عندما استجوبها ضبّاط المخابرات في حكومة جنوب أفريقيا، لم تنفِ علاقتها العاطفيّة السابقة بالدبلوماسي المصريّ، رغم أنّها كانت متزوّجة في ذلك التاريخ.

وحول أهميّة الأسرار والوثائق السريّة التي سرّبتها، كان المتحدّث الرسميّ باسم وزارة الخارجيّة "أوي ماريز" في حكومة بريتوريا قد حاول في بيان رسميّ التقليل من قيمتها وأهميّتها، والإلحاح في البيان على أنّها كانت في منصب السكرتير الثالث، ويصعب توفّر أيّ أسرار رسميّة أو وثائق بين يديها... إلاّ أنّ صحيفة "بيليد" الناطقة باسم حزب أفريكانا المعارض، يومذاك، أشارت إلى تفاصيل الفضيحة الدبلوماسيّة التي احتلّت صفحاتها الأولى خلال الأيّام التي تلت ظهور الفضيحة، وقالت إنّ الدبلوماسيّة العاشقة كانت قد سلّمت إلى صديقها الدبلوماسيّ المصريّ في شهر كانون الثاني - يناير ١٩٩٠، أسرار الزيارة السريّة لوزير خارجيّة حكومة جنوب أفريقيا "بيك بوتا" إلى المجر، ومباحثاته مع كبار المسؤولين في حكومتها حول خطط التعاون الفنّي والتكنولوجيّ بين الدولتين، في الوقت الذي ظلّت فيه هذه الزيارة سرًّا محظورة معرفته إلاّ من قبل عدد محدّد من أعضاء الحكومة في جوهانسبورغ.

من ناحية أخرى، كشفت تفاصيل الفضيحة الدبلوماسيّة في جنوب أفريقيا أسرار الحياة الخاصّة لليديا فان هيردين، التي طلّقت من زوجها الأول القنصل العام في نيو

يورك وتزوّجت من ابن عمّها، واتُّهمت باختلاس شيكات رسميّة بلغت قيمتها ١٦ ألـف جنيه، ثمّ هربت مع الزوج الثاني خارج جنوب أفريقيا، وهـو زوجهـا الـذي خانتـه مـع الدبلوماسيّ المصريّ وسببت بخيانتها تلك كلّ هذه الفضيحة[١].

١ ـ الجزائري سعيد، ملفّ التسعينات عن أعمال المخابرات، دار الجيل (بيروت،١٩٩٧) ٢: ٥١٩ ـ ٥٢١.

غبريال غَاست: ألمانيَّة غربيَّة ... مستَشرقة

في نهاية عام ١٩٩١، أصدرت المحكمة الألمانيّة العليا في ميونيخ عاصمة إقليم بافاريا، الحكم بسجن الجاسوسة الألمانيّة الحسناء "غبريال غَاست" (٤٨ سنة) لمدّة ستّة أعوام وتسعة أشهر، عقوبة على قيامها بالتجسّس طوال عشرين عامًا لحساب مخابرات القطاع الشرقيّ. وكان المدّعي العام في محكمة بافاريا العليا في ميونيخ قد طالب بسجنها ثمانية أعوام، غير أنّ القضاة خفّضوا الحكم بسبب قناعاتهم بالدوافع العاطفيّة التي قادتها إلى الوقوع في شباك التجسّس، ومراعاة للظروف والدوافع التي وظّفت فيها مشاعرها لحساب عمليّات جمع المعلومات السريّة طوال عقدين من الزمن. كما أصدرت نفس المحكمة حكمًا بالسجن ثمانية عشر شهرًا مع إيقاف التنفيذ على عشيقها الضابط السابق في جهاز المخابرات الألماني الشرقي، سابقًا، "كارل هينز شنايدر"...

كانت الجاسوسة الألمانيّة الحسناء غبريال غَاست قد زوّدت المخابرات الألمانيّة الشرقيّة في حينه بكمّ هائل من الوثائق السريّة ونسخ من التقارير اليوميّة الاستخباريّة التي كانت تقوم بإعدادها لمكتبَي المستشارَين الألمانيّين هيلموت شميدت وهيلموت كول منذ أن تمّ تجنيدها على يدي ضابط المخابرات الألماني الشرقي كارل هينز شنايدر في عام ١٩٦٨، وعقب انتقالها للعمل في دائرة مكافحة الجاسوسيّة السوفياتيّة، وأنشطة التخريب في جهاز المخابرات الألمانيّة الغربيّة في عام ١٩٧٣، وما أتاح ذلك من توفّر المزيد من الأسرار والوثائق الخطيرة، والمعلومات المحظورة والغاية في السريّة. وعندما ارتقت إلى تولّي منصب نائب مدير هذه الدائرة، أصبحت صيدًا ثمينًا يسعى

العديد من أجهزة المخابرات الشرقيّة للوصول إليها بأيّ ثمن، حيث دفع في طريقها ضابط المخابرات الألماني الشرقيّ كارل هينز شنايدر، الذي نجح في الإيقاع بها واستغلال سهولة قيادتها... وذلك عن طريق لمس مشاعرها والعزف على إيقاعات عواطفها المتأجّجة وضعف نوازعها بحثًا عن الرجل المناسب الذي لم يكن سوى الثعلب الماكر كارل شنايدر.

رغم ما أثارته فضيحة اكتشاف تجسّس الحسناء الألمانيّة غبريال غَاست من هزّة عنيفة في الأوساط الحكوميّة والأمنيّة الألمانيّة الغربيّة في قمّة سنوات الحرب الباردة، فإنّ المأزق الدستوريّ الذي أصبحت تواجهه الدوائر القضائيّة في ألمانيا بعد التوحيد، حتّم مراجعة الاتّهامات الموجّهة إلى من أسهموا في ممارسة أنشطة التجسّس في كلا القطاعين، وقد أصبح الأمر يفرض رؤية مغايرة بعد تغيّر مواقف السياسيّين الألمان في القطاعين منذ انهيار النظام الشيوعي في ألمانيا الشرقيّة، وإزالة جدار برلين، والمضيّ السريع في عمليّة التوحيد، ومواجهة حالات المئات من الضبّاط العاملين سابقًا في أجهزة المخابرات الألمانيّة الشرقيّة ومحاولة إيجاد إجابات حاسمة للموقف من محاكمتهم طبقًا لقوانين مكافحة التجسّس في القطاع الغربيّ السابق، أو إسقاط التهم الموجّهة إليهم، منذ أن أصبحوا مواطنين في دولة واحدة...

اعتبر كثيرون من رجال القضاء الألمان أنّ الظروف التي تلت عمليّة التوحيد، قد أصبحت تتطلّب مراجعة شاملة لمواقف الجواسيس السابقين وإسقاط أيّ اتّهامات موجّهة إليهم من أجل تضميد جراح الماضي وإسدال الستار على ممارسات وآلام لحقت بالآلاف من المواطنين الألمان[١]...

---

١ ـ الجزائري سعيد، ملفّ التسعينات عن أعمال المخابرات، دار الجيل (بيروت،١٩٩٧) ٢: ٥٣١ ـ ٥٣٣.

المراجع والفهرس

لائحة المراجع

الجزائري سعيد، المخابرات والعالم، دار الجيل (بيروت،لا.ت.)

الحاج سالم د. وجيه، وخلف أنور، الوجه الحقيقي للموساد.

حسن ديب علي، المرأة الصهيونيّة، المكتبة الثقافيّة (بيروت،١٩٩٥)

خوري حاتم، شولا كوهين أخطر جاسوسة إسرائيليّة عرفها الشرق الأوسط، دار اليقظة للنشر (بيروت، ١٩٩٣٦)

الخير هاني، أشهر الاغتيالات السياسيّة في العالم، الكتاب العربي (دمشق،١٩٨٨)

ديكون رينشترد، الموساد، جهاز الموت اليهوديّ الدامي، تعريب لجنة الإعداد والترجمة، المكتبة الثقافيّة (بيروت،١٩٩٥)

رافيف دان، وميلمان يوسي، كلّ جاسوس أمير، تعريب ممدوح لطفي، دار الكتاب العربي (دمشق،١٩٩١)

زهر الدين د. صالح، الموساد بين الإخفاق والاختراق، المركز الثقافي اللبناني (بيروت،٢٠٠٣)

زهر الدين د. صالح، عمليّات وقرصنة إلكترونيّة، المركز الثقافي اللبناني (بيروت،٢٠٠٣)

زهر الدين د. صالح، ملفّ الاستخبارات الإسرائيليّة، المركز الثقافي اللبناني (بيروت،٢٠٠٣)

سنجر كيرت، أعلام الجاسوسيّة العالميّة، ترجمة بسّام العسلي، دار اليقظة العربيّة (بيروت،١٩٦٥)

صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، مكتبة مدبولي (القاهرة،٢٠٠٣)

طوماس غوردون، إنحطاط الموساد، إغتيالات وأكاذيب وارتزاق، ترجمة د. محمّد معتوق، دار بيسان (بيروت،٢٠٠٠)

العلوي أيمن، الجاسوسيّة الإسرائيليّة تحت المجهر، دار الرافد (لندن،١٩٩٣)

الفالوجي فريد، جواسيس الموساد العرب (مكتبة مدبولي،٢٠٠٣)

فولكمن إرنست، الجواسيس: عملاء سرّيون غيّروا مجرى التاريخ، ترجمة مصطفى الرزّ، مكتبة مدبولي (القاهرة،١٩٩٩)

مجلّة "الوطن العربي".

المجلّة العسكريّة، تصدر عن قيادة الجيش السوري، ترجمة الرائد الطيّار ماجد حموي، العدد السابع، السنة الحادية عشرة (شباط،١٩٦١)

Aviezer Golam & Pinkes Danny, The Pearl - Shula Code Name, Delacorte Press (New York,1980)

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة



